تاريخ جيجلي

Algérie-Photos Meraniche Nabil

لصاحبه : شارل فيرو

مترجم : الحملة الاستعمارية

ترجمة : عبد الحميد سرحان



تاريـخ جيجلـي

لصاحبه: شارل فيـرو
مترجم: الحملة الاستعمارية

ترجمة: عبد الحميد سرحان



بسم الله الرحمن الرحيم

الطبــعة
1431هـ -2010م



دار الخلدونية للنشر والتوزيع

05، شارع محمد مسعودي- القبة القديمة - الجزائر.
هـ/ف : 021.68.86.48 - هـ :021.68.86.49
البريد الإلكتروني : khaldou99_ed@yahoo.fr

الإيداع القانوني : 4606/2010
ردمك: 978- 9961- 52- 008- 6

كلمة المترجم

"إجيلجلي السحر إني ها هنا ثمــل
من الهوى والحشى بالشعر تستعر"
الشاعر حسن دواس

"إن القوم درسونا وفهمونا... أننا لن نضيع ما دمنا
متمسكين بالعرى القوية من الإسلام والعروبة والشرق".
الشيخ البشير الإبراهيمي

لم تحظ جيجل، هذا البلد الطيب الجميل الـذي حبـاه اللـه طبيعـة فاتنـة وجـوا رائعا، بالاهتمام مثلما حظيت في كتابات "شارل فيرو" مـترجم الحملـة الفرنـسية، إذ خصص لها كتابا مفردا يتناول جوانب الطبيعـة الجغرافيـة والتـضاريس والـسكان، والتقاليد والعادات التي تأثرت أيما تأثر بطبيعة البلد.

إن الموقع الجغرافي المتميز الذي كانت تتمتع به جيجل والـذي بوأهـا أن تكـون دائما حاضرة في قلب الأحداث، نظرا لأن الطبيعة الوعرة وسلسلة الجبال الصعبة التي كانت تحيط بها جعلت هذا البلد مكانا منيعا يحتمي به الفارون من السلطان ويلجـأ إليه المستنجدون طلبا للدعم والمساندة منذ أقدم العصور، ليس هو الـذي أوحـى إلى الكاتب "فيرو" بوضع هذا الكتاب عن جيجل بل إن الذي أملى عليه ذلك هو الموقف الاستراتيجي الاستعماري الفرنـسي للتمكـين لبلـده في هـذا الـصقع. وإذن فهـو مـن الكتـب التـي حاولـت أن تـصيغ تـاريخ المنطقـة صـياغة تنـسجم مـع الأهـداف الاستعمارية.

ومهما يكن فإن كتاب"تاريخ جيجل" "لشارل فيرو" يعد أقدم كتاب يخـصص لجيجل. وقد أصبح المصدر الذي يستقي منه المعلومـات كـل مـن أراد التحـدث عـن جيجل خاصة الذين يكتبون بالفرنسية، وهو كتـاب تخـتلط فيـه الخرافـة بـالواقع، والأسطورة بالحقيقة والخيال بالعلم.

وهو على ما يشتمل عليه من أحكام جاهزة ومبالغات كثيرة وافتراضات قد تجانب الصواب في بعض المواقع وفي بعض المناحي، إلا أنه يعتبر أقدم كتاب وضع عن منطقة جيجل، وبالرغم من أنه لم يذكر فيه شيئا أكثر مما ذكر عن جيجل لدى المؤرخين القدامى والرحالة العرب والرومان والإغريق. إلا أن القارئ يجد نفسه أمام عمل كتابي قد تناول هذه الناحية بنوع من التفصيل لم يسبقه إليه أحد، وبنوع من المنهجية والانتقائية في اختيار الأحداث وترتيبها و إبرازها و إهمال وطمس البعض الآخر منها، موظفا في عمله هذا نصوص وأقوال من سبقوه من العرب وغيرهم كابن خلدون وغيره، مسهبا في الوصف الدقيق للتضاريس الجغرافيا للجهة، محاولا تقديم بعض التفاسير لعادات وتقاليد وأخلاق السكان التي تخدم الوجود الاستيطاني للاستعمار وتبرر ادعاءاته وأفعاله واحتلاله.

ومما لا شك فيه أن فرنسا التي كانت تقود حربا من أجل احتلال الجزائر بالحديد والنار كانت بالتوازي تقوم بحرب ثقافية لطمس الثقافة الجزائرية من جهة وللتمكين لثقافتها من جهة أخرى. وفي هذا السياق يمكننا أن ندخل هذا الكتاب.

وعلى أية حال فإن هذا الكتاب يمكن أن يدرج ضمن الكتب التي كتبت عنا ولكنها لم توجه إلينا بل وجهت لغيرنا وبالأخص للفرنسيين المعمرين. **فهي من** الكتابات التي درستنا وفهمتنا قصد التحكم فينا والتعامل معنا كما يقول **العلامة** الشيخ البشير الإبراهيمي. لذلك لا ننتظر من صاحبه الحيادية معنا أو الموضوعية خاصة إذا علمنا أنه كان يقوم بمهمة لصالح بلده، ولا نأمل منه أن يقول عنا الحقيقة. ولكن بحكم الالتحام الذي كان لنا معهم والتصادم الذي كان لنا بهم في معارك شرسة وضارية في مواقع كثيرة. وبحكم أن هذه المعارك لم تدون فيها الأحداث إلا من جانب المحتلين ومن وجهة نظرهم فقط ولأن شهادة الأسلاف على هذه الأحداث لم يتوفر لها الحظ في التسجيل الكافي لأسباب عديدة لا داعي لذكرها هنا، وحتى ما سجلتها الذاكرة الشعبية عن طريق الأهازيج والأغاني فقد ضاعت بمرور الزمن.

ومن ثم يتحتم الرجوع إلى ما دونه الغزاة، وهو على ما يحمل من نظرة أحادية يؤكد بطولات الأجداد وصلابتهم ومقاومتهم الباسلة التي يقر بها العدو نفسه.

"إنكم لن تنالوا السلم اذهبوا إذن وابحثوا عن بلد آخر يمكنكم القيام فيه بحرب تكون أكثر فائدة لكم". بهذا تفوه أحد المقاومين الأبطال منذ أن وطأت أقدام العدو هذه البقاع مخاطبا المحتلين الفرنسيين، وقد أثبت التاريخ صحة كلامه.

ومما يبرز المقاومة الباسلة و يسجل المعارك البطولية التي قام بها أجدادنا ضد المحتل في هذه الناحية والتي لم يصل إلينا منها إلا ما شهد به العدو ووصفه أفراده في رسائلهم وكتاباتهم. فقد وصف أحدهم هذه المعارك بأنها"معارك العمالقة"، وقال آخر يصف شجاعة القبائل: "إن هؤلاء القبائل هم المقاتلون الأكثر شجاعة في إفريقيا".

إنه من الأهمية بمكان أن يطلع القراء على هذا الكتاب، لا لأنه يقدم أفكارا ومعلومات جديدة عن المنطقة. ولكن لأنه يقدم هذه الأفكار وهذه المعلومات بانتقائية محكمة، وبكيفية لا تخلو من انسجام مع منطق الاحتلال، ومع تبريراته لهذا الاحتلال قصد التأثير والإقناع، سواء كانت عملية الإقناع موجهة للقارئ الفرنسي أو الجزائري.

إن المتأمل في هذا الكتاب يدرك من غير عناء أن صاحبه لا يؤرخ فيه إلا للفرنسيين الوافدين على الجزائر دون الأهالي، فهو بهذا المعنى يعتبر تاريخهم في جيجل وليس تاريخ السكان، وهو موجه إليهم بالدرجة الأولى، بل ألف لسد حاجة من حاجات مواطنيهم في هذا البلد، ذكر ذلك صاحب الكتاب في المقدمة، أما الأهالي كما يسمون فهم أشياء من هذه البقاع، لا يرتبطون بالأحداث الفاعلة إلا بمقدار ما يريد الكاتب أن يربطهم بها.

إنك لا تجد ذكرا واضحا للأشخاص الذين قاوموا الاستعمار في هذه المعارك، ولكنك تجد أن الفرنسيين قد قاموا بمعارك بطولية طاحنة، وأنهم لاقوا مقاومة شرسة لم يجدوا لها مثيلا في من قبل في معاركهم الأخرى.

ومهما يكن فإنه من الواجب أن نعرف ما كتب عنا، بل من الضروري أن نطلع على ما كتبه الآخر عنا مهما كانت هذه الكتابات التي أصبحت مصدرا لبعض الكتاب المغرضين الذين يساعدون على نشر ما ورد فيها من أحكام. غير أن هذه الكتابات ينبغي أن تقرأ قراءة واعية متأنية ممعنة النظر في كل ما قيل ليحصل التمييز بين ما هو حق مما هو باطل، وبين ما هو صحيح مما هو زائف. وكذلك للتعرف ولأخذ صورة عن النظرة التي كان ينظر بها إلينا والتي لا تزال سائدة في ثقافتهم إلى اليوم.

إن ترجمة وجمع وتحليل هذا النوع من الكتابات يعد أكثر من ضرورة، لأنها الأرض الخصبة التي تنطلق منها وتنمو فيها بذرة الأفكار الممزقة للوحدة وللانسجام الوطني فكريا وعاطفيا و إيديولوجيا. خاصة عندما تجد هذه الأفكار فراغا، وعندما تكون مجرد آراء وافتراضات انتقلت من المستعمر إلى المستعمر وتحولت من وجهات نظر الغير عنا إلى مسلمات و إلى عقائد وأيديولوجيات يتبناها في التفكير والتحليل والتعليل من انساقوا وراء أطروحات المعمر في التحضر والتقدم.

وكما كان من المحتم القيام بالجهاد الأصغر لتحرير البلاد والعباد من نير الاستعمار، كان يتحتم أيضا القيام بالجهاد الأكبر لتحرير العقول وتخليص الأفكار والأذهان من الأفكار المسبقة ومن الأحكام الجاهزة التي كتبت عنا وتبناها البعض منا عن وعي أو غير وعي، والتي مازالت تهيمن على التفكير وتكبله وتجره إلى منطق أصحابها.

إن الترجمة كانت من الوسائل التي استخدمها الاستعمار لفهم المجتمع الجزائري وآلياته. فقد ترجم كل ما وقع عليه من تراث ووثائق ورسائل وحتى الأغاني الشعبية كانت محل نقل إلى الفرنسية كلما كانت خادمة لأغراضه، يستخلص منها الأحكام التي تناسب ما يريد مهملا الباقي. و المجلة الأفريقية تدل على ذلك.

وهنا يجدر القول إنه إذا كان الاستعمار قد كان في حاجة إلى الترجمة لصياغة أحكام واستنتاج أفكار عنا انطلاقا من حياتنا ومن تراثنا الذي عثر عليه، فنحن

أحوج إلى هذه العملية للتعرف على هذه الأحكام وفهم أغراضها وترجمتها حتى يعرف الناس ما هي الخانات التي كنا نصنف فيها وما هي الأفكار التي كانت تقال عنا.

و الواقع أنني لست بصدد تقديم تحليل عن تفاصيل مضمون هذا المؤلف، فهذا من شأن المختصين الذين عليهم أن يتناولوه بالدراسة فهما وتحليلا وتشريحا ونقدا ليظهروا فيه الحق من الباطل والصحيح من الزائف والموضوعي من الذاتي. ولكن عملي يقتصر فقط على الترجمة التي حاولت أن ألتزم فيها الدقة والموضوعية ونقل الأفكار بأمانة وصدق قدر المستطاع، آملا أن يطالعها القارئ في جو إيديولجية صاحبها "شارل فيرو" وأن يحكم عليها بنفسه.

وأشير هنا أخيرا إلى أنه منذ أن وقع هذا المؤلف بين يدي شغلت ذهني فكرة نقله إلى العربية، وتكونت لدي رغبة قوية في ترجمته دفعتني إلى مراجعة النصوص المستشهد بها من قبل الكاتب في مصادرها الأصلية خاصة العربية منها، كمقدمة ابن خلدون وكتاب نزهة المشتاق للإدريسي، وإلى مراجعة بعض النصوص العربية المثبتة بالمجلة الأفريقية كالرسائل المتداول في العهد التركي، وبعض الأغاني الشعبية.

وأخيرا، لا يسعني وأنا أدفع بهذه الترجمة إلى الطبع، إلا أن أشكر الذين شجعوني على القيام بهذا العمل، وساعدوني في البحث على المراجع والمصادر التي يجب أن تراجع، وأخص بالذكر على بن حبيلص أستاذ التاريخ والجغرافيا، ومريبعي أحسن مفتش التربية والتعليم الأساسي.

أرجو أن يكون عملي هذا مفيدا يسد حاجة لدى القراء الكرام، كما أرجو أن أكون موفقا. والله أسأل التوفيق والسداد.

جيجل في 15 أكتوبر 2002

المترجم: عبد الحميد سرحان

تاريخ مدن مقاطعة قسنطينة

لقد بينا العام الماضي، ونحن نصدر دراسة عن مدينة بجاية إلى قرائنا، أن هناك دراسة أخرى من نفس النوع ستخصص للمدن الأخرى بمقاطعة قسنطينة. إن الاستحسان اللائق الذي لقيه عملنا يعتبر تشجيعا قويا لنا، يحملنا على الاستمرار في النهج الذي رسمناه، المحدد تحديدا وافيا في الأسطر الآتية المقتبسة من مقدمة تاريخنا لبجاية:

(إن الناس الذين استيقظت لديهم الرغبة والفضول ـ وهذا طبيعي جدا ـ في معرفة ماضي البلد حيث وضعهم القدر. هم عادة في أغلب المدن الجزائرية محرومون من المصادر التي توفرها عاصمة المتروبول كثيرا. إن قسنطينة بالذات التي هي المركز الرئيسي لمقاطعتنا مهما يمكن أن تكون مكتبتها البلدية مزودة بالمصادر فإنها مازالت لا تتوفر على تاريخ لها. لا أحد قد شرع إلى حد الآن تقريبا في وضع التسلسل التاريخي المفصل، المبعثرة عناصره في النشريات المتخصصة النادرة جدا في أغلب الأحيان، المتعلقة بميدان البحث والتي لم تعرف ـ والحق يقال ـ إلا من القلة القليلة من الناس. ولكي تجمع هذه العناصر لا بد من الوقت الكافي للعكوف على كثير من الأبحاث المتأنية.

"لقد سمعت كثيرا الناس يشتكون من الافتقار إلى كتاب في متناول كل فرد، سهل المطالعة يجمع في نفس الوقت كل ما تهمهم معرفته عن وطنهم المختار. إن جمعية الآثار لمقاطعة قسنطينة التي التزمت بمهمة جمع وتسليم كل الأحداث الواقعية التي يمكن أن تلقي بعض الضوء على التاريخ المحلي للنشر، تتشرف أيضا بأن تستجيب للرغبة الواضحة ونحن نتجرأ بأن نثق بأن المشروع الذي تصورته الجمعية بعيد عن أن يعتبر سابقا لأوانه. وبالعكس فإنه سيلاقي إقبالا حسنا. إن عملا بهذا الحجم، مع أنه يتألف من عدد كثير من المستخلصات من خير الأعمال التي نشرت لا

يمكن أن يرتجل في يوم واحد. ولكن، فالأمر ليس بأيدينا إن لم يتم إنـجازه في أقـرب وقت ممكن. ومن غير ادعاء في الجانب الأدبي لهذا العمل فإن له مزية الإفادة بالنسبة لسكان البلد".

إن مهمتنا تنحصر حاليا في تجميع وتنسيق الوقائع والأحداث - نقولها ونكررها . أمـا مؤرخو المستقبل للجزائر فمهمتهم الحكم عليها واستنتاج الخلاصة.

لقد كنا قد تكلمنا بالأمس عن مدينة بجاية وسنهتم اليوم بمدينة جيجلي.

أولا وقبـل كـل شيء ننبه إلى سؤال لايعدم أن يطـرح علينا لمعرفة لماذا نكتب هذا الاسم: جـيجلي بدلا من جيجلي (بالجيم المعطشة) بالضبط الكتابي المتبنى عموما في الآونـة الأخيـرة. وسـأجيب بأنـه كـتب بـهذا الشكـل لنفس العلـة التي خص بهـا اسـم الجزائر وبجاية ومدن أخرى كثيرة، بدلا من الجزائر (بالجيم المعطشة)، وبجاية (بالجيم المعطشة) كما اقتضتـه القواعـد التي تبنتها اللجنة العلمية لـكتابة الحروف الـهجائية العربية بالفرنسية.

إن طريقتنا تقترب أكثر من نطق الأهالي، ومن الاسـم الأصلي للمستعمرة الرومانية لإيـجيلجيلي، خاصة وأنـها تمتاز باختصـار الكلمة التي هي فضلا عن ذلك لـم تـكن تكتب بصيغة أخـرى في بـداية فتحنا كـما أنـه يمكن التأكد منها بالرجوع إلى كل الوثائق الرسمية لهذا العهد.

لقـد كـان بحـارة المتـوسط يسمـونـها زيـزري ـ زيـجري ـ جيجري، وأخيرا جيجري (بتشديد الراء)، جيجل وجيجلي (بالجيم المعطشة). أما اشتقاق الاسم القديم لإيجيلجيلي. فيبدو لنا من الصعب تحديده. فهناك بفلسطين مدينة قلقلة أو قلقيليا، حيث مسح شاوول ملكا وهي مستعمرة إسـرائيلة، تكون قـد أطلقت اسـم موطنـها القديم على المكان الذي نزلت فيه عندما كانت مهاجرة على الشاطئ الإفريقي. أو يمكن أيضا قبول افتـراض أن الاسـم القديـم لإيـجيلجيلي انـحرف عن الكـلمة البربرية "إيغيل" التي تعني الربوة. وهذا الافتراض ينسجم كثيرا مع مظهر

البلد الذي يجاور جيجلي، فالكلمة المكررة "إيغيـل ـ أيغيـل" مستعملـة في الكلام البربري العـادي للدلالـة على تعـاقب الروابي. إذ أنه تبعا لتبادل وقلب الحرفين أصبح إيغيل ـ إيغيل هي إيجيل - إيجيل ثم إيجيلجيلي. إنـها افتراضـات معضلـة وليست مـن السهـولة بحيث لا أجـرؤ على الـخوض فيها، ولكني اقتصر على الإشارة إليها.

جيجـل

في ليلة 21 إلى 22 أوت 1856 حـوالي العاشرة، شعر الناس بهزة أرضية عنيفـة مصحـوبة بدوي الرعد ـ في بـاطن الأرض. وقـد اهتزت كـل الديار تقريبا من جراء هذه الصدمة الأولى، فقد انهار كل من المسجد والبرج الجينوي القديم، وعدد من البيوت محدثة فرقعة شديدة. لقد انجذب البحر إلى مسافات بعيدة ليمتد على نفسه في الحين مالئا ما أحدثه من فراغ، محدثا هديرا مخيفا. لقد دامت الرجة ثانية، فاندفع السكان المضطربون إلى خارج الأسـوار فزعين متوقعين رجات جديدة، التي لحسن الحظ لم تسبب كارثة أخرى. وقد هلك بعض الأشخاص تحت الأنقاض.

وفي الغد كان الناس قد دخلوا إلى المدينة المطمئنة من جراء الهدوء الذي كان قد بدأ يستتب عندما وقعت، حوالي منتصف النهار أيضا، هزة مصحوبة بانفجارات باطنية أكثر عنفا وأطول من تـلك التي وقعت بالعشيـة متسببـة في تصدعات عميقة في الأرض، وفي هيجان البحر، لقد زلزلت الأرض من جديد. ومنذ هذه اللحظة كان الدمار قد تم نهائيا، لقـد غـطت هـذا المشهـد الكئيب سحـابة من الغبـار كبيرة عليها مسحـة من الـحزن وعندمـا انتهت الزلزلة لم تـكن أية دار قد بقيت منتصبة.

وبالرغم من الهزات الخفيفة فإنه ابتداء من يوم 24 فإن الطمأنينة قد عادت. وقد تم الاشتغـال بالإنقاذ، وبتجديد المدينة منشئين بيوتا خشبيـة خـارج السـور القديـم في مـوقع الجنائن، وقد خيم السكان وقتيا مثل الفرقة تحت الخيم.

استمـرت الـهزة الأرضية أكثر من سـنة، وكـانت تحدث يوميـا أحيانا، ففي لأشهر الأولى التي تلت الكارثة كانت تحدث عدة مرات في اليوم ثم ضعفت شيئا فشيئا لئلا تظهر من جديد.

كان شتاء 1856 إلى 1857 قاسيا جدا، فالناس مازالوا يتذكرونه، لـقد قال لنا شاهد عيان: منذ عهد قريب كانت إقامتنا في الخيم والقرابي التي كان الريـح والبرد

يقتلعانها أحيانا، كانت حدائق وحفر وأخاديد أمامنا، ووحل تحت أقدامنا، وقد جاءت الحمى بمظهرها المرعب، حمى بطيئة متقطعة تسببت في أضرار خطيرة.

وبحماس متشابه بنى السكان بسرعة مدينة جديدة، وبالمشاركة الوحيدة للقائد الأعلى روبيرت الذي كان متواجدا، والذي مازال حيا في ذاكرة الجميع. أسسوا جيجل العصرية، وبالعزم والمثابرة اللذين وهبهما جزائريونا، أنجزوا في وقت وجيز مدينة لا تقوى على تخريبها إلا كارثة أو قرون من الزمن.

تلك هي الأسباب التي جعلت جيجل تبدو بمظهرين متميزين جدا، ظهر المدينة العربية القديمة التي تحولت إلى قلعة، ومظهر المدينة الفرنسية الجديدة التي تمتد متأنقة على الشاطئ.

لقد كانت المدينة العربية تقبع على حافة البحر، وكانت تحتل شبه جزيرة صخرية في مساحة 42000 متر مربع، يتغير ارتفاعها عن مستوى مياه البحر بين 6 و9 أمتار. وتتصل شبه الجزيرة باليابسة ببرزخ منخفض جدا، يشرف عن قرب على المرتفعات المجاورة. إنها اليوم مخصصة للمعسكر فقط. أو بالأحرى للقلعة المحصنة على كل محيطها بمتاريس وتحصينات جديدة. وتوجد في هذا الطوق إقامة القائد الأعلى، الثكنات، المستشفى، ومستودعات الإدارة. ولا تزيد هذه البناءات عن الطبقة السفلية، فالطبقة العلوية قد قوضها زلزال 1856 .

وعند وصول فرقنا إلى جيجل في 13 ماي 1839 لم يكن باقيا من تحصينات القرون الوسطى القديمة إلا برج مربع، والسور الجينوي الذي كان يغلق خنقة شبه الجزيرة وجداران بارزان من كلا الجانبين بحوالي 30 مترا. لقد كان هذان الجداران في حالة سيئة جدا وكانت بهما ثغور كبيرة. ولم يبق من مدينة الرومان إلا الأسس أو بعض من الركام الذي يبين أن البحر كان لا يقوى على بلوغها أو تفتيتها. لم تكن جيجل إلا مدينة تركية، أي خرابا.

ولإسكان الفرق العسكرية التي كانت قد استولت على المدينة وجب بناء ستة بيوت خشبية على شاطئ البحر، في المكان الذي اتخذ اسم رصيف بابا عروج، وفي قصبة مرتجلة، حيث كانت توجد ساحة نابليون، وأقيم مستشفى مؤقت في الساحة التي تسمى لو ميرسي.

ولما كانت المدينة قد احتلت بدأ السعي في الاستيلاء على الشاطئ الجنوبي الشرقي، على طول المرسى والسهل الصغير أمام المدينة، حيث كانت توجد منابع المياه، وبعض القطع من الأراضي لفلاحة الجنان وأخيرا توفير الهواء الطلق لجنودنا. لقد سمحت تضاريس الأرض المحيطة بسهولة لبلوغ هذه النتيجة .

يشكل جبل أيوف من جهة، وقرن الجبل من جهة أخرى قمعا ظل منه سد الثغور وحماية الأطراف.

وقد أقيم فوق القمة الأكثر تقدما من هذه الربوة الأخيرة، حصن القديس فرديناند على أنقاض برج سداسي، حيث كان للدوق "دي بوفور" مركزه الأمامي في سنة 1664. إنه على بعد 234 مترا جنوب غرب محرز من البناء شيده قادان في هذه الحملة. وهناك نشبت المعركة الدامية التي أجبرت قادان على التراجع .

إن موقع حصن فرديناند (الاسم الشخصي للدوق دي أورليان) انتفع من الحيازة العسكرية المهمة جدا، فهو يضمن التمكن من هذه الربوة، التي ترى منها المنحدرات مكشوفة ومحصنة، ويحمي جيدا الفجوة بين جبل أيوف وقرن الجبل.

وقد بني على جبل أيوف حصنان آخران، الأول على أنقاض بناءات مخربة، سمي حصن قالبوه، من اسم الجنرال الذي كان يحكم المقاطعة آنذاك .

وقد أعطي اسم القديس أوجيني للثاني، تكريما لبنت فالي وللقائد سال صهره، الذي حضر غزوة جيجل.

إن أكثر الحصون أهمية التي أنجزت آنذاك هي حصن دوكـان بشاطئ البحر على راس صخرة، وهو الاسـم الذي يذكر بالأميرال الشهير الذي كان أول من جعل العلم الفرنسي يرفرف على هذا الشاطئ الإفريقي منذ قرنين.

إن حصن فالي المقام على سطح القمـة الأماميـة بجبـل أيـوف نحـو البحر، كـان يتمم مع حصن دوكـان دفاع هذا الخط. وعلى نصف المسافـة مـن حصـن فـالي وحصن القديس أوجيني بني منزل ذو شرفات.

وفي شمـال غرب حصن قالبوه على رأس شديـد الانحدار، منفصـل من جبل أيوف، ممتد إلى سهل بني قايـد، أقيم حصن هورين (تذكر بالقائد هـورين الذي قتـل قرب الواحة في سفح جبل أيوف). إن كل هذه المراكز كانت تشكل منذ الأيام الأولى لاحتلالنا معسكرا كبيرا محصنا، كانت المدينة العربية معزلا له.

وما إن كـانت وضعيـة فتحنا الدفـاعية قويـة حتى أصبحت الأعمـال تـترى لإصـلاح المدينة العربية القديمة والنهوض بها من أنقاضها. إن منازل جيجـل ذات العـدد المائة تقريبا، التي ليس لهـا إلا طـابق أرضي حـول سـاحة صغيـرة، كانت في وضعية يرثى لها، قذرة سوداء وعفنة. لقد هدم منها البعض لشق طرق جديدة، وقد اتخذت إجـراءات لإرغام السكان الأهالي الذين دخلوا إلى منازلهم على تبييض مسـاكنهم والمحـافظة عليها في نظافة.

بالرغم من أن جيجـل كانت في المكان الأول، حيث وضع القرصان بابا عروج رجله مـع الثلاثمائـة تـركي الذيـن اتبعوه على أرض إفريقيا قبـل الذهـاب إلى الجزائر لتـأسيـس هـذه الإيالة الـرهيبـة التي قـاومت هجمـات مختلف دول أوروبـا خـلال أكثـر من ثـلاثة قرون، فإنه لا يبدو أبدا أن حكومة الإيالة قد تركت حماية دائمة بل كانت تكتفي بعدة بعثات إلى هنـاك كل سنـة، سفرتـان منها (46 رجلا) كانت على ما يبدو مهمتـها الوحيـدة مراقبة حركة المرسى، أي تجارة الصادرات أو المبادلات

التي كانت تقع هناك. ولم نعثر فيه كذلك في سنة 1839 لا على أتراك، ولا على كراغلة.

لقد كان احتلال الأتراك مقتصرا على مدينة جيجل، ولم يكن لهم أي نفوذ على القبائل المجاورة، هذه الأخيرة التي كانت قد وسعت فلاحتها حتى أبواب المدينة بحيث أن سكان جيجل لا يستطيعون الخروج من الصخرة التي حشروا عليها إلا للقيام بأعمال القرصنة. ومعروف بما فيه الكفاية ما هي العزيمة وما هو النشاط الذي كانوا يقومون به في هذه البيئة، وما هي الموارد التي انتفعوا بها من القرصنة التي يظهر أنهم انقطعوا إليها من انعدام الأراضي الفلاحية، ومن جراء سوء التفاهم الذي كان يسود بينهم وبين القبائل المجاورة.

ولكن من الغريب جدا إيجاد مدينة آهلة بـ 2000 ساكن لا توجد ضاحية حول أسوارها، خاصة في بلد حيث تتسع السهول اتساعا كافيا، وحيث تمتد أراضي الفلاحة الكبيرة، جميلة وخصبة. في حوض واسع ومطوق فعلا بخط دائري من الجبال العالية، لكنها بعيد ة بمسافة كافية تسمح لسكان ما بأن يستقروا ويحافظوا عليها.

إن مثل هذه الوضعية غير العادية لم توجد دائما، ومن المهم البحث في الظروف المتسببة فيها. إذ أن الأبحاث والدراسات التي قمت بها في عين المكان زودتني بمعطيات إيجابية عن تخصص الأراضي التي كانت تحيط بجيجل خلال القرون التي سبقت والتي تلت الاحتلال الجينوي.

كانت جيجل تحت السيادة الرومانية تمتد على طول البحر على جزء من مواقع المدينة الجديدة. إن الأحجار المنحوتة والأعداد الكثيرة من قطع الأعمدة، والفسيفساوات الواسعة، والآثار من مختلف الأنواع على عمق متر من التراب الحالي، تكشف لنا اليوم وتؤكد بما ليس فيه مجال للشك أن الرومان وإن كانوا قد احتلوا شبه الجزيرة فإن لهم أيضا مؤسسات هامة في السهل الصغير خاصة في الجزء الذي يحاذي البحر، وأبعد في صعود نحو منحدر التحصينات كانت مدرجات ومنازل

للتنزه. ومن الصعب معرفة ما آلت إليه ضواحي جيجل أثناء تدهور الهيمنة الرومانية، وخلال حروب الشعوب البربرية مع الجيوش البزنطية، والوندالية والعربية. لقد ظلت خاضعة لمصير الأراضي المقهورة، تنتقل بالتناوب من المغلوبين إلى الغالبين.

وفي أثناء هذه الحقبة حيث كان سيل الغزاة يصارع مرة ضد المحتلين ومرة أخرى ضد الشعب الأصلي الذي كان تارة يخدم، وطورا يحارب أسياده القدامى الذين كانت سيطرتهم عليه بغيضة، وليست هناك سيطرة باقية بصورة دائمة وبقيت ملكية الأراضي مرتبطة بنتائج السلاح.

لكن حينما أخضع خلفاء الشرق المغرب وإفريقيا، ووطدوا أمبراطوريتهم في القيروان، بعد تقسيم أمبراطورية الفاطميين انتقلت جيجل إلى الحماديين الذين كانوا يحكمون مقاطعتي قسنطينة وبجاية، و نجد أن يحي بن عبد العزيز آخر ملوك هذه الأسرة الحاكمة، كان يملك قصرا للتنزه خرب تماما حسب ما أورد ابن الأثير في كتابه الكامل، وكذلك مدينة جيجل على يد الصقليين بقيادة روجر الثاني حوالي سنة 1143 من عهدنا هذا. وما زالت أطلاله بارزة على هضبة قالبوه ويشغل فضاء واسعا جدا.

وبعدئذ عندما جاء الجينويون وأقاموا بجيجل هبط البرابرة من جبالهم وحاصروا، في محيط ضيق، الأجانب الذين كان عددهم القليل لا يسمح لهم بالخروج من هذه الدائرة. ومنذ ذلك الحين أصبح البرابرة أسيادا على السهل. وبعد أن طرد بابا عروج الجينويين من جيجل، لم يفعل شيئا لإبعاد البرابرة إلى جبالهم ولم يستطع ذلك وإن كان الدوق دي بوفور قد استطاع أن يقيم حصنا على جبل القرن، فإنه لم يظفر بإبعادهم. فإلى عهد قريب منا يقول أهالي الناحية إن ابن رجيبة والقائد ابن عزيز قد تنازلا لسكان جيجل عن جبل القرن لإنشاء مقبرة ولم يلبث المنحدر الشرقي لهذه الربوة أن أصبح مجزءا إلى قطع بعدد العائلات التي كانت تدفن أمواتها بها. وخلال سنوات غزوتنا جددت قبائل الجبل انتقالها إلى السهل حتى وصلت إلى

تحت أسوار المدينـة، وألزمتنـا محاصريـن بالمكـان، لكـن بدأ خـط دفاعنـا يكبر شيئا فـشيئا، وفي حوالي سنة 1845 تمكنا من احتـلال قسم الأراضي الموجودة بين البحر وخط التحصينـات، وقسـمت بين فـرق جنود الحـاميـة، والضباط، ومندوبي الإدارة، وما بقي منح فيما بعد لسكان الناحية، نحو 1849 و 1850.

لقـد استـمرت هذه الوضعية على هذه الحال حتى 21 و 22 أوت حيث دمرت جيجل القديمة. وقـد رأت السلطة أن في هـذه الكارثة فرصة سـانحة لنقل المدينة الجديدة إلى موقع الحدائق. وقد سبق أن أخليت المدينة القديمة، وقد استغل الرعب الـذي غـرق فيه السكان لمنعهم من رفع الأنقاض وفي نفس الوقت كـانت قـد وزعت قطـع للبناء وأعطيت بعض التسهيلات، ووسائل النجدة التي كانت الحكومة قد خصصتها لذلك، لقد اتسمت أعمال بناء المدينة الجديدة باندفـاع مدهش. فقد باشرت من جهتها مصلحـة الهندسة العمل بنشاط ففتحت الطرق وأحاطتها وغرست من الأشجار ما يلائمها، وكذلك الحدائق العامة وسوت الأرض بكيفية تجعلها صالحة لإقامة بناءات عليها.

كـل هـذه الأعمال أدت إلى ارتفـاع مجمـوع السكـان الأوروبييـن من 450 إلى 1200 سـاكنا [1].

فعلى موقع الحدائق القديمة للحاميـة ومن مستنقع قديم موحـل تنهض اليوم جيجل التي تمتع النظر بصورة بهيجة.

تصوروا قطعة مثلثة الشكل مقسمة في كل اتجاه بطرق مستقيمة محفوفة بأجمل أشجار الساج الباسقة، وبمجموعة زاهية من المنازل الصغيرة، منتظمة في شبكة من المربعات المتناسقة، وبحدائق مزينة بالأزهار والخمائل، يستحم وجه منها بالبحر، ويستند الآخر إلى ربوة مغطاة بخضرة الخروب، والزيتون، والريحان، ينتصب

---

[1] - معلومات مقدمة من طرف زميلنا وصديقنا السيد بول.

أعـلاها برج يستعمـل للساعة وفي نفس الوقت ملوحة للإشارة باقتراب السفن البخارية الآتية من الجزائر أو من عنابـة.

وأبعد من ذلك تبتدئ تدرجات متعاقبة من الروابي في أشكال متقلبة، ومع هذا النسق المتناغم من منحدرات مخضوضرة، ومن أشجار مصفوفة الواحدة فوق الأخرى، ومن شعاب ضيقة وعميقة، مملوءة من نباتات قوية. يقف الانتبـاه في أقصى حـدود الانشـراح عند كل تفاصيل هذا المنظر الفاتن، المتألق والغني بالألوان، الذي يمتد على مدى البصر من الشاطئ حيث تزيد الموجة اللازردية، إلى قمة الحاجز من الجبال القبائليـة الشرقية الرائعة جدا والكثيـرة الاضطـراب في التضـاريس، المغطـاة بالثلـج خـلال معظـم أجزاء السنة.

لقد كانت فكرة موفقة أن تمنح شوارع وساحات المدينة الجديدة أسماء تذكر بالماضي كساحـة لـويس وشـارع الحـرس الفرنسي، وشـارع بيكـاردي، ونـورماندي، نافار، والمتطوعين، وجادان، وفيفون، وقاسطيلان، ولا قيوتيير، ومونتجيمون، وهوت فوي، وليون، وبول، ومارسان، وأسماء أخرى، مذكرة سكان البلد، والسواح العابرين، أنه منذ قرنين كان جنودنا قد وضعوا أرجلهم أول مرة في هذا الشاطئ الإفريقي.

وبما أن جيجل تعتبر أكثر حظوة من غيرها من المراكز السكانية الأخرى التي يحصرها حزام طبيعي، فإنها تتوفر على ميزة التمكن من التوسع بسهولة على طول الشاطئ وعلى المنحدرات الخفيفة للأطراف.

زودت المدينة الحالية بالمياه من المنابع المجمعة في سفح جبل أيوف، التي تجري بمعدل 47 لترا في الدقيقة. وقد أنجز الخزان والقناة من طرف الهندسة العسكرية في سنة 1844، ثم وجدت فيما بعد سنة 1852 منابع أخرى على منحدر جبل الخروب، لقد أعيد نقلها إلى خزان الواحة. وفضلا على ذلك فقد حفرت آبار في مختلف منازل المدينة.

ومازالت لا توجـد كنيسة ولا مسجـد لأداء العبادات. وينبغي الأمل في أنه يمكن في المستقبل القريب التفكير في بناء كنيسة ومسجد، وهما مطلوبان من قبل السكان بإلحاح. وإلى حد الآن لم يمكن وضع سوى كوخ فقير من الخشب المسـوس تحت تصرف الشعيـرة الكاثوليكية، تنفذ إليه الرياح من كل جهة. بحيث يخيم من ذلك برد قارس أثناء كل فصل الشتاء، وحرارة خانقة أثناء فصل الصيف.

منذ سنة 1853، استعمل جنود الاحتياط للمقاطعة لشق طريق بغال استراتيجي لربط جيجل بقسنطينة. كان هذا الخط الأول بطول 127 كلم يمر بوادي النيل ـ الشحنة ـ فج الأربعاء ـ بايبنان ـ ميلة وقسنطينة.

كانت قد بنيت أبـراج أو خانات للقوافـل على القمتين الهامتيـن من الشحنـة وفـج الأربعاء لاستخدامها مأوى المحطة للمسافرين .

وفي سنة 1850 و 1857 كانت فـرق الجنـود تحت قيادة الجنرال ميسـيات قـد خطت طريقا آخر للبغال بين جيجل وسطيف، مرورا بفج تيبحران وكان قد أنشئ جسر أمريكي على وادي الميسة الذي كان يتعذر عبوره آنذاك خلال فصل الشتاء كله.

لكن هذه الطرق للمواصلات في الفترة الأولى، أصبحت اليوم غير كافية، إذ أن جيجل مدعوة لأن تصبح مركزا تجاريا أكثر أهمية مما كان عليه في القرون الوسطى، عندما تربطها طرق عربات بقسنطينة وسطيف. إنه عن طريق هذا الخط تنتقل منتوجات حوض فرجيوة الخصيب، ومنتوج قبائل هذه الناحية التي ترتاد سوق جيجل عن طريق العلاقات والعـادات التقليدية. ومن أجل رفاهية هذه الناحيـة، نتمنى أن تنجـز هـذه الأشغال عما قريب [1].

[1] ـ مجلس المقاطعة العام في دورته لسنة 1863 صوت على قرار تخصيص مبلغ 200000 ألـف فرنـك لفـتح الطريق العام بين جيجل وقسنطينة .

إن الثروات الطبيعية التي تتوفر لدى البلد تشتمل على مناجم الحديد والنحاس، وعلى غابات من شجر الفلين، والزان ومناجم الخشب المتفحم وصيد المرجان والشمع، والزيت والحبوب التي تعد معتبرة الآن في أسواق فرنسا. ومع ذلك ما القول في مدينة بالرغم من غياب الأشغال العمومية بها فإنها استطاعت في سنة 1864 أن تصدر مواد غذائية بقيمة أكثر من مليونين؟

ويتحدث السيد ليوسون، مهندس البحرية عن جيجل في دراسته عن مراسي الجزائر، يقول: يقع مرسى جيجل على 3.25 من خط الطول الشرقي و36.25 من خط العرض (1) الشمالي، على الساحل الجزائري، يمثل حوضا نصف إهليليجي، بمساحة 50 هكتارا، وبفتحة 1000 متر عرضا، تواجه الغرب الشرقي، إنه مغلق من الشمال الغربي بشبه الجزيرة الصخرية، كانت عليها المدينة القديمة محمية من بحر الشمال برصيف من الصخور طوله 900 متر، يمتد من رأس شبه الجزيرة، ويتقدم كحاجز نحو الشرق، ومن ناحية الجنوب الغربي لحضن المرسى تتكون من شاطئ كبير، تمتد أمامه منطقة قليلة العمق تضيق كثيرا مكان الملاحة في الحوض، وتجعل النزول صعبا.

يرسى في ميناء جيجل على عمق 10 إلى 15 مترا من المياه، في قعر رملي، وحصوي في الجنوب الغربي من المنارة، بحيث يغلق طرف الرصيف شرقا تجاه رأس بوقرعون. إنه يمكن الإقامة به خلال معظم أقسام السنة وليس خطيرا إلا في فصل الشتاء.

"إن قرب بجاية ألغى كل أهمية عسكرية لجيجل، ولولا هذا الجوار لكان الخليج الذي يتوفر على الشروط الكافية لإنشاء مرسى كبير من أهم مراكز البحرية للساحل الجزائري، لم يكن من المحتمل إلا مرسى ثانويا لبجاية في حالة السلم، ومكان إرساء القرصان في حالة الحرب."

ومهما يكن من هذا الاعتقاد للعالم المهندس، فإننا نرى أنه عندما يصل الحاجز الممتد من طرف شبه الجزيرة إلى جزيرة المنارة، سيكون الفراغ المتوسط بين الصخور قد سد. ويمكن لمرسى جيجل الصغير المحمي عند ذلك من رياح الشمال والمجهز برصيف واسع من تغطية احتياجات الملاحة والتجارة المحلية.

يمكن أن نميز بجيجـل فصلين؛ فصل المطر، وفصل الحرارة، ويبتـدئ فصـل المطر في نوفمبر أو في ديسمبر، ويشعر بوصوله عادة عدة أيام من قبل، بتراكم السحاب الداكن الذي يسود السماء، والذي تكاد قطرات الماء لا تنفلت منه. لكن سريعا ما تحل الأمطار وتهطل حينئذ غزيرة، تنفذ في كل شيء، وعبر أقل التشققات، وفي ساعات قليلة تمتلئ أودية الضاحية وتفيض. وترافق أحيانا هذه الأمطار الغزيرة، رياح غاضبة، تعصف وتهز كل شيء. وترى كتل ضخمة من الوحل، ومن الصخور، وتنهار شقق الجدران.

ترتفع درجة الحرارة وفي شهر ماي يبتدئ فصل الصيف، منذ ذلك يبدأ هذا التوالي للأيام الصافية الجميلة وهذه السماء الصافية الخالية أبدا من السحاب الذي لا يتوقف عن السواد إلا في نوفمبر حينئذ سريعا و يتم التبخر بكثافة عالية.

ويحتفظ جو المدينة، عندما يكون البحر مضطربا بكميات كبيرة من الذرات المالحـة، و ينتشر الضباب الكثيف الذي يشاهد تكونه قبل غروب الشمس في الأودية على شكل غيوم طويلة وبيضاء. وخلال الصيف يبدو الجو المحـرق بشمس ساطعة دوما كأنـه مغمور في الضياء، وتنعكس أشعة كثيرة على صفحة ماء البحـر، فتؤدي هذه الحدة في الضياء إلى إتعاب النظر كثيرا.

إن درجة الحرارة حتى في فصول الشتاء الأكثر برودة لا تنخفض تقريبا أبدا إلى تحت الصفر، إن الرياح الأكثر اعتيادا، هي الرياح الغربية والرياح الشمالية الغربية، وهي غالبا ما تهب أكثر من رياح الشرق.

إن السكان المدنيين لجيجل يكونون في قسمهم الأعظم من أناس ينحدرون في أصلهم من، أصقاع أوروبا الجنوبية، الذين احتفظوا بأخلاق وعادات بلدانهم. وفي آخـر إحصاء لسنة 1866 كـان عدد مجموع هؤلاء السكان قد ارتفع إلى:

أوروبيون:	704
أهـالي:	1418
المجموع:	2122

نطاق جيجل

إن نطاق جيجل يتخذ شكلا رباعي الأضلاع ذو مساحة تقريبية تقدر بـ 350000 هكتارا. تقطعه خاصرة جبال تنفصل عن تابابورت، وتنتهي عند بني خطاب في السهل. إن هذا النطاق محدد تقريبا من الجنوب ومن الشرق بسلسلة موازية تنفصل عن بابور لتبلغ مصب الوادي الكبير (أمساغا أو الرمال) ويوجد بين هذين السندين من الجبال المنخفضة وادي جنجن الذي يتصل جزؤه الأعلى ببابور وتابابورت التي تخضع لحكم فرجيوه. وعن تابابورت تتشعب نتوءات صخرية تمتد نحو وادي أقريون، والساحل، وتكون منطقة وعرة، وجبلية جدا، حتى أعلى مدينة جيجل. ويمكن اعتبار القسم الأكبر في هذه البقعة من أصعب البقاع في بلاد القبائل. إنها جبال وعرة في كل مكان، تقطعها كثير من الوهاد العميقة التي تغطيها غابات متشابكة ([1])، ومسالك وعرة وسط خنادق، تارة صاعدة في علو شاهق، وتارة نازلة إلى عمق أكثر الشعاب رهبة، التي لا تنفذ إليها الشمس أبدا وحيث يصعب على الناس والحيوانات وضع القدم. إنها أماكن خالية وسط السرخس، والوزال العملاق، لم نتمكن من فتح ممر عبره إلا بالقدوم والمعول، وحيث يمكن للعدو أثناء الحرب أن يخفي قواته أو يختبئ. إن القبائل ـ ونحن أنفسنا قد جربنا طويلا ـ ينزلون وسط الأخياس، كحيوانات متوحشة، وببراعة خاصة في الهجومات الليلية.

إن البلد غرب خط الزوال لجيجل، لا يتوفر بالمعنى الدقيق للكلمة على مجرى مائي هام، فالأودية ضيقة إلى حد بعيد، ولما كانت الجبال تقترب كثيرا من البحر، فإن أعظم قسم من المياه تسيل نحو الجنوب مكونة وادي الريشية، ووادي جنجن.

---

[1] - أهم أنواع الغابات التي تغطي هذه الجبال هي: البلوط، الزان، الصنوبر، الدردار، الحور الصفصاف، وعلى قمة بابور، صنوبر الصابو.

وتعيش في هذه الغابات الخنازير، والنمور، وأحيانا بعض السباع، ابن آوى، الضباع، وللصيد نجد هنا الحجل الأحمر، السماني، البط، الإوز، الحمام، والترغلة.

في حين يجري في نهاية الدائرة وادي قريون، وهو نهر هام، يمر مجراه من هذه الفتحة الأرضية الهائلة العجيبة، المعروفة باسم "شعبة الآخرة" وبالاعتماد على حواجز الجدران الوعرة وبمعول الصخر كانت قد شقت هذه الطرق الرابطة بين سطيف والساحل والتي ستصبح عما قليل مقصدا لتنزه السواح الجزائريين ([1]).

وعلى العكس من ذلك فإن البلد في شرق جيجل مرتو جدا، بعدد من المجاري المائية، فالأودية واسعة خصبة، وسهلة العبور. إن الوادي الكبير الذي لم يكن إلا وادي الرمال الذي يمر عند أقدام قسنطينة (أمساغا القدامى)([2]) يخصب السهول التي تحف به. إن هذا النهر يصلح للملاحة بمقدار خمسة فراسخ تقريبا من مصبه، إلي أعلى، عند مجاز بوسليت (Baousilet).

إن الشاطئ الذي يشتمل عليه ساحل جيجل يمتد على انبساط ذي ثلاثين فرسخا. إنه يميل من الغرب إلى الشرق بشكل ملموس، ويرسم عدة مداخل محددة جدا. إنه محفوف كله تقريبا بالصخور التي تجعل منه مداخل صعبة جدا، غير أن الجزء الموجود بين المدينة ومصب الوادي الكبير هو أقل تعرجا بكثير، ويمكن عند الحاجة الجنوح بزوارق خفيفة على كل نقاط الشاطئ من غير خطر.

إن رأس بوقرعون المسمى من قبل العرب"بالسبعة رؤوس"بسبب التسننات الناتئة التي يمثلها الشاطئ. ينفصل من شرق جيجل ويكون الرأس الأكثر قربا من الشمال في إفريقيا.

إن بوقرعون هو ملاقونيوم (Melagonium) بحارة الإغريق وهو جبل الرحمان عند الجغرافي البكري، ودليل السواحل في القرون الوسطى. وبالقرب من هذا الرأس

---

[1] - أول اكتشاف لشعبة الآخرة كان من طرف الرائد كابديبونت (Capdepont) رئيس ملحق تاكيتونت حينذاك. ولهذا الضابط تعود الفكرة الأولى لشق طريق بجاية سطيف من هذا الممر.

[2] - وجد نقش من طرف شربينو (Cherbenneau) ليس بعيدا من منابع فسقية جنوب قسنطينة يحمل هذه الكلمات (Caput Amsagae) رأس مياه الأمساغا، تعطينا الرسم الحقيقي للاسم القديم لهذا النهر.

قليلا يوجد مرسى الزيتون، حيث كان تجار المتوسط يقومون بتجارة كبيرة للتبادل مع القبائل.

وتوجد في الجزء الغربي من جيجل سلسلة من الصخور المنخفضة منصبة كأحجار رصيف، تعين شريط الساحل. وخلال المسافة الموجودة بين المدينة وجزائر العوانة توجد جزائر الخيل، ولا يشار إلا لخليجين صغيرين حيث يلجأ المساحلون أحيانا بحثا عن مخبإ، إن الخليج الشرقي هو الذي يبدو أكثر سهولة وأكثر عمقا.

إن عدد جزر العوانة هو سبعة أو ثمانية لكن الجزيرة الوحيدة فقط التي لوحظت بشكلها المخروطي هي جزيرة "العافية" وتوجد بها بعض الخضرة. أما الأخريات فما هي إلا صخور جرداء، لا تكاد ترتفع ببضع مترات من تحت الماء وهي قريبة جدا من اليابسة.

إن فيسكونتي (Visconti) وفيرى (Ferrer) والمؤلف المجهول للخريطة الخزفية المنشورة من طرف جومار (Jomard) كلهم لايشيرون إلا إلى أكبر جزر العوانة التي تسمى" بالعافية " لكن المجموعة كلها توجد مذكورة بالاسم الذي تحمله اليوم في خرائط بحارة القرن الخامس عشر.

إن السفن التي تفاجأ برداءة الأحوال الجوية، يمكنها أن تجد ملجأ مؤقتا خلف جزيرة العافية. إن المأوى مناسب لمقاومة الرياح الشرقية لكن العمق يتفاوت ولا يسمح بإرساء أكثر أمنا إلا للمراكب التي لها مسحوب مائي ضعيف.

بعد مجاوزة رأس العوانة ورأس مزغيطن عند الإدريسي (رعن أدون عند بطليموس) يتم الدخول في خليج بجاية. وما من شيء أكثر عظمة سوى منظر الشاطئ وهو مدرج شاسع من الجبال الوعرة تبدو من بعيد كلها تقريبا بقممها الصخرية الجرداء الحادة، التي يحتفظ البعض منها بالثلج حتى شهر جوان، وتحت

منطقة الصخور والثلوج يسود شريط عريض من الغابات، وفي الأسفل تبدأ منطقة الأشجار المزروعة. وأخيرا المدارج الأخيرة مخصصة لحقول القمح والشعير والذرة في هذا السفح الهائل تنفصل بعض الإلتواءات الهامة؛ من بينها جبل بابور شرقا، الذي يتسطح في قمته على شكل طاولة، وينثلم على جوانبه بأخاديد عميقة، ويرتفع إلى علو 1965 مترا. إن أشعة الشمس المائلة تصبغ بالألوان الأكثر تنوعا كل هذه القطع التي ترتسم بشكل عجيب على لازردية السماء.

إن الساحل ينحدر من وراء رأس العوانة نحو الجنوب الغربي ممثلا سلسلة صخرية محاطة بالأراضي الداخلية، وفي منتصف المرتفع تلاحظ فضاءات كبيرة مزروعة، وبين أنف الجبل وجزيرة المنصورية يوجد شرم منفرج جدا، حيث يمكن الإرساء عند الضرورة. إن المنصورية هي محطة قديمة في مسلك الرحلات (Choba des Itineraires).

ويتحدث الإدريسي عن المنصورية، عن القصر الحصين في أسفل الشرم. إن الخليج ليس كبيرا ولكن يمكن الإرساء فيه بأمان، وترتفع قليلا جزيرة متصلة باليابسة بسلسلة من الصخور المتساوية مع الماء، تكون حاجزا، يكسر الأمواج، ويحمي المرسى من رياح البحر. وتوجد هذه الجزيرة في خريطة دليل البحرية الإيطالية وفي أطلس فيري (Ferrer) وفي قعر الخليج يلحظ مصب نهر، وادي المنصورية، الذي يحتمل أن يكون هو نهر سيزار بطليمو (Sisar de Ptoleme) إن هذا الاسم ذو أصل فينيقي، ويعني النهر الأحمر. وقد كان بحارة المتوسط فيما سلف يذهبون إلى المنصورية بحثا عن الحبوب، وخشب البناء. إن الجبال المجاورة للخليج، مغطاة بغابة عظيمة حيث تكثر أشجار البلوط.

إن بلد جيجلي من المحتمل أن يكون هو بلد (Pithecusa de Seylax) وهي كلمات تعني بالإغريقية بلاد القردة وما زالت هناك القردة تتكاثر إلى أيامنا هذه، كما توجد أيضا قطط كثيرة متوحشة، ونمور، وحيوانات أخرى من نوع السنوريات

أشار إليها ديودور (Diodor) ([1]). ويروي المؤرخون القدامى أن القائد القرطجني أغاطول(Agathol) قد وجد في هذه الجبال الوعرة والشاهقة مجموعة من السكان فقيرة ومحاربة تسمى الموريسك (Maures) يسكنون مختلطين مع القردة التي أصبحت تكرم تكريم الآلهة. لقد عجل السكان من كل مكان للسير ضد الجيش الإغريقي الذي سارع بالانسحاب إلى الشاطئ. أما مساكنة القردة للناس فليس هناك من يشك في أنها مجرد خرافة. مثل الممسوخات الأسطورية. وقد حاولنا أن ننظر أيضا بقية الحكاية على أنها تبجح من جندي، إن لم تكن تصدقها طبيعة الواقع جزئيا في الميدان.

إن وعورة هذه الجبال، والغابات الكثيفة التي تغطيها جعلت من هذا البلد في كل العصور المنطقة المركزية للتمرد وملجأ الاختباء، حيث كان الذين يفرون من السلطة متأكدين من وجود ملجإ منيع. وبتفحص التاريخ على مدى قرون متفاوتة، نرى الأحداث ذاتها تقريبا تتكرر في نفس المنطقة، لقد كان للتاكفرناسيين وفرامسة (Firmus) العهد الروماني مقتفون ومقلدون عديدون بعد الغزو الإسلامي، وفي العصور المتأخرة.

ولم يتصرف بنو الأحرش وجماعة تزعم الشرف خلافا لذلك سواء كان من أجل الكفاح ضد السيطرة التركية أو لمقاومة التقدم المتعلق بفتحنا.

ألم يكن أيضا من المناسب البحث في هذا الصقع عن جبل بابويا (Pappua) حيث لجأ مؤقتا جيلمر(Gelmer) آخر ملوك الوندال، بعد انتصارات بليزار (Belisaire)؟ هذا ما افترضه فقيدنا بيربراجي (Berbruger) رئيس الجمعية التاريخية الجزائرية بعد قراءته منذ عشر سنوات، في أول دراسة كنت قد نشرتها حول هذا الجزء من القبائل الشرقية.

ولقد تحقق ماركوس (Marcus) الذي ألف قصة عن الوندال بعد كتاب آخرين من جبل بابويا في أيدوغ بالقرب من بونة. غير أننا لا نرى لديه أدنى حجة مقبولة،

[1] - ديودور (2) التجارة وملاحة الجزائر للسيد / إيلي دي لا بريمودال .

تدعم الزعم الذي يقصده، فضلا عن أن بعضهم كان قد كتب في عصر كانت فيه معرفة الجزائر قليلة جدا، ومن غير شك فإن البحارة الأوروبيين الذين كانوا يأتون للاتجار ببونة، أو حتى رجالنا في قلعة فرنسا، قرب القالة كانوا قد أشاروا بلا شك إلى جبل كبير غرب بونة، يسميه الأهالي أيدوغ. وهكذا ومن غير أبحاث أخرى، ونتيجة لانعدام الرقابة، فإن المرادف قد اعتمد. وهناك براهين قوية جدا لدى بروكوب (Procope) ضد الزعم المذكور، إذ أن بروكوب(Procope) يعرف بأنه كان كاتبا لبيليزار(Belisaire) لقد كان قد رافقه في حربه ضد الوندال، إنه بالطبع أحسن شاهد يستند إليه في هذه القضية التي تشغل بالنا.

قال: "عندما واصل بليزار متابعته وصل إلى مدينة نوميديا تسمى هيبو ريجيوس (Hippo Regius) (بونة) لقد علم أن جيليمر (Gelmer) الذي كان قد فر من جيش الرومان، تسلق جبل بابو يا (Pappua) وهذا الجبل يوجد في أقصى نوميديا، إنه وعر جدا، له مدخل صعب، بسبب الصخور التي تحيط به. هناك يسكن البعض من الموريسكيين، وهم أقوام متوحشون أصدقاء لجيليمر وأوفياء لقضيته آنذاك.

"وهناك في الناحية الأكثر بعدا من الجبل مدينة قديمة لكنها من غير اسم، حيث كان جيليمر يصلح من شؤونه مع رفاقه. وقد كان الشتاء قد أقبل، لا يسمح بصعود الجبل، و إن تردي الأمور جعلت من بليزار لا يستطيع أن يبقى مدة بعيدا عن قرطاج لقد ترك إذن فرقة مختارة من الجيش تحت قيادة فاراس (Phara) لمحاصرة الجبل.

غير أن فاراس الذي كان متعبا من الحصار الشتوي، والذي لا يأمل في استدراج الموريسكيين إلى المعركة، صمم بشجاعة أن يحاول تسلق جبل بابويا (Pappua) وقد جد في تسلق العقبات الوعرة متبوعا برجاله المدججين بالسلاح، إلا أن الموريسكيين الأعداء الذين ساعدتهم صعوبة الطبيعة المحلية، قد كبدوا المهاجمين خسارة بسهولة. وكان على فاراس الذي خسر 110 رجال في هجومه، والذي رد على أعقابه مع ما بقي من رجاله أن ينسحب ولم يعد أبدا كرة كانت تعترضها طبيعة

الأماكن. واكتفى بإحاطة الجبل بمراكز يقظة آملا في أن يؤدي الجوع إلى التسليم، إذ أن العدو لا يستطيع أن يهرب من عزلته ولم يعد يصل إليه هناك أي شيء من الخارج".

وبعد كثير من المعاناة، والإهانة أدرك جيليمر (Gelmer) أنه من الأفضل له أن يعيش فقيرا في خدمة الرومان خيرا له من أن يحكم في جبل بابويا (Pappua) ومع الموريس الذين يسكنونه. وقرر أن يسلم نفسه بين يدي مبعوث بليزار.

ولنكمل بالوصف الذي قام به بروكوب (Procope) للقوم الذين وجد لديهم جيليمر الملجأ، وسنرى أن القرون لم تغير منهم كثيرا:

"هؤلاء الموريس يقضون حياتهم صيفهم كشتائهم، في قرابي ضيقة، حيث لا يطردهم منها، لا تراكم الثلوج، ولا حرارة الشمس، ولا المساوئ المحلية الطبيعة الأخرى. ينامون على الأرض معتبرين أنفسهم إن تمكنوا من بسط جلدة سعداء. لم يعتادوا استبدال الملابس حسب الفصول، ثيابهم تتكون من ثوب خشن، وجلباب ذي زغب طويل على مدى الحياة. لا يستهلكون لا خبزا ولا خمرا ولا أي شيء من تغذية الإنسان. واقتداء بالحيوانات فإنهم يتغذون بالقمح وبالقليل من العلس (الحنطة)، والشعير من غير طبخ، ولا طحن ولكن كما تنتجه الطبيعة.

لقد رأينا أن انسحاب جيليمر كان إلى أقصى ناحية نوميديا بالنسبة لإعدائه الذين جاؤوا من الشرق. كان ذلك إذن قرب الحدود الغربية. إذ كيف تنطبق هذه التسمية المؤكدة جدا على جبل أيدوغ الذي يعتبر أبعد من جانب هذه الحدود بأربعين فرسخا.

وحتى ولو أخذنا بالمعنى الدقيق لاسم موريس الذي أطلقه بروكوب (Procope) على الأهالي الذين آوى إليهم جيليمر، فإن هؤلاء ينتسبون إلى موريطانيا، وليس إلى نوميديا حيث يجب البحث عن موطنهم في غرب الأمساغا (وادي الرمال)، وبالضبط بالقرب من من هذا النهر الفاصل.

ومن جهة أخرى لو اعتبرنا أن الأيدوغ هو على أبواب هيبون هذه المدينة الملكية القديمة (Regius) التي ظلت هامة، وسيفهم بصعوبة أن الأهالي تمكنوا من الاستمـرار على حالة التوحش الحقيقي على بعد خطوتين من أكبر مركز تأثير روماني.

ولنضف أخيرا لإنهاء هذا الاستطراد أن مداخل أيدوغ بعيدة عن أن تشكل مصـاعب للتسلق التي أشار إليها بروكوب (Procope)، أن وصفه الطوبوغرافي مناسب أفضل لأحد الجبال الوعرة للقبائل الشرقية التي ترتفع على ضفاف الأمساغا (L'Amsaga) وراء جيجل أما أخلا ق السكان فسنرى فيما بعد أنهم ما يزالون إلى اليوم تقريبا كما أشار إليهم بروكوب منذ أكثر من خمسة عشر قرنا.

إن أقدم سكان القبائل الشرقية حسب بطليموس قد يكونون هم الخيتيين (Khitone) الذين كانوا يسكنون مصب الأمساغا ويخضعون بالتناوب للمسيسيليين (Massesyliens)، وإلى الموريس (Maures) الغربيين ثم إن هذه الشعوب قد سقطت تحت الهيمنة الرومانية وقد وضعت الجيتوليين (Getuliens) في القرن الثاني حـدا لـوجودهم وعوضتهـم في إقاماتهم بالجيدوليين (Gedalousiens)الذين أتوا من الصحراء، بدأ البابار يون (Les Babares) أو السبابار يون (Sababares) الذين كان بطليموس قد عرفهم في الصحراء في التحرك واندفعوا إلى التل. وقد أقام البابار يون في القبائل الشرقية، وقد احتفظوا إلى أيامنا هذه باسمهم بابور (Babor) وأخلاقهم ومميزاتهم المستقلة ([1]).

وفي الوقت الـذي استحـوذ فيه الجيـداليون الرحالة على ضـواحي إيجيلجيلي فإن أقواما أخرى جاءت كـذلك من الجنوب يسمون الزمازيون (Zamazes) أو الزميزيون (Zimizes) استقروا في مصب "الأمساغا" وفي جبال القل التي تبرزه لوحة بتنجر (Peutinger) وقد استمر الزمازيون في توسيع هيمنتهم نحو غـرب إيجيلجيلي مثلمـا يوضحـه الاسـم الذي تركوه إلى أيامنا هذه في مقاطعة زيامة

[1] - سلالة شمال إفريقيا للسيد تو.

(Ziama) بين جيجل وبجاية. وسنقدم فيما بعد نصبا منقوشا عليه اسم الزميزيين (Zimizes).

إن الكداموسيين (Kadamousiens) عند بطليموس ما هم إلا الكتاميون لدى النسابة العرب، كانوا قد جاؤوا كذلك من الجنوب واستقروا في جبال القبائل الشرقية. وتحمل الكتابة القديمة المنقوشة التي اكتشفناها في ممر فدولس بين جيجل وقسنطينة من بين ما تحمل الكلمات: REX GENTIS VKVTAMANORVM التي تحدد لنا بدقة المنطقة المسكونة من قبل هؤلاء الأقوام الكتاميين خلال الهيمنة الرومانية. إن توضيح أسقف (Cedamusensis) من موريتانيا السطيفية يبين لنا أن الكتاميين تحت الوندال كانوا ما يزالون يحتلون أماكنهم الأولى ونراهم بعد الغزو الإسلامي يكتسبون قوة هائلة.

ويخبرنا ابن خلدون عن كتامة بقوله: "هذا القبيل من قبائل البربر، وأشدهم بأسا وقوة، وأطول باعا في الملك، عند نسابة البربر من ولد كتام بن برنس. ونسابة العرب يقولون إنهم من حمير (ذكر ذلك ابن الكلبي والطبري)... تشعبوا في المغرب وانبتوا في نواحيه إلا أن جمهورهم كانوا لأول الملة بعد تهييج الردة وطيخة تلك الفتن موطنين بأرياف قسنطينة إلى تخوم بجاية غربا، إلى جبل أوراس من ناحية القبلة. وكانت بتلك المواطن بلاد مذكورة أكثرها لهم، ومجالات تقلبهم مثل إيكجان، وسطيف وبغاية ونقاوس، وبلزمة، وتيكست، وميلة، وقسنطينة، والسكرة، والقل، وجيجل من حدود جبل أوراس إلى سيف البحر ما بين بجاية وبونة ([1]).

لقد أمكن الآن أن يلاحظ مما سبق أن سكان هذا القسم من القبائل، دفعوا مرارا ومنذ أزمان ساحقة إلى الناحية الجبلية الأكثر مناعة من جراء غزوات أجنبية. وستكون لنا عودة للحديث فيما بعد عن الأحداث التي وقعت كذلك عندما فر السكان المسيحيون أمام سيل الغزاة العرب، ولجأوا إلى عند الجبليين. فإلى عهد حديث

---

[1] - ابن خلدون ج 1 ص 291

نسبيا، سعى الملوك المسلمون بدورهم إلى إدخال العنصر العربي إلى هذه البقعة وإلى التمكين للذين هم من أشياعهم الأوفياء، الذين كانوا يريدون أن يخصوهم ويقتطعون لهم الأراضي، لهدف خفي وهو إغواؤهم عن طريق المنفعة الشخصية لاستخدامهم في التهدئة للجبليين الذين كانت أمزجتهم متقلبة بقدر ما هي عنيفة ومتهورة.

يقول ابن خلدون: "في القرن الثالث الهجري تلافت الدولة الحفصية أمر رحل قبيلة رياح الكبرى الذين غزوا الأرياف، حيث كانوا يقومون بكل أنواع السلب، وبالاصطناع والاستمالة، اقتطعوهم كثيرا من الأراضي الشاسعة. وقد حاز فرعان من هذه القبيلة على أمصار كبيرة من البلاد التي تفصل قسنطينة عن البحر، لكن هذه الإقطاعات لم تكن لها بالنسبة إليهم إلا أهمية بسيطة. ولم يكن لهم شيء في الواقع يستفيدونه من هناك فأراضي هذه الناحية منيعة تماما من اجتياح وضيم العرب بالجبال المطبقة بها، وتوعر مسالكها على رواحل الناجعة ([1]).

وتكفي ملاحظة أخلاق وعادات هؤلاء السكان الخليط لتفهم الثورات التي كانت لابد أن تقع في أحضانهم. إن دراسة آثار العصور القديمة قد أعطت فائدة كبيرة: فإلى جانب البقايا التي تركها القرطاجنيون على الساحل، نجد كذلك في الداخل عددا من الآثار من الفترة الرومانية. حتى إننا اكتشفنا وجود آثار درويدية (druidique) وسط الجبال، ولابد من تصور مفاجأتنا عندما وجدنا أنفسنا أمام دلامن (Dolmens) شبيهة بتلك التي توجد في بريطانيا وفي غرب أوروبا.

كل هذه البقايا من الماضي، هي موضوع إجلال وتقدير خرافي انتقل من جيل إلى جيل، رغم تأثير المرابطين الذين سعوا إلى التركيز على كل الأفكار الدينية لمريديهم في ممارسة الشعائر الإسلامية. وفي هذا المضمار ينبغي ألا نهمل الحديث عن العين العجيبة لبلاد كتامة التي أشار إليها البكري الجغرافي العربي من القرن الحادي عشر

---

[1] - ابن خلدون ج1 ص 76

من تاريخنا الميلادي. وتقع هذه العين في بني فوغال عند سفح جبل، وتسمى المائدة، وهي بالقرب من قرية العيون وتصب مياهها الغزيرة أحيانا لتضيع في قعر وادي جنجن.

قال البكري: "توجد في بلاد كتامة عين تسمى عين الأوقات تتدفق خمس مرات على مدى يوم وليلة، وبالضبط في أوقات الصلاة خلال الأشهر الحرم (الشهر الأول والسابع والحادي عشر والثاني عشر من السنة الهجرية) وتنقطع عن السيلان عند الأوقات الفاصلة. وتقع هذه العين وسط جبال كتامة غير بعيد عن مرسى السبيبة (Sebiba) بالمنصورية التي تأتي بعد مرسى ببجاية.

وتسمى عين الأوقات اليوم باسم عين المشاكي، ويؤمها السكان المحيطون بها ليتطهروا بمياهها التي كما سبق تجري في أوقات متقطعة.

وإلى عهد قريب كان لا يزال أحيانا عندما تقع جريمة يؤتى بالمشكوك فيهم، إلى حجر العين، فإن لم يتدفق الماء في مدة وجيزة من الزمن ثبتت الجريمة ضدهم.

إن الخرافة التي يحفظها المرابطون الذين يقطنون بالقرب من العين، جعلت القبائل يعتقدون أن ملائكة كانوا يطلقون المياه في ساعات مناسبة، غير أن هذه الظاهرة تفهم بسهولة من فعل تأثير الشمس الذي يذيب ثلج القمة المجاورة، فتتغذى وتفيض الأحواض الطبيعية الموجودة في هذه الجبال في أوقات معينة من اليوم، وتقذف بالفائض.

ويحتل المنحدر الشرقي للخصر الكبير لجبل بابور الذي ينتهي عند مصب الوادي الكبير من قبل الأجناح وبني أيدر.

ويشمل وادي النيل مجاري المياه التي تنطلق من نفس هذا الخصر. ويحتل هذا المنحدر من قبل بني معمر، وبني صالح، وبني عافر، بني سيار، وأولاد بلعفو.

ويسكن حوض وادي جنجن بنو عافر، وبنو عمران الجبلية والسفلية وبنو خطاب، وبنو سيار، وبنو فوغال، وبنو ورز الدين، وبنو مرمي. ويقسم كل الجزء الشرقي من المنطقـة إلى أحد عشر حوضا ثانويا لمجاري المياه التي تنبع من خصر الجبل الذي ينفصل عن تابابورت:

1 _ حوض وادي أم النشا، ويسكنه بنو عمران السفلية.

2 _ حوض وادي القنطرة ويسكنه بنو عمران السفلية، والجبلية وبنو أحمد.

3 _ حوض وادي مدبر ويسكنه بنو قايد.

4 _ حوض وادي كسير، ويسكنه بنو فوغال، وأولاد طافر، وأولاد بوبكر.

5 _ حوض وادي بوالرشايد ويسكنه أولاد تبان، وبنو فوغال، وأولاد ساعد، وبنـو سكفال، وبنو محمد.

6 _ حوض وادي تازه، ويسكنه بنو فوغال، وبنو سكفال والخراشة والشكاروة، وبنو عيسى، وبنو خزر.

7 _ حوض وادي الطبولة، ويسكنه عرب أفتيس، وبنو خزر.

8 - حوض وادي بومراو، ويسكنه بنو عيسى.

9 _ حوض وادي جنان، ويسكنه بنو فوغال، وبنو ورز الدين، وبنو مرمي، وبنو معاد، وبنو خزر، وبنو عيسى.

10 - حوض وادي أقرقور (وادي زيامة)، ويسكنه بنو معاد، وآيت عاشور وأولاد نابت، وأولاد علي.

11 _ حوض وادي النقب، ويسكنه الأعلام، والأرباع، وبنو جبرون.

12- حوض وادي النقب، ويسكنه الأعلام، والأرباع، وبنو جبرون .

وباختصار فإن قبائل منطقة جيجل ذات العدد الاثنين والثلاثين يمكـن أن تنقسم إلى قبائل كبيرة وقبائل صغيرة.

فالقبائل الكبيرة هي: بنو أيدر، بنو عافر وبنو سيار، وأولاد بلعفو، وبنو عمران الجبلية والسفلية، وبنو خطاب، وبنو فوغال، وبنو أحمد، وبنو قايد.

أما القبائل الصغيرة فهي: الأجناح، وبنو معمر، وبنو صالح، وأولاد ساعد، وأولاد طافر، وأولاد تبان، وبنو محمد، وبنو سكفال، والخراششة، والشكاروه، وعرب أفتيس، وبنو خزر، وبنو عيسى، وبنو ورز الدين، وبنو مرمي، وآيت عاشور، وبنو معاد، وأولاد علي، وأولاد نابت، والأعلام، والأرباع، وبنو جبرون.

وبتفرق هـذه القبائل إلى جماعات صغيرة، فإنـها لا تقـوم بالاجتماعات ذات المنفعة للقريـة، كما نجـده في بلاد القبائل جرجـرة فهـم لا يملكون شيئا مـن التحضر ولا من الصناعات، ولا من الثروة، ولا توجـد لديهم قط تلك الجماعة الموقرة، وهذه الطرق المنجزة جماعيا، التي تسهل الوصول إلى الأماكن، وبالعكس، فكل واحد هنا يتصرف حسب هواه، يعيش بعيدا عن الآخرين في أعماق الوهاد، وسط الغابات، يزاحم العليق، والحيوانات على القليل من الأرض التي يجب أن تطعم عائلته.

لا تصادف إذن هنا مثل مـا هو موجود لدى أحلاف الزواوه، ووادي الساحل ببجاية، وبوسالم أو بابور، هـذه القرى الكبيرة الآهلة بالسكان ذات المنـازل المتينة البنيان، البيضاء المغطاة بالقرميد، التي تشير إلى نوع من الرفاهية نتيجة للعمل والصناعة. وابتداء من المنحدر الشرقي لبابور حتى أيدوغ قرب عنابة (ببونـه)، لا ترى عادة إلا أكواخا حقيرة، مـن ركائز أو لبنـات الطين، مغطاة بالديس أو قشر الفلين يسكـن فيها الناس والحيوانات مختلطين. إن مساكـن بعض الأغنياء، أو بعض الشخصيات الدينيـة، هي وحدها فقط التي تشكل الاستثناء من هذه الوضعية العامة. وابتداء من هـذا الحـد بالذات تتغير اللغة كذلك حتى القبائلية بالمعنى الحقيقي لا يتكلم بها ولا تفهم. فاللغة المستعملة عادة هي عربية محرفة من جراء اللحـن في نطق بعض الحروف والاستعمال المتكرر للعبارات، ومع قليل من الانتبـاه يتعود عليها المعربون بسهـولة في بضعة أيام. فالحرف (كاف) ينطق (تشي)، وهكذا فالكلمات مالك، وبالك، وعندك تصبح (مالتش) و(بالتش)، و(عندتش). ويبدو استعمال

حـرف دو (DE) عندنا، والذي يعبر عنه في الإيطالية دي (DI) غير مألوف كذلك، عندما نستمع إلى القبائل وهم يتكلمون لأول مرة، فمثلا: عين بوموش، تدعى العين الدي بوموش.

والحرف (أ) ينطق أحيانا بالكسر (إ) تقريبـا كـما ينطقهـا اليهـود الجزائريـون. إن القبائل الشرقية كإخوانهم الزواوة مجبرون للتمكن مـن الحيـاة عـلى الانتقـال مـن حين لآخر إلى بلاد العرب، حيث كانوا يقومون بـأعمال مجهـدة، وفي بعـض المـدن خاصة يمارسون بعض الصناعات، إنهم جنانون، وحدادون، وبرادعية، ونـاقلو ميـاه، أو عمال يدويون، وعند مغادرتهم للغابات التي تغطي جبالهم، والنزول نحو الأماكن القاحلة يتضرعون لـدى المـرابط الرئيـسي لـبقعهم لـيرضى عـنهم، ويـسهل سـفرهم. فيتوجهون مثلا إلى المرابط سيدي وشـناك الـذي توجـد مزارتـه عـلى جبـل بـين فـج الأربعاء وفج فدولس. وها هو النص حرفيا لدعائهم، كتبه أحد طلاب الناحية:

يا سيدي وشناك،

أنا ماشي للقبلة في حماك،

إذا رجعت على خير وعافية،

نعطيك الوعدة،

خبيزة دي بومعراف،

وحد الشميعة وزوج سوردي دي الجاوي.

لقـد حـافظ سكـان القبائـل الشرقية كسكـان جرجـرة على بعض العادات والأعراف التقليدية التي تعتبر مهمة جدا لنا لدراستها ومعرفتها جيدا.

لقد كانت هذه القبائل المنيعة في جبالها تعيش قبل الفتح في فوضى تامة، مستقلة عن بعضها البعض، لم يكونوا يخضعون إلا لجماعتهم الموقرة، التي تتكون من القدامى أو من الـذين يفرضـون احترامهـم على الجمهـور بقيمهـم وثروتهـم أو قوتهـم البدنية. وكان لبايات قسنطينـة عليهـم بالأحرى تأثير اسمي أكثر منه فعلي، لقد كانوا عاجزين عن فرض سيطرتهم عليهم وبالأحرى إبطال بعض العادات

التقليدية التي تحرمها تعاليم القرآن. إن المحاولة المفجعة لعثمان باي في منخفض الوادي الكبير (منخفض الرمال) تبرهن بوضوح كم كانت السلطة التركية غير مهابة لدى هؤلاء الجبليين. والعقاب الوحيد الذي كان يملكه بايات قسنطينة هو إيقاف رجال القبائل العاملين بقسنطينة أو بالسهول، والاحتفاظ بهم كرهائن، وأحيانا لضرب أعناقهم ومعاقبتهم على الأخطاء المرتكبة من قبل إخوانهم في الجبال.

لقد قبلت القبائل المسلمة ظاهريا من القرآن كل ما يمكن أن يشجع منافعهم، أو يصفع تصورهم الخرافي إلا أنهم لم يستطيعوا التخلي عن العادات الموروثة عن أجدادهم، فإن أراد قاض أو طالب في أحيان معينة تطبيق الشريعة الإسلامية، والاحتجاج ضد هذا الوضع، فإن صوته لا يحترم و إن إرادة الجماعة والعرف التقليدي يرجحان دائما، ومنه جاء المثل:

"عند القبائلي القاضي يقضي والجماعة تلغي"

وقيل إن قبائليا كانت له قضية يسويها مع جاره. فذهب للبحث عن طالب نزل حديثا على القبيلة، وترجاه أن يكتب له قائمة بالشهود على أنه الوحيد، والمالك الشرعي للشيء المتنازع عليه. فرفض الطالب رفضا باتا. وبعد بضعة أيام، حضر هذا القبائلي نفسه أمام رجل القانون، ولكن هذه المرة بأيد مليئة قائلا له:

"هاهي في اليد خمس بسيطات (50, 12 فرنك) لتشتري ورقك، وفي اليد الأخرى خمس رصاصات سألقمها بندقيتي، وبنادق أبنائي إن لم تفعل شيئا مما أطلبه منك".

لقد أصر الطالب بلا شك على رفضه إذ أنه قد فر خفية بعد الغد من هذه الزيارة، وذهب ليقطن لدى أناس هم أقل وحشية. غير أن الروايات تنقل لنا عن مرابط مستنير ترك بعض المؤلفات في التشريع، ألا وهو سي حسن من قبيلة بني ورتلان غرب سطيف، إنه قد تعهد منذ عهد قديم بتجديد المجتمع القبائلي، ويقوض بالقوة مالم يحققه بالإقناع لقد وفق في تهذيب أخلاق بعض القبائل، ولكن مثلما

كانت المهمة صعبة، فقد أوقفه الموت أثناء عمله الحضاري. ولم تجدد أية محاولة من هذا النوع منذ ذلك الحين.

وقبل إنشاء أقسامنا القضائية، يعني تنصيب قضاة في القبائل، كان الناس يتزوجون حسب عادة أو عرف أجدادهم. وكان هذا الزواج ينقسم إلى نوعين: زواج الجدي، وزواج المعطية.

وكان يذبح في زواج الجدي جدي تأكيدا لشروط القبول من طرف العائلات. وكان الزوج يلتزم بدفع مهر إلى أب الزوجة (قيمته تتراوح ما بين 70 و 90 بسيطة Bacetta - 175 إلى 225 فرنك) وفي أغلب الأحيان، كان لا يملك شيئا من هذا المبلغ، ولكنه كان يعتمد على أصدقائه لجمعه. وبالفعل ففي اليوم المحدد للعرس كان كل واحد يأتي حاملا عطيته للزوجين الجديدين، وكان الطبالة والزرنجية يعزفون وبعض فرسان الفرقة يرقصون ببنادقهم في أيديهم، أو بالأحرى يقومون بكل أنواع القفز العجيب، منشدين ومطلقين النار.

وإن لم يكن للأسرة الجديدة بيت، فإن الأصدقاء يهبون أيضا لمساعدته فالبعض منهم يقطع الخشب من الغابة، أو يعجنون طين اللبنات، والبعض الآخر يجلب الديس (نوع من النجيليات Stipa Tenacissima) أو قشر الفلين المخصص لتغطية المسكن الجديد. وفي حالة ما إن كانت فتاة قد طلبت للزواج ورفضت لسبب من الأسباب، فإنه منذ الإعلان عن هذا الرفض على عائلتها أن تحرس محيط المنزل بيقظة تامة، اتقاء لمحاولات العشيق المرفوض. وفعلا إن كان الأخير يصر على مسعاه في الزواج. لا يفتأ ينتظر اللحظة حيث يكون فيها أهل الفتاة غائبين عن الكوخ. وما إن تكون هذه الفرصة سانحة حتى يسارع مع بعض من أصدقائه، وإن ترك الوقت، يذبحون جديا على عتبة المنزل. فيلطخ دم الحيوان الأرض وتصبح رابطة زواج الجدي مشروعة، ويكون لابد من الخضوع إلى العادة، فقد أعلنت الفتاة مخطوبة، ولا أحد آخر يستطيع أن يتزوجها من غير أن يلحق الإهانة بالمطالب بالزواج، ويمس بعقيدة الشرف التي كونها هؤلاء الجبليون.

وفي بعض القبائل، فإن الزوجة الجديدة قبل أن تساق إلى منزل زوجها، تجول في القرى المجاورة على بغل، يصحبها كل الأهل والأحباب المدعوين إلى العرس، مزغردين ومحرقين البارود. ويقدم كل صاحب منزل يمر أمامه الموكب إلى العروسة غربالا مملوءا فولا وجوزا أو تينا جافا. فتأخذ هذه منه قبضة تقبلها ثم ترجعها إلى الغربال، ثم تفرغ هذه المواد الأولية في أكياس تحملها عجائز، وهكذا يجمعن التبرعات لتموين الأسرة الجديدة.

وفي الوقت الذي يبلغ فيه الموكب الهدف من نزهته تحيط النسوة بالعروسة، ويغمسن يدها في وعاء من السمن المذاب، ثم يعطينها، بيضا نيئا، ينبغي أن يكسر بضربه على رأس البغل الذي يحملها ومن بين أذنيه. إن هذه العادة الفريدة التي كرسها العرف تبدو لي غريبة جدا. وتجدر الإشارة إليها حقا. يقال إن لها فعل إبطال كل سحر، وكل تعويذة ضد الزوج الجديد، غير أنه لا توجد في هذا الجيل أية رواية تشير إلى مصدرها.

ومن غير البحث عن إقامة العلاقة بين هذا العرف الخرافي وبين العادات الوثنية _ ألا يمكن أن نرى هنا علاقة مع ما وصف بلين (Pline) حول السحرة في العهود القديمة، الذين كانوا إذا أرادوا أن يلحقوا الأذى بأحد يكتبون اسمه على قشرة البيض؟ وهذا ما أوحى منذ ذلك الحين إلى بعض المؤلفين بأن العرف السائد في بعض البلدان هو كسر قشر البيض على إثر إفراغه قصد إبطال كل سحر.

وما أن تضع العروسة رجلها على الأرض لتدخل إلى مخدعها الجديد، حتى تشرب من حليب طري أو رايب وماء، ثم تعطى قبضة من القمح والشعير، والملح، ينبغي أن تقذف بها يمينا وشمالا من على كتفيها، يقولون هذا لإنزال البركة والرخاء في العائلة. ويقترب العريس بدوره، ويطلق محاذيا للرأس وتقريبا عن كثب طلقة نارية من البندقية أو المسدس، تشعل النار أحيانا في ما تزين به رأسها. هذه الملاطفة الفظة هي تمهيد لإخضاع المرأة، تشعرها بأن زوجها من الآن فصاعدا هو السيد المطلق على وجودها. ولكن بالرغم من حالة الإنكار لوجود المرأة والبلاهة المحزنة

التي تمسك فيها. إلا أنه ينبغي الاعتراف بأن هؤلاء الجبليين ليسوا دائما غرباء عن مشاعر الحب الحقيقي. وأستطيع أن أذكر بعض الملح المؤيدة لذلك. غير أن هذه التفاصيل الجديدة ستجرنا بعيدا عن الإطار المرسوم.

بعد كل التوطئة المفصلة لمبادئ الأمور التي يمنح فيها الاعتقاد الخرافي لهؤلاء السكان قوة التعزيم لإبطال كل الأذى، ومنح الرفاهية إلى الأسرة الجديدة. تدخل العروسة أخيرا إلى المنزل واضعة الرجل اليمنى على عتبة الباب. فيرفعها زوجها حينئذ بين ذراعيه ويضعها في الداخل. بينما ينتظر الآباء والمدعوون في الخارج. وحينما يفض الختم يعلن عنه الزوج بطلقة نارية من المسدس، يطلقها داخل الغرفة حيث يوجد، وعلى إثر هذه الإشارة تعود أصوات الفرح والغناء ودوي البارود بحيوية ونشاط. ويؤتى بقميص العروسة نفسها، وترقص وسط المدعوين ملوحة بهذا القميص بين يديها وفي هذا الوقت يأتي دور الرجال في الرقص، ويستمر الحفل بأغاني ووجبات الأكل التي يتناولها كل المدعوين.

وبفعل زواج الجدي لا تكون المرأة ملكا لزوجها مادام حيا فحسب بل وتصبح بعد موته في عداد التركة ملكا للورثة. وبهذه المناسبة يجدر التذكير بظاهرة كانت تحدث، وهي أنه بمجرد أن يكون الزوج قد لفظ أنفاسه الأخيرة، فالأول من بين الورثة الذي كان يرمي حايكا أو برنوسا أو أي قماش أبيض على رأس الأرملة، يعتبر مالكا لها بهذا الفعل، من غير اعتراض عليه من مشاركته في التركة. وإن كان لها أطفال، فهم ينشأون في منزل بعلها الجديد، الذي يسير ما ترك أبوهم حتى يبلغوا سن الرشد.

وإن كان الزوج ساخطا على زوجته، وكانت مصابة بعاهة منذ زواجها، وكانت قد فقدت عذريتها بطريقة ما، فله الحق في إعادتها إلى أهلها ومطالبة استرجاع المبلغ الكامل المدفوع في المهر. وللرجل دائما حق الاحتفاظ بالأبناء، إن كانت المرأة مطلقة.

أما الأسلوب الآخر للزواج، فيسمى كما قلنا زواج المعطية، وهو زواج المرأة المهداة. وهاهي الظروف التي يحدث فيها. عندما كانت تقع جريمة قتـل، كانت الجماعة تحكم على الجاني بدفع الدية _ ثمن الدم _ التي كانت ترتفع إلى حوالي ألف فرنك. هـذا الذي لا يستطيع أن يجمع المبلغ الضروري مما كان يحدث دائما بسبب أن هذا المبلغ كان يمثل ثروة حقيقية أن يوفي ديونه بالتراضي، بإعطاء بنت من عائلته، وكذلك 50 بسيطة تسمى حق الكفن، وهي قيمة كفن المتوفى وتصبح هذه البنت المعطية بالأحرى العبدة التي تطفئ نار الثأر فيها زوجـة الشخص المسلمة له. ورغم المعامـلات السيئة التي يمكن أن تكون ضحية لها، ورغم الأعمال الشاقة التي يمكن أن تجبر عليها، فإنها يجب عليها أن تحيا وتموت في العائلة المالكة لها، إنها كانت في الغالب كبش الفداء، وبهيمة لأهل الحاقدين واللاإنسانيين: فالدم يجب أن يسدد بالدم.

أعتقد أنـه يمكن هنا الإشارة إلى عادة لسكـان جبل الأوراس هـذه القبائل الجنوبية لمقاطعة قسنطينة. وقصدي أن أعطي نظرة مقارنة للمرأة عند هذا الشعب البربري.

عندما تنجر امرأة لنصائح عشيقها تريد ترك بيت الزوجية كانت تستعمل الوسيلة المتمثلة في العادة المسماة "القربة"وهي الوعاء الذي ينقل فيه الماء. كانت تذهب كالمعتاد إلى العين لتجلب منها الماء، وهنا كانت تنفخ، وتملأ هـواء جلدتها المصنوعـة من جلد التيس، التي كانت تتركها على حافة العين، ثم تذهب للالتحاق بعشيقها.

أما الرجل المهجور فكان لا يلبث أن يلاحظ غياب امرأته فجلدة التيس المليئة بالريح تدل بوضوح على فرارها. إنه شيء مألوف. وما أن يعرف اسم الخاطف، حتى يذهب إليه مسلحا، مصحوبا بإخوانه، وأصدقائه. يجب على العشيق المفضل أن يرد المهر حالا، و إلا فالموت سيلاحقه. وبدفع المهر، كان الشرف يعوض، وكانت المرأة

تبقى لدى عشيقها. غير أنه كان يحدث أحيانا ألا تنتهي القصة بالتراضي دائما، وعندما كان يتعنت الخصمان كلاهما فإن سيل الدماء لا يمكن تجنبه.

وإن كان زوج في حالة أخرى قد كره من زوجته، وكان يطمع في زوجة جاره، كان يقترح تبادلا مع هذا الأخير. وإن كان التقايض مربحا فسيتم من دون صعوبات، بتعويض من المال للمرأة العجوز أو الأقل جمالا.

إن حالات الزنا قليلة جدا بالقبائل الشرقية، لأن الزوج كان يقطع رقبة زوجته لأقل شبهة بالخيانة، من غير خوف من متابعة أسرتها له. لا أتحدث عن العدالة، ما دامت ليست هناك أية سلطة لها مهمة الحرس عليها، وتطبيقها. أما الجماعة فتعتبر القاتل معاقبا بما فيه الكفاية بخسرانه للقيمة التي تساويها زوجته.

وإن كان قبائلي قد وعد بالزواج من فتاة وكان أبوها قد أغراه الطمع في الكسب، ودفعه إلى التخلي عن وعده، لإعطائها لآخر، فإن الشاب المرفوض وكل أقربائه يعتبرون بأنهم جرحوا بعمق في كبريائهم، وكانوا يحملون السلاح، فكانت تحدث أحيانا معارك ضارية، متعاقبة الفشل والظفر للجهتين، إلى أن يرهب أحد الخصمين، ويعطي الصلح، راضيا متخليا عن مطالبته بالمرأة المتنازع عنها.

كان هذا قديما ولا يزال يقول بعض شيوخ القبائل: لقد كنا أحرارا، كل واحد منا سيد نفسه (سلطان رأسه)، كان الرجل الشجاع لا يخاف أحدا، يقتل عدوه بلا شفقة، وحياة رجل لم تكن تقدر بأكثر من حياة ذبابة (حرفيا).

إن أكثر إهانة، وأكثر عقوبة كان يعاقب بها قبائلي، هي حرق منزله، لا لأن هذا المسكن، أو بالأحرى هذا الكوخ يمثل قيمة هامة، ولكن لأنه في صيانته، وللاحترام الذي يمكن -إن صح التعبير- لهذا البيت، ويرتبط به شعور بالحرية أو الكرامة.

ولدى هذا الشعب المتخلف، المتقد العاطفة، الذي لا تحكمه ضوابط، فهذا النوع من الإهانة كان يستعمل أحيانا لبلوغ الثأر الذي لا يتجرأ على التصريح به خوفا من الانتقام المفزع حيث تكون الحياة في خطر. وإذا توصل صاحب البيت المحروق أو الحقل المخرب إلى معرفة اليد التي كانت وراء الإفساد، اشتكى إلى الجماعة، فإن كان المجرم ينتمي إلى قبيلة أخرى، حينئذ يحمل السلاح وتقع المعارك، وإن كان من نفس القبيلة، كانت الجماعة تنتقل إلى مسكنه وتشرع في تحويله إلى رماد، ثم تذبح مواشيه التي تقدم ضيافة. ومن هنا كانت تنشأ أحيانا عداوة وأحقاد، وحروب لا تنتهي.

وعندما كان يحدث أن حريقا مفاجئا يتلف منزلا أو أن عاصفة تخرب محصولا أو أن موتا يهلك أو يخطف قطيعا. فإن كل إخوان القبيلة كانوا يهبون لمساعدة ضحايا النكبة. وكان بيع الأراضي والزيتون والبساتين نادرا بين القبائل، فقد كانوا يفضلون أن يضعوها في الرهن (الرهينة) بالسعر التقريبي لها. وكان القارض ينتفع بها إلى أن يعيد له مدينه أو وراثه المبلغ المقترض.

إن سكان القبائل الشرقية هم مثل سكان جرجرة متمردون منذ زمن طويل على كل سيطرة، فهم قد احتفظوا كما رأينا سابقا بعادات وأعراف تقليدية هامة، لنا في دراستها ومعرفتها جيدا.

وتوجد في جرجرة مواثيق، تسمى بالعامية قانونا _ قوانين مدونة _ أو عادة كذلك، وهي أعراف تقليدية يقرها الاستعمال والممارسة.

وسنتحدث عن تلك المواثيق التي لبلاد القبائل الشرقية، المشتملة كذلك على عادات مليئة بالأصالة، وهي حتى فظة في بعض الأحيان وبربرية، غير أن لها جانبا يكشف عن سمات وروح هذا الشعب البدائي. وها هي الظروف التي اكتشف فيها النص الأصلي لهذه المواثيق، مما جعلني في طريق الوثائق المتشابهة أكثر تماما.

ففي 15 جوان 1860 كانت حملة عسكرية بقيادة الجنرال ديفو (Desvaux) قد دخلت إلى قلب بني خطاب، المحرضين الأساسيين على الثورة التي انفجرت في هذه الفترة، وخيمت على جبال تافرطاس، الأجرد، الذي علوه (1250 مترا) يشير بالفعل إلى بداية منطقة حيث لا تستطيع أن تنمو النباتات. وفي 19 جوان، كان رتل خفيف من بعض الكتائب من دون أجربة، قد واصلت اكتشافا نحو قمة سيدي معروف، حيث تأكد أن قسما من المتمردين كانوا قد انسحبوا مع عائلاتهم وقطعانهم.

إن سيدي معروف هو صخر عظيم، قاحل، مليء بالتجاويف والالتواءات والتعاريج، وهو مرتفع من التسننات، في شكل عجيب، يسميه عسكريونا في لغتهم باسم قرون الشيطان. هذا الصخر ينفصل عن كل الجهات بأودية، وجرف مهاوي بعمق هائل، تتلاشى على ضفاف وادي حاية، ترفد الوادي الكبير (منخفض الرمال)، ولا يتصل بأراضي جبل بوطويل الذي ذروته تافرطاس، إلا بمختنق كثير الحصى، وضيق جدا. نحو الغروب وفي سفح الصخر الذي ينتصب عموديا تكون مجموعة من الأشجار المروية بعين جميلة واحة، في وسطها يوجد تحت قربي من الديس ضريح سيدي معروف، المرابط الموقر، الذي أطلق اسمه على الجبل ([1]) .

وفي الجهة المقابلة للقربي، تجاه القمة، حيث تلتقي الخنقة الصغيرة بشفعة سيدي معروف، توجد كذلك مغارات طبيعية، تركها المتمردون عندما رأوا مجيئنا. وقد وجد روادونا الذين دخلوا هذه الكهوف بعض الأواني من السمن السنخ، وبعض القرب مليئة بالكسكس والدقيق. وفي أحدى الزوايا وسط كومة من الأسمال والخرقة وجد زواوي (Zouave) عدة جعب من القصب تحتوي على أوراق ملفوفة، أعطاني أياها.

[1] - إن سيرة سيدي معروف لا تنقل لنا شيئا ملفتا للنظر، فا لأسطورة قد أضاعت ذكر معجزات هذا الرجل المقدس، يقال الآتي من بغداد، حيث لا تزال توجد مصليات كان قد أسسها. ويقال ما عدا أن دوي المدفع يسمع في سيدي معروف في كل مرة كان لابد أن يقع حادث خارق للعادة. وعند الحملة المشؤومة للباي عثمان في سنة 1804 كان هذا القصف غير العادي قد أصدى الوادي.

ولم تكن لهذه الأوراق أية أهمية؛ كانت في الغالب مجرد تسجيل للحبوب المقروضة، وبعض الشهادات المجمعة لبعض القضايا المصلحية... الخ. وأخيرا وجدت هناك الوثيقة العجيبة التي منها الترجمة: ([1]).

"الحمد لله وحده

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

أما بعد. فقد حضر بين أيدينا جماعة أولاد بارش جملة؛ كبيرا وصغيرا، واتفقوا على:

من ضرب على مالهم فيعطون ديته على المصباح والمعطية كذلك على المصباح ([2])

وكذلك من ضرب على النيف، على زوجته، وزوجة ابن عمه.

وكذلك الضيف من ضرب عليه إذا كان صاحب معلوم، والبحيرة والحمى والوسيق، وغير ذلك من النيف.

وقتل أو جرح أحد من ما ذكر فيعطون ديته أو المبطال على المصباح.

وكذلك من ضرب على مصلحة الجماعة، من بلاد ارتغمت أو دخمت وقتل وجرح كذلك يعطون ديته على المصباح.

وكذلك إذا مات أحد من الجماعة، وأراد وليه أن يقتل، ويقتل فيسد في المقتول. وأما خائن النهار إذا قتله أحد من الجماعة فيعطون ديته على المصباح، والمعطية يعطيها القاتل وحده فقط، أما في الليل على المصباح جميع ما يعطون فيه المعطية _ لقد قلنا سابقا من تكون المرأة المعطية، وهي المخصصة لتسديد ثمن الدم في بعض القبائل، وتشمل المعطية على طعام يقدم كنفقة.

---

[1] - لقد سبق أن نشرت نص ترجمة هذه الوثيقة في المجلة الإفريقية سنة 1862 المجلد 6.

[2] - الدية ـ ثمن الدم يقدر بألف فرنك ـ المصباح: قنديل، وتجاوزا الدار كلها مضيئة بهذا القنديل. تأخذ كلمة دخان ومدخنة أحيانا نفس المفهوم، وهي مساوية لكلمة بيت، خيمة العرب. وتتطابق هذه العبارة مع تعبيرنا"قرية ذات كذا من النار".

فإذا سرقت سريقة من الجماعة، ودارت الجماعة وقرعوا لمن يفزع وامتنع فخسارته ريال كذلك وكذلك من مشى مع ولي المقتول وأكل شيئا من الفاني، فلا رجوع له عليه والسلام.

والشهـود الحاضرون هم؛ بومزبر على بن سليمان والمرابط أحمد بن بوعزيز وأحمد بن سعد، وغير ذلك ممن حضر جمع كثير وكاتبه أحمد بن بلقاسـم بو لبصير تاب الله عليـه آمين.

بعد إخماد فتن القبائل الشرقية، وعندما كانت العشائر تحضر إلى مخيمنا لتأخذ منه تعليمات الجنرال والتنظيم بصفة قانونية عرضت الوثيقة التي اكتشفتها في سيـدي معروف والتي قرأت ترجمتها على عدد من أعضاء الجماعة. وقد أجابوني بأن هـذا النوع من التنظيم كان معمولا به في قبائلهم منذ العهد القديم، وأنه كان يقوم مقام القانون. وقد حصلت حينذاك على الميثاق الكامل للاتفاقية الذي سأدونه:

الحمد لله

هذا تعريف عوايد قبائل زواغة وأراس وأولاد حاية، وأولاد عيدون، وبني خطاب، وغيرهم ومـا كانوا يصنفـون في الفارط. وأن لكل عرش من أعراشهم جماعة تفصل قضاياهم حسب العادة السالفـة، يعينون من كل قبيلة رجلا أو اثنين أو أكثر يختـارون العقلاء والمسنين وكل من تفضله الجماعة المذكورة كمثل النكاح وقسم التركة، وقتل النفس والسرقة، وحريق الديار، والزرع والتبن، وسرقة السلاح، والهجوم على المحارم، والتعدي على الحدود الفاصلة بينهم.

الفصل الأول: إن من عادتهم يزوجون المرأة بالجدي وهذا شرط عندهم على التعاقد وإن توفي المتزوج فيردها من أقاربه أحد منهم، ثم الثالث والرابع وهكذا لأنهم يرثونها.

2ـ وإن تزوج رجل وظهر به اعتراض، فإنه يؤجل عامين فإن بقي على ذلك فتخرج عليه المرأة، وتتزوج بغيره ويأخذ الرجل جميع ما دفع فيها.

3ـ وإن تزوجت امرأة بالجدي وعجز الزوج على دفع صداقها، فإن أولياءها يطلبونه مرة أو اثنين فإن تبين عجزه، فالجماعة يأمرونه بتطليق المرأة، ويلزمونه بأن يذبح كبشا ليطعم به جماعة القبيلة.

4 ـ وإذا تعدى أحد على رجل من أهل القبيلة وقتله عمدا، تنهب داره وتهدم، ويذبحون له عشرة رؤوس من البقر خطية، ويدفع دية كاملة أو إن كانت له بنت أو أخت يزوجها أحدا من أقارب المقتول، يأخذها في الدم وتبقى المرأة معطية على حساب الجدي [1].

5 ـ وأما القاتل إذا مسك وقت القتل، يقدمونه لأولياء المقتول، ليقتلوه في الدم، وإذا فلت، ولم يمسك فإنهم يعاقبونه بمثل ما تقدم وينفونه من عرشه، ويبقى ملكه بيد أولياء المقتول يتصرفون فيه حتى يقبلوا منه الدية أو المعطية، وإلا فلا رجوع له لبلاده أبدا.

6 ـ وإذا اتهموا أحدا بقتيلة ولم يظهر القاتل فإن أولياء المقتول يحلفون المتهوم وخمسين رجلا معه من أقربائه، وإذا امتنع من اليمين أو امتنع أقرباؤه أو لم يتم عدد الخمسين رجلا فيعاقبون المتهم بمثل ما تقدم.

7 ـ إن السارق إذا مات بداخل الدار، يدفع القاتل أربعين دورية من عند القاتل، وعشرين من عند الجماعة فيأخذ ذلك أهل الميت وتنفصل القضية.

8ـ وإذا تشاجرا اثنان، وطلع أحدهما زناد المكحلة على صاحبه ولم تتكلم يذبحون له خمسة رؤوس بقر خطية. إذا كان المشاجر معه من غير سلاح. وأما من ضرب صاحبه بسكين وجرحه جرحا خفيفا دورو ونصف خطية.

9 ـ ومن تشاجر في العرش، وصدر منه شتم يلزمه رأس بقر خطية.

---

[1] ـ قبائل جرجرة هم أيضا كانت من عاداتهم أحيانا أن يعطوا المرأة حقنا للدم فكانت قدا من منحة الدم.

10_ وإن كان واحد براني ليس هو من العرش وله صاحب بالعرش فمن تعدى عليه في العرش، يأخذ صاحبه عشرة ريالات بسيطة [1] وإذا كان في الأفراح أو العرس يأخذ صاحبه عشرين ريالا بسيطة.

11_ وإذا تضارب رجلان في السوق فعلى كل واحد منهما ثلاثة دورية خطية.

12- وإن حانوت الحداد الذي يخدم آلة حديد الفلاحة، وغيرها فلا أحد يطلب صاحبه في دين له عليه بداخلها ومن تشاجر بها يتخطى برأس من البقر و لا يأخذ دينه من غريمه، إلا إذا كان خارج الحانوت.

13_ وإذا وقعت مشاجرة بين اثنين وتقدم أقارب أحدهما بقصد الحمية، وتعاونوا على ضرب الآخر وجرحه فيلزم للمتقدمين رأس بقر خطية ويدفعون أيضا قصاص المجروح.

14 - وإذا جرح أحد في مشاجرة، فلا يقاصصون له إلا بعد مضي ستة أشهر بالعادة، وإن انكسر أحد في مشاجرة فلا يقاصصون له إلا بعد سنة.

15 _ وأما إذا سرق أحد المكحلة من أناس العرش، وظهرت عليه فيأخذ رب المكحلة خمسة دورو بشارة وقيمة المكحلة خمسة وسبعين دورية، وأما المكحلة الصغيرة إذا ظهر خائنها فقيمتها خمس وعشرون دورية وبشارتها ثلاثة دورو.

16 _ وأما سلاح الرجل مثل السكين، والموسى، وغير ذلك إذا ظهر خاين أحدهما يدفع رأس كبش خطية ويدفع أيضا قيمة الحاجة المسروقة والبشارة دورو [2].

17 _ ومن سرق زايلة يدفع خمسة وعشرين دورية، وقيمتها. ومن قص شعر زايلة أو غيرها تعمدا يدفع لرب الزايلة زوج دورو.

18 _ ومن سرق رأسا من البقر سواء كان ذكرا أو أنثى من القبيلة يدفع عشرين دورية قيمة الرأس والبشارة.

---

[1] - هذه العادة تتناظر مع نعية جبليي القبائل الغربية.

[2] - البشارة: هي الهدية، والمكافأة التي تعطى لمن يكشف أو يبلغ عن فاعل القتل أو السرقة.

19 _ وإذا تسوق للسوق رجل من قبيلة أخرى وسرق سريقة وظهرت عليه فيلزمه ما ذكر. وإذا أحد من أناس العرش سرق أحد البرانية، فيجرى عليه الحكم بحسب العادة كما أن البراني إذا ضرب أحدا من أناس العرش يلزمه أيضا ما يلزمهم.

20 _ وإذا كان أحد البرانية ظهرت عليه سريقة، ولم يرجع إلى السوق، يضاف لئلا يمسكوه فكل من يأتي إلى السوق من جماعته يطالبونه فيه إلى أن تخلص قضيته.

21 _ إذا سرقت شاة أو معزة وظهرت على أحد فيدفع خمسة دورية والبشارة.

22 _ ومن سرق قشا أو سرجا، أو لجاما أو بردعة أو حزاما أو شكيمة وظهرت عليه يدفع أربعة دورية لرب القش مع قيمة المسروق والبشارة.

23 _ ومن سرق مطمورا، وظهرت عليه يدفع خمسة عشر ريالا بسيطة خطية وقيمة المسروق، وكذلك من سرق غلة، رقعة أو جنان أو بحيرة أو نادر الحبوب، فمن سرق ذلك يدفع ريالا واحدا إن كان في النهار وإن سرق بالليل يدفع خمسة ريالات خطية.

24 _ ومن سرق سكة الحراثة، وظهرت عليه يدفع زوج دورو ونصف لرب السكة.

25 _ ومن قصد دارا خالية وسرق منها شيئا، يأخذ منه رب الدار دورو ونصف، وإن فسد قنطاس أو ركيزة أو الباب يدفع دوريين ([1]).

26- ومن حرق دار مسقفة بالقرمود يدفعماية دورية. وأما التي بغير قرمود يدفع عنها خمسة وعشرين دورو. وأما التي مسقفة بالعود أو بقشر الفرنان يدفع عنها خمسة وعشرين دورية، بحسب العادة، وإن أنكر المتهم بالحريق يحلف مع خمسة وعشرين رجلا.

27 - ومن قتل كلبا لغيره في العرش يأخذ منه رب الكلب خمسة دورية وإذا كان قتله عند إذايته بالعض فلا يلزمه شيء.

---

[1] - لقد ترجمت كلمتا: القنطاس والركيزة بالجائزة، والقائمة الأولى قطعة الخشب المعترضة للسقف، والثانية الدعامة المغروزة بالأرض وسط الغرفة كمسند لتدعيم هذه العارضة.

28- ومن ضرب نقبة على دار لأناس عرشه ولم يسرق شيئا فيأخذ منه رب الدار دوريين ونصف [1].

29 _ إذا سرق أحد جبح نحل وظهر عليه يخسر سبعة دورية، ومن سرق مطحنة يخسر دوريين عند ثبوتها.

30 _ ومن قلع غرسا من جنان يدفع دوريين ونصف خسارة، ومن حرق الزيتونة أو غيرها من الشجر المثمر يدفع خمسة دورية قيمتها ودورو ونصف خطية للجماعة.

31 _ ومن حرق نادرا يدفع عشرة ريالات لرب النادر ودورو ونصف خطية للجماعة.

32 _ وإذا تعدى أحد على باب دار لأحد ونكر تعدية رب الدار فيدفع عشرين ريالا بسيطة.

33 _ ومن فسد ذيل زايلة أو قرن ثور أو غيرهما يدفع دورو لربهما.

34- ومن فسد عين زايلة أو ثور أو ضرب فرسا لبطنها حتى أسقطت الجنين يدفع على أحد الفعلين عشرة دورية، وكذلك من سرق حمارا وظهر عليه يدفع عشرة دورية أيضا.

35 - ومن أخذ زوجة غيره لما ثبت عليه ذلك يذبحون له ستة رؤوس بقر أما ثلاثة يأخذها زوج المرأة، وثلاثة للجماعة، وإذا نادت امرأة بأعلى صوتها عند تعدي أحد عليها، وأراد فعل الفاحشة بها، فيلزم المتعدي العقوبة على حسب العادة، ولا يقبلون منه يمينا.

36 _ ومن وجد مع زوجته رجلا ومسك أحد حوايج الرجل، فقد تحل العقوبة بالمتعدي، ولا يقبل منه يمينا، وإذا لم يمسك له حاجة فلا يلزمه شيء.

37 _ ومن غصب امرأة وتعدى على بنت وغصبها تذبح له خمسة رؤوس من البقر.

---

[1] - المنقار أو الكلابة الحديدية الصغيرة المصنوعة على شكل قائمة الظبي من أحد طرفيها، هي الوسيلة التي يستعملها السراق الأهالي لثقب جدار والدخول إلى منزل.

38 _ ومن هرب ببنت وماتت عنده قبل أن يعقد عليها، يدفع دية كاملة.

39 _ وإذا هرب أحد بامرأة، وهي معطية لغيره، يدفع صداقها على التمام ويزيد خطية خمسة رؤوس بقر.

40 _ وإذا كان أحد ساكنا في العرش ليس هو من أناس العرش، وهرب بامرأة يدفع عليه جاره الساكن معه الواجب عليه.

41 _ وإذا هرب أحد من العرش بزوجة البراني الساكن في العرش، وبقيت عنده أكثر من سبعة أيام، يدفع الفاعل ذلك عشرين دورية وترجع المرأة لزوجها.

42 _ وإذا هرب أحد ببنت ولم يسبق لها زواج فلا يمكنه تزويجها إلا برضى إخوانها، وإلا فلا يتزوج بها أصلا ويدفع خمسة ريالات دورية خطية للجماعة، وإذا كان حضر معه أصحابه في هروبه بها كل واحد منهم يدفع نصف دورو...

43 _ وإذا وجد أحد رجلا مع زوجته متعانقين، وقتلهما فلا يلزمه شيء.

44 _ وإذا نادت الجماعة بإحضار أناس العرش وحملهم السلاح وتأخر أحد منهم بعد المنادية، يلزمه ريال خطية.

45 _ وإذا غزا أناس العرش على العدو ونهبوا لهم بقرا، فلا يأخذ أحد منها شيئا حتى تقسم بين جميع الغزاة، ومن تعدى وأخذ بقرة يتخطى باثنين من البقر، وكذلك شاة من الغنم يجري عليه الحكم حسب ما ذكر.

46 _ وإذا قتل أحد من أناس العرش رجلا من أعدائهم، وسبقه غيره لأخذ مكحلة الهالك فللقاتل شطرها، والشطر الآخر لمن سبق إليها بالأخذ.

والجدير بالملاحظة أن هذه القوانين المتعاقد عليها في القبائل الشرقية، التي كان ينقصها مبدأ هذا الاتحاد الذي كان يكون لدى الزواوة عدة قبائل متحالفة في اتحاد، كانت تقوم على قواعد متغيرة جدا، وحتى متناقضة أحيانا فما يكون مقبولا في قبيلة يكون مستخفا به في قبيلة أخرى، وبكلمة واحدة ليس هناك تضامن بينها. وفضلا عن ذلك، فإن كانت عائلة في قبيلة لها ما يكفي من القوة والجاه يعني إن كان لها أعضاء كثيرون بما فيه الكفاية لممارسة نوع من التهديد على الجماعة، فإن إرادتها

هي التي تسود، فقد كانت كل القوانين المتعاقد عليها منتهكة، حسب هواها. لكن إن كانت الجريمة من غير عقاب، فإن الثارات الشخصية كانت لا تزول بأقل ضراوة من الجهتين. ومن هنا، كانت تنجر عنها معارك متواصلة، تتميز بالغضب البربري. إنها الحياة الوحشية في كل مظاهر الاعتزاز والحرية.

ومنذ بضع سنوات خلت كان لا بد من القضاء على عصابة أشرار متمردة على كل سلطة، زرعت الرعب في البلاد، في كل فترة، من جراء ما يقومون به من قتل ونهب.

وكان من يعرفون في عرشهم لدى القبائل أنفسهم بأنهم شرسون ومتوحشون. أولئك هم عرب تاسقيفت، الذين يعيشون على طريقة سكان الكهوف القدامى، في مغارات طبيعية، وسط صخور منيعة.

إنه كما يقول بعض الكتاب، إن كانت طبيعة الأرض والمناخ هما العاملان اللذان يؤثران أكثر على أخلاق وعادات الأقوام، فإنه يجب أن يعزى الطبع العنيف لهؤلاء الجبليين، إلى البلد الصعب، الوعر، والوحشي الذي يسكنونه، كما يعزى إلى المناوشات اليومية التي كانت لهم قبل خضوعهم، في كل حين مع الجيران. ولو يسأل قبائلي عن ماضيه، وماضي أسرته أو قبيلته فلابد أن تتوقع هذه الإجابة: هناك دم بيني وبين فلان ـ إن الانتقام كان يعتبر واجبا، وكان من لم يذعن لهذه العادة، لا يحظى بأي احترام وكان يوصف بالجبان. وتأكيدا لما قدمت سأذكر تصرف بني تفوت وبني فرقان، وكان سكان المرتفعات التي تكون شناخ جبال السبعة رؤوس. بعد أن تكون جريمة قتل قد وقعت، كان أهل القاتل يجتمعون، وكانوا يذهبون لطلب الصفح من أسرة الضحية. وكانت هذه الأخيرة تقبل بالدية التي كانت ترتفع عندهم إلى مائة بسيطة (Bacetta) وكان المبلغ يحفظ كاملا بدقة، ويوضع في قرن ثور، ويخفى في مكان من المنزل، إلى أن يثأر أحد من أعضاء الأسرة للقتيل، فكانت المائة بسيطة تخرج في هذا الوقت من مخبئها، وترد إلى أقارب القاتل الأول.

وما دامت هذه الإعـادة لم تقع، فإنه كان يقال في القبيلة:"ان قرن الأسرة الفلانية لا يزال مليئا، فهي تنتظر رجلا شجاعا لإفراغه ".

وفي كل مرة عنـدما كانت الجماعة تدعى للحكـم في قضية معقدة، كانت تحيل المترافعين إلى اليمين، وتحدد أهمية القضية حسب النوعية (أقارب أو غربـاء)، وعـدد الشهود الذين كان عليهم أن يحضروا. وهكذا بالنسبة لجريمة القتل، كما كنا قد رأينا في القانون التنظيمي السابـق. لقد ثبت أن خمسين شخصا كانوا يؤدون الشهادة ضـد المتهم أو لصالحه.

وكان يقتضي منه الشهود خمسـة وعشرين في سرقـة أحصنة أو بغال ـ وأربعة عشـر في سرقة المواشي، وأخيرا سبعة بالنسبة لنزاع على ملكية أو حدود أرض.

من البديهي أن الخمسين شخصا كانوا في حـالة قتـل لا يمكنهـم أن يشاهدوا دائما وقوع الجريمة. ولكـن يمكنني أن أقول إن دورهم كان تدعيم وتصديق قـول الـذي دعاهم إلى الشهادة، وهكذا يجعلهم متضامنين بكلمته. وفي هذه الظروف كان المعني يبذل جهدا في البحث عن الشهود. ولما كان من الصعب، أحيانا، تجميع العدد الضروري من نفس المكان، فإنه كان يتحتم عليه أن يسارع إلى القرى المجاورة، وحتى البعيدة جدا في بعض الأحيان لالتماس الشهادة، كان يطلب من جيرانه أن يأتوا لتدعيم قضية بتأدية اليمين، على شرط أن يعاملهم بالمثل في أول مناسبة وفعلا، فقد كان يضع نفسه تحت تصرف أصدقائه الموالين له، وما أن يصل دورهم حتى يطلبوا نفس الخدمة.

ومن نافلة القول، إنه إن كانت هذه الشهادة تستعار، فإن هناك أشخاصا قليلي الضمير، كانوا يبيعون أنفسهم لمن يدفع أكثر.

"من ليس عنده شهود يموت"

كان لابد لهذه القاعدة القبائلية المتبعة أن تجد تطبيقاتها أحيانا للمترافع الذي كان لا يستطيع أن يرضي حاجته من شراء ذمم الشاهدين المجاملين.

وكان المدعوون والشهود يذهبون في اليوم المعلوم إلى أي قبر مرابط كان، وكان طالب الناحية يحرر مستندا كانت تظهر عليه أسماء كل الذين ضبطوه.

ومن بين المرابطين الذين كان يفضل اختيارهم لهذا الضرب من المحاكمات، من اللائق أن نذكر في المحل الأول سيدي أبو يحي بميلة ويسمى كذلك أبو مائة ناقة، المرابط ذو المائة جمل، إن الاعتقاد الشعبي الذي يغذيه ويستغله الطلبة لحسابهم، هو أنه لا يمكن أن يحلف زورا في حرم زاوية الرجل الصالح من غير الإصابة بالعمى، أو الموت بحادث عنيف _ أعتقد أنه سوف لن يكون من غير الفائدة إعطاء بعض التفاصيل عن هذه الشخصية، التي مازال ذكرها وقبرها في تبجيل عظيم في القبائل الشرقية. وها هو ما تقول الرواية بالنسبة إليه _ وأنقل لمحة عن سيرته الذاتية التي قدمها وكيل الزاوية:

سيدي أبو يحي عبد الله بن محمد الحسني بن نعمان بن عبد اللطيف، أخو سيدي عبد لله بن سراح، من أصل قريشي، كان إمام العرب الذين فتحوا إفريقيا بقيادة عقبة بن نافع سنة 667 ميلادية.

لقد بدأت الكرامات تبدو عليه بمصر، انتقل من مصر إلى تونس، حيث أقام عدة سنوات، أنشأ أثناءها زاوية خارج المدينة، يقال إنها مازالت موجودة. ومن تونس التحق ببجاية فيما بعد. وهناك أنشأ مصلى صغيرا ذا القبة التي ترى اليوم في منحدر الجبل. خلف جون سيدي يحي وبجانب المؤسسة البحرية [1].

وبعد إقامته لبعض الوقت في بجاية جاء واستقر بميلة حيث عاش إلى أن وافته المنية. وقبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة بقليل من اللحظات، جمع تلاميذه الكثيرين،

---

[1] - يسمي البجاويون مؤسس هذا المصلى سيدي يحيى أبو زكرياء ويدعون أن الولي مدفون هناك. وتبدو لي هذه الرواية محتملة، وقد يكون هو الذي تحدث عنه السيد شربونو في عمل معنون بمجموعة أدباء بجاية:
أبو زكرياء يحيى بن محجوبة من سطيف، كان مثقفا جدا في العلوم القانونية، لقد أنهى في بجاية حياة مثالية في سنة 667 (1278).

وقال لهم: ادخلوا الغابات المحيطة بميلة، ستجدون فيها خلوة مهيأة لاستقبالي، ولتكون للأجيال موضع التعظيم الذي يليق بي. وتقع زاوية سيدي أبو يحي تحت غابة من الزيتون، من الجهة الغربية للبساتين التي تحيط بمدينة ميلة كواحة نضرة مخضوضرة. إن المؤسسة ليست ذات شأن، فهي تتكون من غرفتين مخصصتين للطلبة وأبناء السبيل، ومن بيت الصلاة، يوجد بها ضريح المرابط الذي نصل إليه عند هبوط عشر درجات من البناء الأهلي. وتقود الدرجات الخمس الأولى إلى مغارة طبيعية، تقدر بحوالي مترين مربعين، أما الخمس الأخريات فتؤدي إلى المغارة الداخلية، التي يوجد بواسطتها الضريح مغطى بالأعلام الدينية ولا شيء يوحي لي بأثر عمل الإنسان، في هذه المغارات. لقد اقتصر عمل معماريي البلد على تجصيص الداخل، وغلق كليهما بباب صغير مثبت بجدار صغير من البناء. إن الأهالي الذين يدخلون هناك، لا يخرجون إلا متراجعين إلى الخلف وبإجلال كبير.

كانت الزاوية قديما تتمتع بامتيازات كبيرة، وتستقبل هبات، وكان حرمها أيضا حاميا لمن كان يبحث عن ملجإ يمنعه من حكم البشر. إن الكرامات التي نسبت إلى سيدي أبي يحي عديدة، فقد كان سكان ميلة يسارعون في أن يقصوها على كل الزائرين له، فيذكرون أن عدة أشخاص أقسموا زورا باسم المرابط، أو لم يوفوا بنذرهم الذي نذروه وقت الشدة، فهلكوا بطريقة مأساوية.

وحتى لا أدخل في كل التفاصيل التي يرويها الطلبة بنوع من الجدية الرصينة. سأقتصر فقط على نقل أصل كنية أبي مائة ناقة التي أعطيت للمرابط منذ نصف قرن تقريبا. إن شاكر، باي قسنطينة الذي كان قد عاقب بعض القبائل من الغرب، احتجز العديد من قطعان الجمال وأتى بها نحو قسنطينة تحت قيادة المسمى درنالي قايد العزيب. وقد وقع هذا زمن حر الصيف الشديد. وعندما وصلت القافلة إلى ضواحي ميلة، أمر قائدها بالتوقف تحت الأشجار المحيطة بالمدينة. وقد تركت الجمال لحالها، وبينما كان حراسها ينامون في الظل، دخلت هي إلى الحدائق وأحدثت بها خسائر كبيرة. ولم تكن الأغراس التي تحيط بالزاوية أكثر حماية من بقية

الواحة. وفجأة سمع دوي مرعب أكثر انفجارا من مائة طلقة مدفع. كان ذلك هو المرابط الذي عبر عن استيائه من قلة الاحترام لضريحه. فارتطمت الجمال المذعورة التي أرادت الفرار ببعضها البعض، وكانت الحصيلة في النهاية أن سقطت من بينها مائة ناقة مصعوقة. وكان قائد العزيب، قد يئس إذ أنه كان خوفه من سخط المرابط أقل من غضب الباي الذي سوف لن يفوت معاقبته على إهماله. وبتوسل من طرف طلبة الزاوية الذين عرضوا عليه التدخل لصالحه مع سيده على أن يعد بتقديم بغلة جميلة مسروجة، إن كان هذا العفو مقبولا. وبالفعل، فقد صفح الباي، ولكن نسي درنالي وعده، وتقول الرواية أيضا، إنه لم يلبث أن عوقب عن حنثه باليمين، فقد أصبح أعمى، ومات بعد قليل فقيرا بئيسا.

وسأنقل هنا بعض المقطوعات من الأغاني القبائلية، ولا شيء يبدو لي أكثر تميزا ليعطي فكرة عن تفرد هذا الصقع، وعن التعبير الخالص عن عبقرية هؤلاء السكان، فهي على العموم أغاني حب، أو آثار من النوع الحكائي، عن الأحداث الهامة، وباختصار، فهي أناشيد حزن، أو نحيب وشكوى، للاحتفال بذكرى أحد الأقارب ([1]).

غناء العروسة

أما مشيت يا رجلي وخلفت من غبار جابوها حبابي البيزان دي عقار

سلامنا على مولى الدار حباب لالا يلهطو بالنار

سلامنا على الوثول حباب لالا الكل فحول

سلامنا على باب الحوش حباب لالا رافدين الكبوس [2]

شعلوا المصبح والزيت من البطة أحباب لا لا لا بسين الفضة

شعلوا المصبح نشوف الحالة حباب لا لا دا الذهب شعالة

لا لا العروسة بنت الدوادي خلينا بوها يبكي وينادي

---

[1] - لقد نشرت نص هذه الأغاني، التي لا أقوم فيها هنا إلابالترجمة في المجلة الإفريقية المجلد 6 ص 432

[2] - عدة قلانس من الصوف بيضاء، مغلفة بعضها ببعض، يغطي القبائل رؤوسهم بها.

يا لالا العروسة ياحنيشت الطريق أم العيون الكحل والحاجب رقيق
قول لام العريس تجبد ما خبات تجبد الخلاخل للعروسة اللي جات
قول لام العريس تجبد ما خبات تجبد البرايم للعروسة اللي جات

عديت من ثم نلقى مسعودة تملا
بالقد والحزمة كيف التركي يغرم في الباطل
بزازل مسعودة قرابة د البشاطل
يا بنت بو زرو السويلف مزعرو
يا اختي نهبل عند صباح الفجري
لو كان تقبلني نبيع سهمي في الدنيا
شوف هذيك السالف نقول دالريش النعام
قلبي طار على مسعودة منها رأسي شاب

غناء الحرب

بني تفوت والسوقية قواو بالمراسلية
قواو بالمراسلية قالوا قوموا على البلاد
اضربوا البولدون ياسيادي اليوم وصل الجهاد
مشاط والسوقية من سينات غارت لي
من سينات غارت لي و أنايا قطعت الفوت
أياو تزردوا للنسورة بالخيل دي بني توفوت
نغني على الحناشي كيف التركي في المحلة ماشي
هو دالفحل على الاعراش به نعمر حبارة

كيـف يوصـل يـاخـوتي ثـم تبرد الـطيـاح [1]

هذيك اليـوم يا خوتي في الدمـامة وحـده

عمـر في الدمـامة وحده يتكلم كيف الصيـد

والمكـحلة بيضاء عنـده ويمنع مـن التـبريد

هذيك اليوم على مرجاجة والبارود دالعجاجة

البارود دالعجـاجة والطياح كيف الريـش

ياخواني يارجالة من الـدار ما يجيـش

يا هذيك النهار في القصر، والبارود يقيـل يضرب

ياخوتي لاباو يفرو فيـها شيـانت الشبان

ثم تخلطـت العسـاكر دي محمـد بـورنـان

هذيك اليوم، علىالصمعة، يا خوتي غير في أربعة

يا خـوتي غير في أربعـة مفروقـين في القريان

عبـد الله د الصيد مربي ومـحمـد د بلهوان

هذيك اليوم على بو العقد رأيت النار ثم توقد

لا بركـات لا مـن يقعد ورثـوها أولاد سلطـان

أولاد معيزة يضربـوا كيـف العقبان

زيغـود واللـي معاه همـا في الشعـبة قعدوا

أولاد حنـاش زعمـوا باش تـبرد الطياح

هذيك اليوم على بولبنة يا خـوتي ما حلا الغناء

بـاي ـ باي ـ باي

---

[1] - عندما يسقط قبائلي ميتا أو جريحا في معركة، يعمل إخوانه كل مجهوداتهم حتى لا يتركوا جثة بين أيدي العدو ـ والمقصود بالميت البارد هو الذي يبقى في مكانه من غير تشويه، أو يحمى من طرفهم ضد هجمات العدو، وبكلمة واحدة هو الذي يتركه رفاقه في السلاح قبل أن تصبح جثته باردة هامدة.

النداب على الميت

ياويليا ياويليا ياويليا يا د فلان بو الفجوج الخاليا

ياويليا ياويليا ياويليا واين د فلان واين أخوكم يا البنات

السربة المعدية تقرعوا الى د مازالوا تقرعوا يلحق د فلان البارود تندله ([1])

حلف د الراعي ما يرعى والبقرة ما ترعى شي الدردار

يا د فلان الباي خرج للدوار

انا قلبي د الطوبة يندب على فلان خلى المرأة مخطوبة

أنا قلبي يغلي كيف البرمة ورجالة اللي مليح دخل القبر والفايح صاب الدالة

يا ويليا يا ويليا يا ويليا يا د فلان فرخ الباز خلى بيته

قوم قوم لماش اداك النعاس تكلم كلمة شرعية باش تروح هذا الناس

قوم قوم لماش أداك النوم تكلم كلمة شرعية باش يروح هذا القوم

القطوشة في رأسه تدفق بالطيب ([2]) والريح

القمر ياعين الشمس صبحت اليوم مريضة

اندبوا على فلان من يحضر العيطة

القمر ياعين الشمس في السماء يتراقص

فلان وصاحبه في القبر يتوانس

أنا قلبي يتملى من الطيب وعود الحلف

اندبوا على فلان الشيخ قاعد وحده

أنا قلبي يتملى من الطيب واسكنجبير

---

[1] - المعنى الحرفي للبارود تنداله، يعني مات. هذا التعبير المحلي يشبه بعض الصيغ السوقية في لغتنا، المستعملة لتأدية نفس المعنى. وهكذا يقول الجنود في بعض الأحيان، كسر غليونه، مثل ابتلع الملاح عقافته.

[2] - القطوشة هي خصلة الشعر التي يتركها كثير من المسلمين تنمو فوق قمة الرأس.

اندبـوا على فلان الشيـخ قـاعـد مـحـير

اسمعوا النمرة تزهـر وتكسـر في عـوادهـا

انـدبـوا على فـلان ما جايشي صيادها

حلف الراعي ما يرعى شي والبقرة ما ترعا السلة

انـدبوا على فـلان البـأي حـط على الـنـزلة

ويليا ويليا ويليا يا ويليا

وتجتمع النسوة للعويل والنحيب، فترتجل من بينهم المرأة التي لها موهبة أكثر في الكلام والأسلوب البليـغ على قبر الفقيد غناء نحيبيـا، مقطوعا بفواصل الانتحاب والعويل: ياويليا _ حيث تمجد مناقب الفقيد وتعبر عن تحسر. ألا تذكر أغاني الحزن هذه ببالالا مغنيات الفوسيرو في كورسيكا؟

إن الزراعة لا تزال لم تتطور تطورا معتبرا، غير أن سكان القبائل الذين هم من النوع المتوسط القامة، العصبي، النحيف، والنشيط، وهم على العموم أكثر ذكاء، وأقل كسلا من عرب السهول، وهم أيضا أكثر قابلية من هؤلاء الأخيرين للسير في طريق التقدم ففلاحتهم على العموم منتظمة، ومرتبة ترتيبا حسنا بالنسبة لصعوبات الأرض في كل مكان، تقريبا، من بلاد الجبال هذه فهم يحصدون قمحا، وشعيرا، وذرة، وذرة بيضاء، وتبغا، وبساتينهم مغطاة بأشجار التين والعنب والرمان والمشمش وقد جربت بعض المحاولات لغرس القسطل. أما أشجار الزيتون فكثيرة، وكذلك محصولها وافر، غير أنها في بعض الأحيان تصاب بمرض خاص بها، بعد فصول الشتاء القليلة القساوة، من جراء ظهور يسروع (دودة) شعر، يتلف الأشجار، ويجردها من أوراقها في بضعة أيام. ويدعي الأهالي أن ضبابا يأتي من البحر يطرح على أشجارهـم نوعا من الغبار الأسود، يوجـد اليسروع.

ومن الثروات المعدنية التي تشتمل عليها الناحية الحديد والنحاس والرصاص المحتوي على الفضة، كما يوجد أيضا طين الصلصال وملح البارود والخشب المتفحم والكلس المائي والكلس الدهني. أما المياه فهي صالحة للشرب، وصحية جدا.

لقد سبق أن قلنا في مكان آخر، إنه توجد أرصفة مرجان غنية جدا في ضواحي زيامة، وبالقرب من بوقرعون.

ويذهب حوالي ثلثي سكان الجبال بعد فصل البذر أي نحو شهر أفريل للعمل في الحصاد في نواحي قسنطينة وقالمة وسطيف، وحتى إلى أبعد نحو الجنوب، أو للعمل في المدن، ويرجعون حوالي نهاية جويلية أو بداية أوت حاملين أجرة عملهم عينا أو نقدا، وحينئذ يقومون بحصاد زرعهم الخاص. غير أنه لوحظ في بعض القبائل، لاسيما تلك المجاورة لجيجل، مثل بني عمران وبني أحمد، وأولاد بلعفو، ميل إلى الهجرة النهائية خصوصا تجاه تونس. وقد كرست العادة أو التقليد عرفا جرى العمل به، وهو أن هؤلاء المهاجرين القبائل كانوا لا يحتفظون بالأراضي أو البساتين التي يملكونها في الجبال، إلا بشرط العودة وأخذ السلاح مع إخوتهم عندما يعلن الجهاد ضد العدو المشترك أو عندما يكون البلد مهددا بغزو أو بحرب. وقد كان المرابطون الخائفون على ضياع امتيازاتهم، يغذون هذه الروح التمردية.

وتستعمل قبائل جيجلي التي هي عادة فقيرة، ومحصولها من القمح غير معتبر نسبيا، دقيق الذرة، والذرة البيضاء ويخلطونه مع دقيق مع القمح أو الشعير. وهكذا يحصلون على كسرة (رغيف) مغذية، وليست مقززة الطعم يأكلونها، يأكلونها بنقعها في حليب المعزة. وتزودهم أوراق الذرة، والذرة البيضاء في نفس الوقت، بعلف جيد للبقر، وثيران الحرث.

إن الحالة المادية لهؤلاء السكان تتحسن أكثر من يوم لآخر، منذ دخلت الصناعة الأوروبية بينهم، فقد أوجدت لهم عنصرا جديدا للعمل فما إن بدأ يعرف وجود وتعمير مرتفعات بلوط الفلين، حتى أدركت الصناعة ما يمكن أن تستغله. فقد

تقدم خواص وشركات لتنظيم استغلالات منتظمة، وقد اتخذت الحكومة لاستقبالهم مبادرة تغري بالتأثير الناجح الذي تمارسه هذه الشركات على الثروة الوطنية، وعلى مستقبل الجزائر وعلى رفاهة وتحضير الأهالي. وقد أكد الزمن تدريجيا جزءا من هذه الآمال.

وقد كانت الغابات قبل الفتح ملكا عاما للقبائل. وكان كل تجمع يستغلها استغلالا مشتركا فوق أرضه، فيستمد منها في نفس الوقت الخشب اللازم لاستهلاكه، ويتخذها مراعي لقطعانه، ويقوم بالفلاحة في المروج أو بين الأشجار، المتناوبة مع النباتات الطبيعية.

وكان للقبائل العادة البربرية التقليدية أن يحرقوا غاباتهم في فترات متكررة، ولتجديد المراعي (الكسير)، [1] ولقلع الأشجار اليابسة. ولتحسين وتخصيب أراضي الفلاحة، وأحيانا أيضا لإبعاد الوحش الذي كان يهاجم القطعان. إن هذا الأسلوب البدائي كان مستعملا في كل العصور عند الشعب العربي، وفي البلدان الإسلامية. وكان الحريق يمتد مع ريح السموم بسرعة عظيمة، ملتهما كل شيء في طريقه. ألم يتأمل المسافرون كم من مرة من على سطح السفينة المبحرة على طول الساحل، أثناء الليل، هذا اللهيب الهائل للجبل الذي يشبه ضوء العمالقة. إنه بفضل القوة الحيوية للنباتات الجزائرية، فإن الغابات لم تخرب منذ أمد طويل، وإنها ترمم ذاتيا الضرر الذي لحق بها من جراء الحرائق المنظمة. والمعروف من جهة أخرى أن أشجار الفلين التي مازالت لم تجرد من قشرتها، أي أنها لم تتعرض لعملية التقشير، وهي أقل تعرضا للإصابة بالنيران، فهي عادة تكون محمية بغلاف سميك، من طبيعته قابل للالتهاب قليلا.

[1] - الكسير يشتمل على نوع من الفلاحة يمارسها القبائل في فروج من الغابات التي يجردون قبل كل شيء أغصان أشجارها، التي يحرقونها مع العيص (العليق) على الأرض نفسها، التي تكون فيما بعد موضع زراعة سنوية، ثم تترك ثلاث سنوات، ثم يعاد الإصلاح الجزئي والترميد، والفلاحة في السنة الرابعة وكانت أوراق العيص اللينة الجديدة، تستعمل في الوقت نفسه لعلف المواشي (بحث في حرق الغابات).

وكان لابد من اتخاذ اجراءات زجرية صارمة منذ البداية لمنع تخريب جديد. لكن اليوم، فالقبائل هم أنفسهم العمـال الأكثر نشاطا، والأكثر تيقظا وحراسة لورشـات الاستغلال الأوروبية، وهم يعرفون كل الفوائد الموجودة بالنسبة إليهم، في الحفاظ وفي تحسين الغابات تدريجيا، مصدر الثروة الذي يمنحهم عملا منتظما، ومرتبا مضمونا، من غير الابتعاد كثيرا عن عائلاتهم.

وسوف لن أكرر هنا الكلام عن استغلال غابات أشجار الزان لبني فوغال التي جعلها الأتراك لفائدتهم لسد حاجات البحرية الجزائرية، وسيجد القارئ عن هـذا الموضوع تفاصيل دقيقة جدا في تاريخ بجاية الذي أصدرته العام الماضي.

وتقام أسواق أسبوعية عدة بأعراش المنطقة، أهمها:

يوم الاثنين بتاكسنه، لدى بني عمران.

يوم الخميس بالشقفة، لدى بني أيدر (أقدر).

يوم الجمعة بسيدي خليفة، بالقرب من زيامة.

يوم السبت بسلمى، لدى بني فوغال.

يوم الأحد بجيملة، لدى بني عافر.

ويباع في هذه الأسواق المرتادة كثيرا البقر والخرفان والماعز واللحم بالتجزئة والصابون والشمع والصوف والزيت والقمح والشعير والذرة (بشنه) والفول والبصل والتين المجفف والعناب والتمر والخروب والحصر الصغيرة وخشب المحراث. وهناك تجار متجولون يبيعون أقمشة قطنية بالتجزئة والتوابل، وطرف ذات الصنع الأوروبي، ويجلب إلى هناك كذلك بغال، وحمير وجنس صغير من عنز الجبل شبيه بذلك الذي بكورسيكا.

وسأنهي هذا العرض عن وضعية منطقة جيجل مضيفا بعض المعلومات عن سير العائلات الهامة للأعراش (القبائل) التي لعبت في فترة ما دورا سياسيا في البلد.

بني أيدر (أقدر) ـ هي عائلة تشتهر بالدور الذي لعبته قبل وحتى بعد فتحنا، سكنت منذ مدة طويلة البلد الذي كانت تشرف على جزء كبير منه، إنها عائلة مولى الشقفة، من وسط ديني، يحمل كل أعضائها لقب الشريف أي ينحدرون من سلالة النبي. إن هذا الأصل ككل ما يتصل بالزاوية الدينية، خرافي، وهكذا تنقل الرواية، أن الأول من آل مولى الشقفة - سيدي محمد العابد - طالب مسجد سيدي إدريس الكبير الآتي من المغرب حوالي القرن السادس عشر أبحر على سجادة تنقاد لإرادته، جنحت به في مصب الوادي الكبير. وقد أطلق القبائل (الأعراش) التي شاهدت مجيء هذا المجهول على المركب العجيب اسم مولى الشقفة (صاحب المركب)، وقد أقام المرابط بأولاد شبيل، وهو فرع صغير من بني حبيبي، حيث مازال ضريحه موجودا بمسجد كان مؤسسا له. خلف ثلاثة أبناء ذكورا لم تحتفظ الرواية بأسمائهم. إن النسب الحقيقي يبتدئ بسيدي عبد الله، الذي أقام بأولاد عمرو، وهم فرع من بني أيدر، حيث بنى بدوره جامعا مازالت ترى آثاره وبالقرب منه أنشأ سوقا.

وقد قطع سيدي عبد الله (الذي عرف حسب وقائع أن الأسبان (حملة دوريللي) قد نزلوا بالجزائر) البحر جافا يمشي على الأقدام كأنه موسى الثاني، وساهم بقوة في طرد الكفار [1]، وفي الليلة التي سبقت نكبة الأسبان، شوهد في الصف الأول للفرسان فارس مقاتل كان يضرب بعنف مناديا: "تشجعوا أيها المسلمون. اتبعوني أنا عبد الله مولى الشقفة، وأقودكم إلى النصر". وفي الأيام التالية عندما لم تبق إلا جثث المسيحيين على الشاطئ، بحث باشا الجزائر عن أولئك المقاتلين المسلمين الذين كانوا متميزين أكثر أثناء المعركة لمكافأتهم. فأخبر عن مولى الشقفة، غير أنه كان من المستحيل العثور عليه، لأن المرابط كان قد رجع إلى بلده بتواضع بعد الانتصار، لكن قبائل بني أيدر والحاضرين بالجزائر أخبروا بانسحاب مرابطهم

[1] - رواة الأسطورة ليسوا متفقين، البعض يقول إنه استخدم حصيرته بأعجوبة للتنقل سريعا إلى الجزائر، والبعض الآخر يؤكد أنه بمساعدة عصا يلمس البحر فينفلق أمامه ليترك له الممر.

الموقر، وقد غمره الباشا الذي عرف بالجميل شرفا وامتيازات تؤكده عدة إجازات (وثائق).

لقد جمع سيدي مبارك بن عبد الله لقبه الديني بالوظيفة السياسية، ونال ولاية منتظمة، بحيث إن النفوذ المخول ضمنا لهذه الأسرة أدى إلى الحصول على وقف جديد. ومع أن الهيمنة التركية لم يشعر بها في بلاد القبائل، فإن سيدي مبارك كان يشرف على بني أيدر، ويفرض ضريبة، وكان يتخذ حكما باستمرار من قبل الأعراش (القبائل) خطرا في اختلافاتهم المتكررة. وكان يتلقى بصفته شيخا لزاوية الشقفة، وهو اللقب الذي أحرزه منذ إقامته هدايا، وتبرعات كثيرة، تحتوي أساسا على الحبوب والأنعام والزيت. ومن أجل أن يربحه إخوان الطريقة الدينية لسيدي عبد الرحمان، المقيمين لدى أهل آراس، والذين كانوا قد تعرضوا للمضايقات من ابن عز الدين، شيخ الزواغة، فإنهم قدموا له هدايا كثيرة. ومع أن سيدي مبارك قد تعهد بحمايتهم، فإنه تجنب التخلي عن جيرانه الأقوياء، بني عز الدين. فقد كان أعطى شيخهم برنوسا من نسج يديه، يحفظ من يرتديه، من كل حادثة مغضبة. وفجأة قد نال الأمان عز الدين الذي كان مغضوبا عليه آنذاك من باي قسنطينة الذي طلب رأسه مقابل مكافأة. وقد عزا الصفح عنه إلى ما سمي بفضيلة البرنوس ومنذ ذلك الحين أصبح يقدم كل عام بقرة وحبوبا للمرابط.

لقد أدى سيدي مبارك فريضة الحج إلى مكة، لكنه لم ير بلده مرة أخرى، فقد مرض في الإسكندرية حيث توفي هناك. وترك عدة أطفال منهم أكبرهم محمد خلفه في قيادة بني أيدر، وكشيخ لزاوية الشقفة. وقد كان أهل البلد يكنون له احتراما عظيما، ويصفونه بما يلي:

"رجل متواضع، من غير بذخ ولا غنى، موهوب بعدة مزايا، ويتمتع بملكة الفراسة، التي كانت تجعله يكشف عن المطالب قبل أن يسمعها".

وقد لعب ابنه سيدي أحمد الشريف، كشيخ طريقة دينية، وقائد عسكري دورا سياسيا وعسكريا هاما جدا في تاريخ البلد. منح الحماية إلى الباي يونس لتونس، وحسب نصائح هذا فقد فرض غرامة على كل الأعراش (القبائل) الخارجة عن سلطته الدينية باستثناء بني أيدر التي كان دعمها له ضروريا. وبسبب ذلك كانت المعارك الدامية التي اشتعلت بين هؤلاء الأخيرين وجيرانهم، أولاد بلعفو، وبني سيار، وبني معمر، وبني صالح، والاجناح، وأولاد عسكر.

لقد اتخذت زاوية الشقفة ملجأ لكثير من الأشخاص الأغنياء، وذوي القوة والجاه، من بينهم شاكر، بن باي قسنطينة، وبهذا الاسم نجح في الالتحاق بتونس، _ وللحاج أحمد، آخر بايات قسنطينة في عهد كان لا يزال إلا خليفة، _ ولابن زكري، والقايد سليمان، اللذين طردا فيما بعد من بلدهما من جراء اضطهادات أحمد باي هذا نفسه. وقد أصبح هذا سيدا مطلقا لقسنطينة بعد سقوط الجزائر متذكرا حسن الضيافة الكريمة التي استقبل بها في شبابه بالشقفة، ومنح مرابطيه عزل السمارة والزواغة.

وكان سي أحمد الشريف مولى الشقفة، رجلا ذا قدرة، منها التأثير الديني المعتبر في البلد، ويمكن أن يكون مفيدا لمشاريعنا المستقبلية. فانعقدت بيننا وبينه إذن صلات بسرعة كافية، ومع أن لقبه الشريف فرض عليه نوعا من الابتعاد بالنسبة للمسيحيين فإن فطنته كانت لا تسمح له بأن يشك في أن السلطة التي كان يتمتع بها، ستسقط يوما أمام سلطتنا.

وكان أخوه البكر، سي لخضر مولى الشقفة الذي حاك مؤامرة ضدنا، قد أوقف في عزله لزاوية السمارة، سنة 1843، وسيق إلى قسنطينة، ثم حكم عليه بالنفي إلى فرنسا. وفي سنة 1845 كتب سي أحمد، شيخ الأسرة إلى جيجلي، مقدما شروطا للخضوع للقائد الأعلى، غير أنه يضمنها شرط حرية أخيه، وضمانا لتعهده فإنه قد وضع مبلغ 1000 فرنك يعتبر الدفعة الأولى من الضريبة في حالة سراح أخيه. لقد أطلق سراح لخضر، لكنه سقط مريضا في الطريق، ومات في مستشفى الجزائر. لقد

أعاقت لبعض الوقت هذه الحالة السيئة علاقاتنا مع هذا المرابط غير أن سي الحسين أحد أبنائه قد عين قائدا بعد الاحتلال، لكن عجزه عرف سريعا، وكان لابد من سحب القيادة منه. وأصبح فوق ذلك غير أهل بسبب محاولة اغتيال موجهة ضد القائد الأعلى للمنطقة، وسنروي هذا الحدث فيما بعد.

وابتداء من هذا التاريخ، فقد أبعدت عائلة مولى الشقفة من البلد، وأوكلت قيادة بني أيدر إلى سي أحمد بلحاج بن عز الدين.

بنو عافر، _ وهذه هي السيرة المحفوظة من قبل أهل البلد، أصل جد بني عافر الذي يسمى يخلف بن حسن من المغرب كان يسكن ضواحي الجزائر، وجاء يستقر في القبائل حوالي العهود الأولى لهيمنة الأتراك، أي في القرن السادس عشر. لقد توقفت فرقة جنود تركية متنقلة بضواحي الجزائر بمنزل يخلف. وفي الحال اشتغل بإعداد الضيافة لهم، تبعا للأوامر المتلقاة. وقد حمل الجوع ابن يخلف أن يطلب بعضا من القوت من أمه التي لم يكن شيء بيدها، فقطعت فخذ إحدى الدجاجات المخصصة للأتراك، لإشباع شهية ابنها. ولما قدمت الضيافة إلى الجنود، لاحظ هؤلاء نقص هذه الفخذ، فتساءلوا عن سبب اختفائها وأرادوا أن يعرفوا من كان قد أكلها.

"فأجابت الأم: إنه الأكثر قوة"

احتجز الأتراك الذين غضبوا من هذه الإجابة، والذين أرادوا أن يبرهنوا أنهم وحدهم الأقوياء في البلد، الطفل وقطعوا فخذه.

كظم يخلف غيظه، وانتظر بعد أن كان الأتراك قد ناموا، ورقدوا حينئذ ذبحهم كلهم بمساعدة إخوته الثلاثة، وخوفا من أن يكون متابعا على هذه الجريمة ترك البلد حالا، واتجه مباشرة إلى القبة حيث توقفت بغلته المنهكة، ممتنعة عن السير أكثر... كذا كان أصل استقراره في هذا البلد.

وتنسب قصة خرافية أخرى إلى العهد، حيث جاء الإسبان لمهاجمة الجزائر سنة 1775، وكالعادة فإن غموضا كبيرا يسود في هذا النوع من الخرافات، ويعزى

دائما الدور الأساسي إلى أحد المرابطين. وكان البطل هنا يدعى سيدي سعادة، وكان يتمتع بشهرة كبيرة بأنه ولي صالح. كانت تربطه صداقة بشيخ يسمى سيدي عبد العزيز. وذات يوم ترجاه أن يعيره حصانه. فأجابه الشيخ: لو طلب منه ابنه لقتله، لأرسله له حالا، لكن أن يعير حصانه فقد كان شيئا مستحيلا. ورغم هذا الرفض، فإن سيدي سعادة ذهب ليلا إلى باب الشيخ، وفتحه بمحض إرادته، وأخذ الحصان وامتطاه، ليلتحق بسيدي مبارك مولى الشقفة. وقد انطلق كل من المرابطين بالقوة الربانية التي وهباها مسرعين في البحر لمحاربة الإسبان الذين نزلوا في الحراش بالقرب من الجزائر. ولم يكن هذا الطريق ينطوي على أية صعوبة بالنسبة إليهما، لأن الخرافة تعلل بأنهما كانا يملكان عصا ينشق البحر بلمسة منها ليترك ممرا خاليا.

وعند وصولهما إلى الجزائر حاربا الأسبان وبعد الانتصار عليهم ورميهم في البحر رجعا في نفس الليلة، ومن نفس الطريق، الواحد إلى الشقفة والآخر إلى بني عافر. وقد أدخل الحصان إلى الإصطبل بالطريقة التي أخرج بها، ولم يكن الشيخ عبد العزيز ليشك في غياب الحصان لو لا الطلقة النارية التي أصابته في رقبته، أثناء النشاط فأرسل عبد العزيز المرتبك ابنه حالا لتقديم هدية من الفضة إلى المرابط. والاعتذار له عن الرفض الذي بدر منه العشية.

وبعد أن قدم سيدي سعادة عتابا إلى ابن عبد العزيز نزع من الحصان الرصاصة التي كانت برقبته، وأرسله إلى صاحبه داعيا إياه أن يكون في المستقبل أكثر لباقة، تجاهه، واعترافا من باشا الجزائر بالنجدة التي قدمها له سيدي سعادة، فقد أرسل إليه طابعا وقفطانا مطرزا، ومارس القيادة مدة في البلد.

الجناح، (الجنح والجنحي)، تنقل الرواية أن جد الأجناح الذي يعتبر اسم عائلته مجهولا اليوم، لقب أبا الجناح (الرجل ذو الجناح) لأن امرأته نسجت له برنوسا كان أحد جانبيه قصيرا جدا عند ارتدائه وكان لابد من إضافة قطعة (جنح).

يقول سكان البلد إن أصل هذا الجد من المغرب، كان متزوجا بسعلاة (غولة)، وعند الوضع، قالت له أن يجهز سبعة أقمصة وسبعة قلانس. وما إن أحضر هذه الأشياء، حتى أمرته بالخروج من الدار، والانتظار إلى أن تناديه. وقد وضعت إلى الحياة سبعة أطفال، شرعوا يمشون في القربي، منذ أن ولدوا، وكانت تعدهم تدريجيا لمجيئهم إلى الحياة.

ولم يتحرج الزوج الذي كان مدفوعا بالرغبة في الاطلاع في أن ينظر داخل المنزل. فاكتشفت منه زوجته ذلك، وعاتبته عتابا شديدا وعنيفا، وانتهت بالابتعاد عن بيت الزوجية، آخذة معها أربعة من أبنائها. وقبل أن تذهب صبت عليه اللعنة، قائلة له إن أولاده سيكونون باستمرار في حرب بينهم، وإن يوم عيد الكباش فقط سيراهم متفقين مجتمعين وكان من نتائج لعنتها، تغذية العداوة باستمرار بين الاجناح، وجيرانهم الذين كان أبناء الغولة الأربعة أجدادا لهم.

بنو عمران: تنقسم هذه القبيلة إلى الجبالة والسفلية، أي القسم الساكن الجهة الجبلية، والقسم الذي يقيم ناحية السهول، وتنقل الرواية أنه حوالي القرن السادس عشر جاء رجل مغربي باسم عمران، استقر في هذا البلد الذي أعطاه اسمه، وجمع حوله جماعة من المغامرين الذين قاوم بمساعدتهم أكثر ضد القبائل المجاورة ليوطد أقدامه، ويحتل مكانه.

ومنذ ما يقرب من مائة وخمسين سنة، كانت أسرة ابن منيع التي تحكم البلد حاليا، تسكن بأولاد عسكر، وكان شيخها المسمى عمار أو جبير، يتمتع بسلطة قوية. وكان على رأس السلطة التي كان قد اكتسبها بشجاعة وقوة، والتي طغى فيها، ولكنها جعلته مهاب الجانب من الجميع، طاغية جديدا من طغاة القرون الوسطى، كانت له كل التصرفات، كان هذا اللص الجريء ذا قوة هرقلية يغرز عكازه الحديدي، في خنقة مرتادة كان لابد من المرور عليها للانتقال من نقطة إلى أخرى. وإذن فالويل لمن كان يرفض الضريبة التعسفية التي كان يحددها جبير لمرور الأشخاص

والمواشي. وكانت هذه الطريقة في التصرف تجلب له فوائد كثيرة من غير شك، ولكنها لم تكن خالية من بعض الأخطار.

وقد كان الناس الذين يسلبهم (يعتصرهم) بقساوة، يشتكون من جهتهم من شيخهم، ولولا الخوف الذي كان يوحي به إليهم لكان من المؤكد أنهم قتلوه. وكان ينجم عن كل هذا أن جبيرا الذي كان يعرف تصرفاتهم تجاهه، كان يحتاط بالحذر الأكثر دقة، لضمان وجوده (حياته) وكان لا يقوم بحلق رأسه إلا من قبل حفيده رابح الذي كان يثق فيه.

وقد حاول أعداؤه الذين لا يعرفون كثيرا كيف يتخلصون منه، إغراء حفيده مقنعين إياه، أنه لو يقطع رأس عمه فإنهم سيعترفون به شيخا لهم، لقد ترك الرجل الشاب نفسه تنخدع بهذه الأماني الجميلة وذات يوم عندما كان يحلق لعمه قطع رقبته. وقد بقي الذين دفعوه إلى هذه الجريمة بعيدين عن أن يعترفوا به شيخا لهم، ولاحقوه بسخريتهم.

وبعد أن صبر رابح لبعض الوقت عزم على الانتقام من الذين أوحوا له بفكرة الجريمة، ولم يوفوا بوعدهم. وها هي الوسيلة التي استعملها: لقد دعاهم إلى وليمة، وجمعهم كلهم عنده، وكان أولا وقبل كل شيء قد هيأ أكواما من البارود في جهات من الدار، وجعلها متصلة فيما بينها. لقد مر النهار، واستمر الحفل إلى الليل. وما إن رأى رابح أن الجميع مستعدون للنوم، حتى خرج مدعيا الالتحاق بزوجته، أغلق الباب، وذهب مسرعا جدا على بغل معد سلفا مع زوجته، وأشيائه النفيسة. وكان قد ترك وصيفا خادمه، مجهزا بالفتيل الذي يجب أن يضرم به النار في مكان معين. لقد أطاع الوصيف، وبنسفة واحدة كان أعداء رابح مطويين. ثم ذهب ليقيم في بني عمران حيث توفي تاركا أربعة أبناء، هم: منيع والحداد وتليس، وناصر، وقد تحالف الثلاثة الأخيرون ضد الابن البكر منيع الذي توجب عليه أن يفر إلى عند بني مساعد، حيث وجد حسن الوفادة.

وأثناء إقامته في هذا البلد، هجم أهل آراس على بني مساعد الذين أخذوا منهم قطعانهم. ولم تنج إلا بعض العجول فقط من السلب، كانت تجري هنا وهناك، مما أثار ضحك منيع. وقد أغاظ هذا الضحك الذي لا يعتبر في محله بني ساعد، وطلبوا منه لماذا كان يضحك من مصيبتهم.

"فأجاب منيع لمشاهدة يتامى قطيعكم لأنكم لم تكونوا شجعانا في هذا الظرف. إن أردتم استرجاع الشجاعة، سأقودكم إلى عدوكم وأجعلكم تستعيدون ما ضيعتم اليوم".

كان هذا الاقتراح مقبولا. فقد كانت في الغد سطوة ناجحة بقيادة منيع، أخذت من ناس آراس ليس غنيمة الأمس فحسب، ولكن كل قطعانهم أيضا. فأعطى بنو مساعد الذين كانوا قد اعترفوا بأن يعطوا لمنيع نصف الغزوة (الغنيمة) وقادوه إلى البلد الذي كان قد أرغم على مغادرته، واستقر بتاكسنه، حيث آزروه ضد إخوته الثلاثة. وقد أحدثت هذه المغامرة دويا في البلد، وأكسبت منيعا شهرة واسعة، وقد جاءت عدة قبائل (أعراش) تسلم له أمرها، التي حافظت عليها أسرتهم.

وحين خضوع البلد لفرنسا، كان بوجمعة بن منيع ما يزال يتمتع بالسلطة التي أقيمت من قبل أجداده. وكان ذا ثقة، بحيث كان أحيانا يسوي القضايا الأكثر أهمية من غير حضور الجماعة. وكان يحكم كثيرا في النزاع الذي كان يقع بين قبيلة وأخرى، وكان حكمه محترما دائما، لأنه بعد أن يكون قد أصدر حكما، كان يسهر على تنفيذه، ويستعمل عند الضرورة قوة السلاح، لإجبار الذين كانوا يريدون أن يتملصوا من التقيد بالتزاماتهم. ولا يزال أولاد بوجمعة قيادا في خدمة فرنسا. وقد برهنوا لنا حتى الآن على وفائهم.

بنوفوغال: لقد كان السكان الأوائل لهذه العشيرة يسمون بني كردوس (قردوز)، الذين خلفوا العديد من أعقابهم في البلد وقد جاءت أسرة فوغالة التي أصلها من طولقة من الصحراء، واستقرت في البلد منذ فترة ترجع إلى عدة قرون. وقد

خلف محمد القليل شيخ القبيلة سبعة أبناء، هم: خالد، وحراث، وعطية، ووارث، وقاسم، وعمار، وعلي، الذين أصبحوا هم أرومة لعدد من الأعراش أو فروع البقعة.

إن الأسرة الأكثر أهمية في العشيرة هي عائلة ابن حبيلص بن عواض (عواز) التي كانت مكلفة بمراقبة استغلال القريطة أو خشب البناء للبحرية الجزائرية إبان السيطرة التركية. لقد سبق لنا أن تحدثنا عن هذه العائلة في تاريخنا لبجاية. ويوجد حاليا أحد أعضائها قائدا على بابور، والآخر على بني فوغال أنفسهم.

بنو أحمد (سيرة): أصل بني أحمد هو المرابط موسى، ولد بالبلاد العربية، في العهد الذي كان فيه العرب في أوج مجدهم وعظمتهم، وترك بلاد أجداده، وهو شاب، واتجه إلى شمال إفريقيا، واستقر في بلاط سلطان المغرب.

وبعد هذه الإقامة التي لا نعرف مدتها، غادر المرابط موسى بلاط المغرب وجاء يستقر في بني أيدر، ونتيجة لورعه وبأسه ونزاهته فقد أصبح هو الحكم في السلم والحرب. وكانت كل الخصومات ترجع إليه، كما أن أحكامه كانت لا ترد، وكان أول من يدعى في كل الأعياد والاحتفالات، وأول من يذوق من أطباق الطعام. وذات يوم كان قد انحط مقامه، وانتقض هذا العرف. فامتطى صهوة فرسه المفضلة، وغادر البلد وهو مدعوك من هذا السلوك الشاذ.

وعند وصوله إلى المكان حيث بني الآن جامع المرابط موسى (الضفة الشمالية لوادي أم النشا)، توقفت الفرس وقالت لصاحبها: "ترجل، هنا سيكون لديك طفل وطفلة، أما الطفل فتسميه فرج، وأما الطفلة فتسميها فريجة، سيحفظك الله، وستكون شيخ هذا البلد". وكانت البقعة التي سيحتلها المرابط موسى وذريته شاغرة منذ أول مالك لها، المسمى أحمد الذي كان قد مات ولم يخلف. ولتخليد ذكرى هذا المالك الأول فإن البلد سمي باسم بني أحمد. وقد أقام المرابط موسى نهائيا فيها مع زوجته وخدمه الذين أخذهم معه. وقد كان له ابنان، كما تكهنت له الفرس: فرج

وفريجة وقد استمرت ذريته في الهيمنة (السيطرة)، وقد تفرق عدد من أعضائها في البلد.

بنو قايد: بحكم قربهم من المدينة، فقد كانوا هم الأوائل الذين خضعوا لسيطرتنا. وكانوا باستمرار في حرب مع جيرانهم، قبل الاحتلال وكانوا يعرفون دائما كيف يحافظون على إقليمهم وكانوا لا يتوفرون على أقل من 250 بندقية.

وحسب رواية محلية، فإن جدهم قد يكون المسمى موسى، من جبل بابور، الذي اتخذ المنحدرون منه، فيما بعد اسم بني قايم، أي أبناء القوي، القادر، المرعب، وأخيرا تحول بالتحريف من غير شك إلى بني قايد. و يتحدث سكان هذه العشيرة العربية، غير أن أخلاقهم وعاداتهم لا تختلف في شيء عن أخلاق البربر، بالمعنى الحقيقي للكلمة. فالأشخاص من القد المتوسط، أو بالأحرى الطوال أكثر من القصار، ذوو طبع جاف وعصبيون. وتوجد بينهم الوجوه الشقراء، والعيون الزرقاء، والملامح التي تخص رجل الشمال.

تبابورت: إن الأسرة الأكثر تأثيرا ونفوذا في البقعة الجبلية لتابابورت دينية، وتسمى بوعراور، من جدهم بوعراور الذي جاء من فاس، تقول الرواية إنه هاجر منذ حوالي 500 سنة واستقر في ذراع القايد من الساحل القبلي، حيث مارس بصفته مرابطا تأثيرا كبيرا مدة 80 سنة. ولا يزال ضريحه موجودا في مقبرة سيدي بوعرورة، في منطقة سطيف وقد خلف ولدين، الأول سي أحمد، استقر في البابور، حيث أسس الزاوية الهامة التي تسمى شاو سيدي أحمد، وقد مات سنة 974 من السنة الهجرية. هو أحد المنحدرين منه المسمى سي أحمد بن عمر بن سي أحمد، الذي هو قايد حاليا في تبابورت. ومنذ مدة طويلة وهذه الأسرة على رأس إخوان الطريقة الدينية لسيدي عبد الرحمان، الذين يسكنون هذه الجبال. وسنشير أيضا إلى عدة عائلات هامة أخرى، ولاسيما أولاد أمقران القاطنين في عشيرة (قبيلة) بني سيار، لكننا سنرجئ الحديث عنهم إلى ما بعد، إلى فترة السيطرة التركية، وهو العصر الذي بلغت خلاله

أوج تأثيرها الـديني، وحيـث أدت دورا متعلقـا بالتـاريخ المحـلي: ويتــكون ســكان الناحية من:

15.392 رجلا

13.809 امرأة

18.711 طفلا

المجموع: 47.912

ويعد الكثير في هـذا الجزء مـن القبـائل الـشرقية مـن أتبـاع إخـوان الطريقـة الدينية لسيدي عبد الرحمان.

العصور البدائية

قرطجنة _ روما _ الوندال _ الإغريق

قد تكون إيجيلجيلي كغيرها من المدن الساحلية، مثل جاراتها صلداي (بجاية)، من أصل قرطجني، ولابد من أن تكون منذ أقدم العصور إحدى المحطات التجارية التي أسسها الفينيقيون. وتبقى شاهدة لنا على هذا الرأي قبور محفورة في الصخر، وهي أضرحة تشبه تماما تلك التي شوهدت قرب قرطجنة، وطرابلس البربرية، وفي سوريا كما يوجد منها أيضا في مواضع أخرى من الجزائر، بجاية، وتنس، وقسنطينة، وتيارت ([1]).

وتظهر هذه القبور التي بإيجيلجيلي في عدة مواضع مختلفة من ضواحيها، ولاسيما، على التل الذي يتواجد بخرجة المدينة القديمة يمينا، وعلى الكدية التي تحاذي البحر ابتداء من المدينة إلى حصن دوكان، وكل هذه الأضرحة هي فارغة اليوم ولا توجد حتى أقل أحجار التغطية بها، وفضلا عن أنها تنمحي كل يوم أكثر بفعل العوامل الخارجية التي يساعدها ضعف التماسك الكلسي الذي صنعت فيه.

ولابد من أن تكون جيجل في العهود القديمة إحدى هذه المراكز التجارية، والتحصينات التي أقام القرطجنيون قوتهم بها، على نحو متين لمواصلة الطريق إلى إسبانيا، وإلى سواحل المحيط الأطلنطي.

وما زالت بعض أطلال الهيمنة الرومانية باقية في الموقع الذي تحتله جيجلي، وترتبط أحداث هامة بهذه الحقبة. وتتراءى كذلك بقايا الطريق المؤدي إلى بجاية وإلى سطيف (صلداي وسيتيفوس) بمحاذاة ربوة القديس فرديناند عند أخذ طريق بني قايد، حقا إن هذه الآثار ليست كثيرة، ولا تمتد بعيدا، ولكن من المحتمل أنها تكون قد

---

[1] - وقد اكتشف منها كذلك منذ عهد قريب بقسنطينة أخرى في الصخور تحت المدرسة العربية. وكانت تحتوي على بعض الشظايا من عظام لموتى تحولت بفعل الهواء المجرد إلى غبار.

طمست تماما بسرعة كبيرة جدا برمال الشاطئ التي تثيرها رياح الشمال الغربية كل سنة بعيدا داخل اليابسة.

ويخبرنا التاريخ أن طريقين آخرين يؤديان إلى قسنطينة وإلى بونة (سيرتا وهيبون) كانا ينطلقان من إيجيلجيلي. وقد وجدت كذلك بقايا رصيف على الجزء الشرقي من المرسى الحالي، وقناة مائية، كانت تحاذي تقريبا اتجاه القناة الجديدة للمياه، وآثار محفوظة لحمامات، و منازل خاصة، وفسيفساء، لكن لا شيء من هذه الأنقاض يعطي المظهر العظيم الذي نعرفه في أماكن أخرى، مما يمكننا أن نستخلص أن هذه المدينة لم تكن لها إلا أهمية ثانوية، مع أن أوغيست قد رفعها إلى مصاف المستعمرة الرومانية، لأنها كانت السوق المركزية للعشائر الصغيرة المتناثرة داخل أراضي موريطانيا السطيفية.

ويشير السيد ليون روني (Leon Renier) في مصنفه "نقوش في الجزائر" إلى كتابة منقوشة على قطعة لفرقة عسكرية كانت من ضمن العدد القليل للآثار التي وجدت على سطح الأرض، والتي يقرأ عليها اسم المدينة العتيقة:

AB-IGILGIL

وقد وجد مؤخرا السيد بينو (Bugnot) قبطان الهندسة وهو يحفر أسس التحصين الجديد لجيلجيلي، أيضا بين قلعة القديس فرديناند، وبين ظهر بني قايد نصبا جديدا أكثر تماما في نقشها من السابق، والذي يجب أن يسجل ([1])

TERMINI' POSITI' INTER
IGILGILITANOS' IN
QVORVM FINIBVS KAS
TELLVM VICTORIAE
POSITV EST ET ZIMIZI

[1] - هذا الحجر المكتشف على 50، 1 تحت الأرض هو موضوع حاليا في مكتب الهندسة بجيجلي.

VISCLANT' ZIMIZES
NON' PLVS' IN' VSVM
SE' HARBER' EX' AVCTO
RITATEM' VETTE' LA
TRONS'. PROC' AVE
QVAIN' CIRCVITV
AMVRO' KAST'.P
D .PR LXXXIX. TOR
QVATO. ET LIBONE. COS

وقد ترجمها السيد ليون روني هكذا:

"حدود وضعت بين الجيلجيليتان (IGILGILITANI) ضمن النطاق الذي تقع فيه (Le Castellum Victoriae) والزميزيون (Zimizes) حتى يفهم الزميزيون أنه بقرار من ماركوس فيتوس لاترو والي الإمبراطور لا يحق لهم استعمال الضواحي (Castellum) على بعد أكثر من 500 خطوة، ابتداء من السور سنة المقاطعة 98 توركانوس، وليبو كونهما قنصلين".

ولا يزال لم يتمكن من تحديد الموقع (Castellum Victoriae) بصفة نهائية. ويرجح السيد بينو أنها بمرتفع القديس فرديناند حيث توجد بقايا آثار رومانية ومكان آخر أكثر بعدا، يسمى القصر، بارز بقمة تشرف على خنقة، كانت تمر الطريق القديمة من جيجلي إلى صلداي. ويفترض أن المحطة هوريا كذلك كانت توجد بالقرب من هناك بين جيجلي وزيامة.

إن إيجلجيلي كانت أولا وقبل كل شيء تحت السيطرة الرومانية على عهد كلود ضمن موريطانيا القيصرية، وقد جعلها التنظيم الجديد مقاطعة في عهد حكم ديوكوليتيان (Diocletien) فيما بعد، تنتقل إلى موريطانيا السطيفية.

وفي سنة 22 حرض نوميدي، اسمه تاكفاريناس، الموريس ضد السيطرة الرومانية. وقد دحر بالتتابع من قبل الولاة الرومان وقد عاود تكفاريناس المعركة بعد قليل من

الوقت وكانت هذه قبل كل شيء مجرد جولات، كانت سرعته فيها تنقذه من المطاردات. وسرعان ما نهب كل المزارع وجر وراءه غنائم طائلة، وانتهى بمحاصرة فرقة خيالة رومانية بالقرب من نهر باجيدا (Pagida) بين سيرتا وإيجيلجيلي وكان للمركز العسكري دكريوس كقائد، وهو جندي باسل، وزعيم عسكري محنك، اعتبر هذا الحصار عارا. وبعد أن نصح فرقته بأن تتقدم إلى المعركة في الأرض المكشوفة، يصففها أمام الخنادق، فاندحر من التصادم الأول. ويندفع دكريوس تحت وابل من السهام نحو الفارين فيوقفهم ويصرخ في حامل اللواء: "فضيع أن يولي جندي روماني الأدبار هاربا من عصابة لقطاع الطرق، والفارين"، لم يستسلم أمام العدو، وقاتل وهو مثخن بالجراح، وعينه مفقوءة إلى أن سقط ميتا مخذولا من أصحابه [1].

في حين أن تاكفارناس الذي كان قد زرع الإشاعة بأن القوة الرومانية التي أخذت من قبل أمم أخرى تنسحب قليلا، من إفريقيا وأن الإحاطة بما تبقى من الرومان ستكون سهلة، إن أراد كل من يفضلون الحرية على العبودية أن ينقضوا عليهم، زاد من قوته وعسكر أمام تيبيسيكتوس (Tubuscutus) [2].

أما الحاكم دو لابيلا (Dolabella) الذي كان قد جمع ما لديه من الجنود، فقد بدأ يتعقب المتمردين، وانتهى القتال مع تاكفارناس الذي خسر في معركة ضارية.

وفي سنة 371 على عهد الإمبراطور (Valentinien) قام فيرموس وهو شيخ قوي للقبائل الموريطانية بثورة مدفوعا بسورة من الغضب ضد الكونت رومانوس الذي كان قد حاول تغييبه في ذاكرة الإمبراطور، وجر إلى صفه عددا كبيرا من القبائل. وحسب بعض الكتب فإنه يعتقد حتى أن فيرموس قد ارتدى البرفير (نسيج

---

1 - ضمنيا.

2 - ضمنيا. فإن الثورات التي انفجرت في نفس هذه النواحي منذ هيمنتنا لم تكن لها منطلقات أخرى..

أرجواني كان يرتديه القدامى في روما)، وأعلن نفسه إمبراطورا، بعد ما كان قد استولى على المدينة الغنية القيصرية (شرشال) وأخضعها للسلب.

هذه البدايات الجريئة أزعجت فالانتيان إزعاجا شديدا، وأرسل لمعاقبة المغتصب أفضل قواده الكونت ثيودوس. فانطلق ثيودوس من غير ضجة من مدينـة أرليس، بأسطول صغير، وجاء ليرسو بإيجيلجيلي حيث وجد الكونت رومانوس. ولم يكن يخفي مصاعب هذه الحرب، ونراه في أميان، يفكر مليا في خطته الحربية. (كان يبذل جهده ونفسه مفعمة بالشكوك، في إيجاد أية وسيلة يمكنه بها من أن يتحرك على هذه الأرض التي أحرقته حرارة شمسها مع جند اعتادوا على صقيع الشمـال، كيـف ينجح في مباغتة عدو سريع الحركة، ومتعذر القبض عليه، أو بالأحرى أكثر تمرسا على أسلوب القتال المفاجئ منه على المنظم). وكانت العقبات تبدو لا تقهر. كان هذا في الناحية الأكثر وعورة، والأكثر انحدارا من إفريقيا، التي كانت توجد بها بؤرة العصيان والتمرد. إنها هذه الشبكة من الجبال الشديدة الانحدار. إنها هذه الجملة من المضايق، والمعابر، والقمم، والسيول التي تتقاطع وتتلاقى باستمرار على طول الساحل الجزائري، إنه هذا الصقع الذي لا يكاد يسكن، والذي اختاره فيرموس بمهارة ليستدرج إليه الرومان و يتخذه مسرحا للحرب.

ذهب ثيودوس إلى محطة (Panchariana) بالقرب من إيجيلجيلي ليستعرض هناك أفواج إفريقيا التي كان قد جمعها. وقد أثار حضوره وكلماته حماسة الجيوش كثـيرا. وبعد أن قام بعملية ضم الفيالق، وأفواج الأهالي ذهب إلى سطيف، ومن هناك إلى تيبيسيكتوس (Tubuscutus) تكلات (Ticlat) في منخفض وادي الساحل، حيث بـدأ عملياته ضد المتمردين [1]. إن الأحداث التي طرأت خـلال هذه الحملة، ولكونها

[1] – إن ترادف (تكلات Ticlat) ل(تيبيسيكوس Tubusuctus) هي حتما مثبتة بكتابة مكتشفة من قبل صديقنا السيد، قبطان الهندسة. هذه الكتابة المنقوشة تحدد لنا بدقة الرسم الحقيقي لاسم مدينة تيبيسيكتوس (Tubusuctus) التي كانت تكتب حتى الآن بطرق مختلفة من قبل المؤرخين الأغريق واللاتين. انظر مصنف جمعية الآثار لقسنطينة سنة 1869 ص 704.

وقعت بعيدا عن جيجلي، فإننا سوف لن نهتم بها هنا. وسنقتصر على القول إن فرموس المخذول والمغلوب على أمره، شنق نفسه لئلا يقع حيا في أيدي ثيودوس.

كانت مدينة إيجيلجيلي مقرا لإقامة أسقفية إنكليكانية، وفي سنة 471 ذهب الأسقف الكاثوليكي أربيكوس (Vrbicosus) من إيجيلجيلي إلى قرطاج لحضور المؤتمر الذي وقع فيه الاجتماع قصد إدانة وشجب بدعة بيلاج (Pelage) وبعض السليستيين (Celistins)

وفي سنة 428 جاءت حملة الوندال بقيادة جنسريق، لتقلب الأوضاع في الولايات الرومانية، وفي هذه الفترة لم يقع إلا حدث واحد فقط، يتعلق بمدرسة جيجلي، ألا وهو اجتماع المجمع الديني لقرطاج، من قبل الملك هنريك ابن وخليفة جنسريق. وحتى يجد هذا الأمير مبررا أكثر موافقة ليتخذ عقابا قاسيا ضد الكاثوليك جميعهم مع الأريوسيين (Les Ariens)في سنة 484 لقد حفظ لنا التاريخ اسم أسقف إيجيلجيلي الذي حضر هذا المجمع، وقد كان يدعى دوميتيانوس (Domitianus).

وتوجد الآن حلقة كبيرة مفقودة، منذ هذه الفترة الزمنية، إلى عهد غزو المسلمين لإفريقيا.

إن الأنقاض القديمة التي تصادفنا في أعراش منطقة جيجلي، مع أنها غير هامة من حيث المعالم التذكارية، فإنها ليست بقليلة، ومن أجل المحافظة على التسلسل التاريخي، سنذكر أولا أضرحة العهد القرطجني، المحفورة في الصخر بالقرب من جيجلي، ثم النقوش الليبية الموجودة في خناق فدولس، والتي نشرت منه المجلة الإفريقية في العام الماضي نسخة طبق الأصل. ويذكرنا اسم فدولس هذا طبعا بالكتابة اللاتينية التي تحدثنا عنها فيما سبق والتي من جملة ما قرأت منها الكلمات Rex Gentis Ucutamanorum ملك أمة الكتاميين الذين كانوا يسكنون هذه الناحية.

وبعيدا قليلا عن طوق جيجلي في عرش بني فتح، دائما وسط الجبال شاهدت وجود نصب تذكارية من الشكل السلتي، أي مشابهة لتلك التي بأوروبا الغربية. كانت هذه الدلمنات (Dolmens) بعدد ستة أو ثمانية، ولم يبق إلا واحد فقط منتصبا، هو الذي يسميه القبائل العروسة. وقد نسج خيال القبائل الخرافي حول هذه النصب أسطورة مشابهة تقريبا لأسطورة حمام المسخوطين، بالقرب من قالمة – أراد أخ أن يتزوج أخته، وعقابا له أو منعا لهذا الاقتران المحرم مسخ الله الزوجين المذنبين صخرا عند انتقالهما إلى بيت الزوجية – وكلا المجموعتين القائمتين التي تستعمل قوائم لمائدة الدلـمان (Dolmen)، تمثل حسبهم جسم وأرجل البغلة التي كانت تحمل العروسة. وقد تكون المائدة هي العروسة نفسها، وأخيرا، البلاطة (المهدة) التي تسد على النصب من الجانب الغربي، قد تكون هي الرجل. وعدة مجموعات أخرى لا شكل لها تنتشر بأرض الضواحي، إنهم هنالك الأقرباء، والأصدقاء المدعوون إلى العرس. ويظهر كذلك القاضي الذي قد يشرف على عقد الزواج في عداد الآثمين الممسوخين، ويلاحظ بفضفضته، وبنوع من البراءة التي لم تكن لرفاقه في النكبة.

وقد وجد السيد، كابديبون (Capdepont) مؤخرا أربعة أخرى من الدلمنات (Dolmens) في رأس فج الزرزور (Cavallo) بالقرب من منجم حديد، في طريق الاستغلال. ويشاهد منها أيضا في قمة جبل آريس، على هضبة واسعة جدا، تشرف على الضواحي، توجد عدة منابع جميلة تمد مجموعة من البحيرات الصغيرة بالمياه، وعلى مقربة منها الدلمنات (Dolmens) بسورها الدائر. وقد تمكنت من أن أتحقق هناك، كما هو في كل مكان حيث قمت بتنقيبات من أن النصب التذكارية المسماة بالشكل السلتي ليست إلا أضرحة لكن إلى حد الآن، لاشيء يمكن أن يحدد لنا بصفة نهائية وقطعية حقبة بنائها والجنس الذي تعزى إليه، ونحن مازلنا عند الافتراضات ونتساءل إن كانت شواهد أضرحة، تركت من قبل موجة من السكان تكون قد عبرت إفريقيا في حقبة سحيقة جدا، أو صدرت عن الجنود الغاليين الخادمين في الجيوش الرومانية أو إن لم تكن أخيرا بنيت من قبل الوندال أنفسهم.

وعلى أية حال فالفرضية الأولى هي التي تبدو مقبولة، بسبب أن هذه المقابر السلتية أو المغليثية كثيرة جدا، في تونس والجزائر وفي المغرب ومثلما هي في المنطقة الجبلية هي في السهول، وفي الصحراء، والتي لا يمكن أن تنسب إلا إلى أقوام معتبرة، سواء كانوا أهالي أصليين أو غزاة محتلين، كانت لهم إقامة طويلة بشمال افريقيا .([1])

وبالقرب من دلمنات (Dolmens) جبل آريس قربي يغطي بقايا مرابط، يأتي سكان القبيلة المجاورة في الزيارة للحج إليها. إنه هناك أيضا كان يجتمع القبائل في زمن العصيان والتمرد ليتنادوا بحمل السلاح ويؤدوا اليمين على التحالف ويخططوا لحربهم.

وفي غرب جيجلي، في نصف طريق هذه المدينة إلى بجاية يوجد في مصب مجرى مائي ضعيف رعن صغير عليه أنقاض مدينة شوبا (Choba Municipium) القديمة، التي يسميها القبائل في أيامنا زيامة.

وما يزال في هذا الموقع يشاهد جدار طويل من سور المحيط، من الحجارة المرصوفة، لا يقل ارتفاعه عن أربعة أمتار، محمي من مسافة إلى أخرى بأبراج مربعة، كان يحيط مدينة قد تكون مساحتها 16 هكتارا. ويبدو هذا السور عند مشاهدته من الخارج سطحا مستويا موحدا، ولكن بمعاينته من الداخل، أي من الجانب الذي يقابل الغرب، يعطي مظهرا من مجموعة أقواس من البناء الذي بين عضاءاتها كان قد ملئ بعد فوات الأوان ببناء ثان من الحجر الصغير، وقريبا من هذا السور يعثر على جملة أخرى من أسس البناءات القديمة الأجزاء، جدار متهدم، وجذوع أعمدة، وبعض الأحجار المأتمية التي امحت النقوش منها من جراء تأثير الزمن المعفي.

[1] - انظر مصنف الجمعية الأثرية لقسنطينة سنة 1863 و1864 والملخصات التي نشرت عن الأبحاث عن الدلمنات لرأس سيدي مرزوق وأماكن أخرى.

ويحمل نقش أحضر من زيامة الإشارة إلى ملحقة شوبا Choba) (Municipium، وقد وضع حاليا لدى القائد الأعلى لجيجلي.

وها هي الترجمة منه:

"في حكم الإمبراطور قيصر، لوسيوس سيبتيموس سيفيروس، الورع الملقب بيرتيناكس، أوغيست، بنيت حمامات المواطنين الأحرار لملحقة إيليوس - شوبا على النفقات العامة، وكانت كلمة الإهداء من قبل الدومفير (Duumvirs)ل. ابديوس، ابن ماركوس، من عشيرة كيرينا المكنى فيكتور وماركوس ايميليوس، ابن ...، من قبيلة أرنيان الملقب هونوراتوس، سنة المقاطعة.157".

إن حقول الآثار الرومانية التي بقي لنا أن نشير إليها هي ثانوية تماما، إلا أنه من اللائق الإشارة إليها جملة لتسهيل البحوث التي يمكن أن يشرع فيها مستقبلا...

وفي شرق جيجلي في المكان الذي يسمى من قبل الأهالي بالقنار، أنقاض بناء، وجدت في وسطها كتابة منقوشة، تحمل كلمة نيليار (NILIARE) خلدت إلى أيامنا هذه، تاركة اسمها وادي النيل للنهر الصغير الذي يجري قريبا. وبعيدا أكثر في قبيلة الأجناح، وعند مصب الوادي الكبير (الضفة الشمالية)، ما زالت تشاهد بقايا المدينة المحصنة تيكا (Tucca) ومداخل السور القديم للمركز العسكري: وتزحف رمال الشاطئ، ويمتد طمي النهر يوما فيوما لابتلاع هذه الآثار وغمرها.

وتوجد داخل الجبال آثار رومانية في:

عرش بني سيار: في الركبة، والقصر، والحمام، وعلى وهد بوثلجة.

عرش بني أيدر: بالشقفة، والحمارشة، والقصيبة.

عرش بني عافر: في الزيتونة والقليعة.

عرش بني عمران: في تاكسنة، والعين المارة، وتاملوكة، والشعابنة، وبوخالفة وقبة الرومية.

عرش بني فوغال: في فج العوانة، وسبت الصايمة، والجبلية.

عرش بني أحمد: في الأربعاء، وسيدي يونس، وبو ياسا.

عرش بني قايد: في القصر، وعين المرج، والحدادة، ومزغيطن، وبوالرمل، وعين علي، وعين الخيل.

بني محمد: أنقاض على الشاطئ مقابل جزيرة العافية.

بني ورز الدين: في خينة (Khina)وفج الجبسة.

قايدات تابابورت: تيزويت، وبوزاده.

كل هذه الأنقاض لم تكن إلا مراكز عسكرية مقامة بالقرب من الممرات والمسالك الضيقة الخطيرة، لضمان الأمن أو لاستعمالها محطات توقف واستراحة. كما نفعل نحن أنفسنا عند إنشائنا مواقف قوافلنا أو مساكن ومقرات قيادتنا.

إن الطرق الرومانية الذاهبة من إيجيلجيلي كانت تمر بالمحطات:

(Ad- Ficum) التي يفترض أن تكون هي الأنقاض الموجودة قريبا من منخفض وادي موسى في كاف وصاف.

(Ad-Bassilicam)، بالقصر،

(Satafi)، بالقرب من عين الكبيرة، وأخيرا سطيف.

إن طبيعة البلد كانت تشير حتما إلى رسم هذا الخط، من المحل الذي فتح منه الطريق من قبل الهندسة، بين سطيف وجيجلي، يكاد يمر تقريبا بالضبط من النقاط التي كنا قد ذكرناها.

وكانت عدة فروع لابد لها من أن تمر من جميلة (Cuiculum) و(Mons)و(Moptis) لقد كان الخط الذاهب من جيجلي إلى صلداي (بجاية) يكاد يحاذي ضفة البحر

باستمرار، مـرورا بشوباي (Choba Municipium)، وزيامة ومسيلبو هوريا، وأودريانـش، وسـيدي رحان (رهان). أما الخط الذاهب إلى سيرتا (قسنطينة) فكان يحاذي الشاطئ حتى تيكا(Tucca)، عنـد مصب الأمساغا (الرمـال) وكـان يخلف عن يسـارهـا الطريق المؤدي إلى القل(Chullu)، ثم في ارتقائه الضفة الشمالية للأمساغا، كان لابد لها من محاذاة الوادي طويلا إلى مستـوى مـركزنا بالميلية، حـيث توجـد محطة مازالت تشـاهـد منها الأنقاض (التي كانت تسمى المدينة) وكان يصل إلى ميلة ثم أخيرا سيرتا.

الغزو الإسلامي

كان على جيجلي أن تبقى كجارتها بجاية، بعيدة عن الأحداث التي كان البلد فيها سهلا على العرب، ومسرحا لها عند الغزوات الأولى للمسلمين. وكان السد العالي من الجبال التي تفصل هذه المدن من ناحية السهول، يحميها من أية محاولة للغزاة الذين لا يقاتلون إلا على الجواد. ومما يوضح احتمال هذا الرأي فإنه حين تمرد البرابرة الكبير الذي كان يتزعمه كسيلة، ثم بعده الكاهنة ملكة الأوراس، قدم الحكام الإغريق الذين كانوا لا يزالون أسيادا على أكثر جزء من الساحل دعمهم إلى الأهالي المدافعين عن بلدهم ضد الغزاة المسلمين. وبعد الانتصارات التي حققها موسى بن نصير، في بداية القرن الثامن، أولى الحكام العرب كل عنايتهم لعادات وخرافات واعتقادات السكان الذين كانوا على استعداد لئلا يهاجموا جيرانهم على شرط أن لا يؤتى لإزعاجهم. وقد كانوا لموسى أحلافا أكثر منهم رعايا، وقدموا له منهم رجالات مناصرين لفتح إسبانيا [1].

وليست هناك أية وثيقة تبين لنا كيف أصبحت مدينة جيجل خلال القرنين الأولين للغزو الإسلامي. إلا أنه من المحتمل أنها قد تعرضت لتأثير ما تحمله السكان الجبليون الذين كانوا يجاورونها، من سراء وضراء. هؤلاء الذين ألموا قليلا، بقواعد الدين الجديد، الذي كان يبدو وأن تعاليمه قد جذبتهم، لم يلبثوا أن نبذوها، لأن التطبيقات العملية التي كانت تخضع لها كانت تضيع عليهم كثيرا من الوقت. ويؤكد ابن خلدون أنهم لم يعتنقوا الإسلام إلا بعد أن ارتدوا اثنتي عشرة مرة، ولم يثبتوا على الدين الجديد إلا في عهد موسى بن نصير [2].

---

1 - ابن خلدون

2 - ابن خلدون ج 1 ص 198

وفي سنة 154 هجرية (772م) فرت فرقة متمردة من الجيش الإسلامي من القيروان ولجأت إلى جيجلي "وهي مدينة لكتامة تقع على شاطئ البحر يقول ابن خلدون"[1].

لقد حكم أمراء بني الأغلب إفريقيا خلال أكثر من قرن باسم خلفاء الشرق. وكانوا قد أخضعوا البرابرة عندما جاء المذهب الخارجي أو الشيعي ينشر فيهم مبادئه وعقائده، وقد كان برابرة كتامة الذين كانوا منتظمين سريا في جماعات من قبل موفدين متحمسين جدا، الأوائل في حمل السلاح لطرد أمراء بني الأغلب من إفريقيا. وبايعوا أميرا فاطميا خليفة لهم. وقد بدأت هذه الثورة الكبرى في الجبال المجاورة لجيجلي، ولابد أن ندخل في بعض التفاصيل عن هذا الموضوع، والإشارة بدقة إلى المراحل الأولى منه.

بعد وفاة محمد، كان ابن عمه وصهره علي يطمح إلى الحصول على السلطة الدنيوية والدينية للمسلمين. ومن هنا نشأت المنافسات والمعارك التي انفجرت في أحضان الأمة العربية. فقد كان البعض يرى أن حق اختيار رئيس الدولة والدين ينبغي أن يخص كل الصحابة، بينما كان علي يدعي أن عائلته هي وحدها التي يحق لها أن ترث سلطة النبي. وقد احتكم الأطراف إلى السلاح غير أن أتباع علي الذين سموا بالعلويين أو الفاطميين انهزموا في عدة وقائع وتفرقوا هروبا من الموت. وقد دخل البعض من هؤلاء الفارين إلى إفريقيا حيث وجدوا البرابرة مهيئين لاعتناق مذهبهم. وقد كان هذا الشعب لا يبحث إلا عن مبررات لمقاومة الهيمنة العربية، وإن كان في أول الأمر لا يعرف القيام بثورة من غير أن يرتمي في الردة، لقد تعلم إذن التمرد من دون أن يتنكر لكونه مسلما.

وقد جاء موفدون من الشرق، كانوا يعملون لكسب أنصار لقضية عبيد الله، الذي كان يصبو إلى الإمامة، أي وراثة السلطة الدنيوية والدينية لمحمد. وقد أقام

---

[1] - تاريخ إفريقيا تحت حكم الأغالبه. ترجمة السيد نويل دي فيري، ص 67

أحد هؤلاء الموفدين بسوق الجمعة أو "سوق جمار"، في بلاد كتامة ([1]) ومنذ ذلك الحين أصبحت الدعوة تسمع لصالح الإمام في كل أرجاء هذه الناحية. وذهب ساع آخر يسمى أبو عبد الله إلى مكة حيث التقى عددا من رجالات كتامة الذين قدموا إلى الحج. وتعرف من بين هؤلاء على موسى كبير بني سكان جميلة ومسعود من قبيلة مساله. وبعد أن كسب ودهم، بدأ في محادثتهم عن المذهب المعتنق من قبل الشيعيين، أي المذهب الفاطمي، وبما أنه أظهر ورعا شديدا وتفانيا كبيرا، فقد أثر فيهم تأثيرا عميقا.

وقد كانت الزيارات المتكررة إلى هؤلاء الشيوخ سارة لهم وله وعندما عزموا على الانصراف إلى بلدهم طلبوا منه أن يرافقهم إليه، لكنه بقي محافظا على نواياه الحقيقية، ولم يعط لهم موافقته إلا بعد أن أخذ منهم معلومات عن قومهم، وقبائلهم، وبلدهم، والأمير الذي كان يحكم هناك، فأعلموه أنهم كانوا لا يخضعون إلى السلطان إلا مجاملة، ومسايرة وهو التصريح الذي جعله يأمل في تحقيق نجاح سهل.

في تحقيق نجاح سهل وقد وصل المسافرون الذين كانوا قد أخذوا طريقهم إلى كتامة سنة 893 م، وتوقفوا بايكجان، وهي مدينة تقع في موطن قبيلة جميلة ([2]).

وقد اجتمع كثير من أهل كتامة إلى أبي عبد الله، وكانت مع فقيههم مناظرات، وأصبحوا أصدقاءه المخلصين. وحينئذ أعلمهم بأن الإمامة تختص بأحد الأعضاء من

---

[1] - سوق جمار بالبربرية نهر الحصى، وهو ما يعادل الاسم العربي وادي الرمال، ويعطي ليون الإفريقي كذلك اسم سوف جمار إلى وادي الرمال. وفضلا عن ذلك كانت توجد قديما سوق لدى الأجناح في مصب الرمال، تسمى سوق الجمعة بشرق جيجلي. والكلمة سوف أو سوق هي انحراف لكلمة بربرية آسيف التي تعني الوادي.

[2] - وحسب معلومات كنت قد جمعتها عن الأماكن نفسها، فإن ايكجان كانت اسما لكل المقاطعة التي تقع شرق بابور وتحتل اليوم من قبل قبيلة أيت.

وترى هناك سلسلة من جبال وعرة، ومشجرة، ومن بينها قمة سرج الغول وهو الاسم الذي أعطي له بسبب شكله. وتشاهد بالقرب من جامع سيدي عباسي، في فضاء ممتد جدا أنقاض ما يزال القبائل يسمونها ايكجان إنها من غير شك خراب المدينة التي أصبحت مركز نشاط العبيديين.

آل محمد، ودعاهم إلى تأييد قضية عبيد الله. وقد اعتنق الكتاميون بأعداد كبيرة مذهب المبعوث.

وقد أرسل أمير الأغالبة بإفريقيا رسالة تهديد، إلى أبي عبد الله تلقى عليها ردا، يحمل عبارات الشتم والإهانة. حينئذ نقل عملاؤه حكام مسيلة وسطيف وبلزمة الحرب إلى عند الكتاميين. وخوفا من صرامة وعنف سلطان الأغالبة، اجتمع إذن أربعة من شيوخ (كبار) هذه القبيلة للتشاور، واتخذوا قرارا يوجب على بيان شيخ جميلة طرد أبي عبد الله الذي كان لا يزال موجودا بقمة ايكجان. غير أن قبيلة جميلة أخذت على عاتقها الدفاع عن ضيفها، وطردت كل من كانوا يريدون أن يلحقوا به الأذى. وقد لجأ أبو عبد الله وأنصاره الذين اكتشفوا الخطر الذي كان يجري إلى تاصروت. وقد سارعت الأسر الكتامية التي كانت قد قدمت عهدا إلى المبعوث بالالتحاق به في مدينة تاصروت. حيث إن نفوذ هذا المغامر أخذ ينمو نموا كبيرا.

وبعد انهزام الفرق التي وجهت ضد أبي عبد الله، ضم تحت لوائه بني عجيسة والزواوة وكل فروع كتامة الكبرى. وفيما كان سكان الناحية يستسلمون، البعض بإرادتهم، والبعض الآخر يجبر بقوة السلاح، غادرت فرقة من الجيش الأغلبي تونس ونفذت إلى الكتاميين. وتوجهت هذه الحملة إلى تاصروت، وطردت الفرق التي حشدها أبو عبد الله بالقرب من مدينة ملوسة ([1]). وقد تخلى الشيعي سريعا عن قلعة تاصروت، و سارع إلى الاحتماء بايكجان، و بعد أن دكت تاصروت (902) سار القائد الأغلبي العام إليه، ولكنه كلما كان يتوغل في أراضي كتامة، كانت الصعوبات تزداد، وكانت عزيمة جيشه تضعف وتخور. وقد كانت الفرقة المرسلة من جهة ميلة قد هزمت من قبل الثوار المتمردين وقد ازداد الوضع سوءا إلى درجة أن الأغالبة

---

[1] - مدينة ملوسة، كانت توجد على الأراضي الحالية لقبيلة أولاد عبد النهور شرق جبل غروش، وهي الأنقاض التي تحمل اليوم اسم عين الملوك، على بعد بعض الكيلومترات أكثر شمالا، هي أنقاض المدينة القديمة تاصروت التي احتفظت بنفس الاسم إلى هذا اليوم.

استمروا في مغادرة بلاد كتامة. وحينذاك أقام أبو عبد الله مقره بايكجان، حيث أسس مدينة تسمى "دار الهجرة". وبعد قليل من الوقت، كان هذا الموفد الماهر قد جمع كل كتامة حوله. وجعل المقر أمام سطيف، وقد انتهى المحل بالاستسلام والتخريب كلية. ومن نصر إلى نصر استولى بالتوالي على طبنه وباغاية وتبسه، ومدن أخرى من الناحية.

وبينما كان سكان إفريقيا يتمنون انتصار أبي عبد الله، بسبب حلمه تجاه المنهزمين، ووفائه بالعهود، كان الأغالبة يتلقون الأخبار الأكثر إزعاجا في كل حين، وكانوا يفرغون خزائنهم من أجل تنظيم جيش جديد، و إعداد المواقع الحصينة. وقد وصل المهدى أبو عبيد الله الذي كان يدعو له أبو عبد الله بعد سلسلة من المغامرات لا داعي لذكرها هنا إلى ايكجان، حيث يوجد داعيته أبو عبد الله الذي سلمه كل الكنوز التي كان قد جمعها. وحينئذ أرسل هذا الأمير الذي أدرك الحكم في هذه الحال عملاء إلى كل أنحاء الخلافة لإخطار السكان رسميا على مبايعته بالسلطان. وقد تلقت الشخصيات الكبار من رجال كتامة الذين كانوا قد ساندوا بقوة قضية المهدي عبيد الله، مكافأة مالية، وجواري جميلات ومناصب قيادة هامة على خدمتهم.

وقد أرسل عبيد الله الذي كان قد أحرز الولاء من القسم الأعظم من السكان، ومن بينهم أولئك الذين يسكنون القيروان، المقر المعتاد للأمراء الإفريقيين، ولاة إلى صقلية وطرابلس. وقد قاوم السلطان الجديد الذي أصبح سيدا على إفريقيا تأثير أبي عبد الله الشيعي، ولم يسمح له بالتدخل في شؤونه، وحينئذ شرع هذا الذي جرح جرحا عميقا في كبريائه بزرع مشاعر السخط والاستياء بين الكتاميين، وتحريضهم ضد المهدي الذي كان يقول عنه إنه استولى على كنوز ايكجان من غير أن يشركه فيها بأقل جزء، والذي يمكن جدا ألا يكون هو الإمام المثالي، ولا هو الشخص الذي كانوا قد عملوا كثيرا من أجل مساندة حقوقه. وقد زعزع هذا التصريح ثقة الكتاميين الذين اتخذوا القرار بقتل المهدي. ولإحباط هذه المؤامرة فقد عمل هذا على قتل أبي عبد الله. وقد اتخذ عدد كثير من القبائل الذين حملوا

السلاح طفلا منحوه اسم المهدي انتقاما لموت الشيعي. وحتى إنهم ادعوا أنه كان نبيا، وأن الشيعي ما يزال حيا. وقد سار إليهم ابن عبيد الله ومزقهم تمزيقا، وقتل الطفل، وهكذا أوقف ردة كتامة.

وفي سنة 914 دخل ابن المهدي على رأس فرقة من جيش الكتاميين مصر، وأصبح سيدا (حاكما) للأسكندرية، وللإقليم الخاضع لها. ولكنه رأى نفسه مضطرا إلى مغادرة مصر والدخول إلى المغرب، عقب الانهزامات التي ألحقتها به الجيوش المبعوثة من بغداد من قبل الخليفة العباسي.

وقد شارك الكتاميون في حملة جديدة على مصر، لم تكن سارة أكثر من الأولى، ثم ساروا أيضا مع قادة العبيديين في حملتهم على ريف المغرب. ومهما يكن فإن الكتاميين أصبحوا هم المناصرين للفاطميين وأسهموا بقوة في بناء دولتهم.

ويقول ابن خلدون إن قوم كتامة أصبحوا أقوياء بعد إقامة دولة في الغرب، وبنفس هذا السبب انتهوا إلى الخمول في البذخ والرخاء. وقد أجبر كل فرع من هذه القبيلة على الخضوع إلى الضرائب، والانضمام إلى صف رعية دولة لحفصيين ماعدا أولئك الذين اعتصموا في الجبال من أماكنهم القديمة، مثل بني زلديوي (زنداي)، والزواوة، وسكان جبال جيجلي [1]. ويضيف ابن خلدون لأيامنا هذه تستعمل تسمية كتامي للإشارة إلى رجل حقير لدى كل القبائل. ويرجع السبب إلى أربعة قرون مضت من زوال ملك الكتاميين وكانت السلالات الحاكمة التالية يرضيهم أن يؤاخذوهم ويعنفوهم على الارتباط الذي كانوا قد أظهروه بالعقائد المحرفة، واعتناق دين الكفر. ونتج عن ذلك أن معظم القبائل الكتامية نفرت من هذا اللقب بسبب فكرة الخزي التي كانت تشملهم، وانتسبوا كأعضاء لقبائل أخرى. ولهذا

[1] - لقد أعطى ابن خلدون اسم العديد من فروع العائلة الكبرى لكتامة، التي مازلنا نجدها إلى اليوم في نفس المكان تقريبا بني مسالته، في الساحل القبلي من سطيف، في سفح بابور. بني زلديوي (زنداي)، بني سيلين، في فرجيوة، بني قشة، في فرجيوة، بني لماي غرب سطيف، بني مروان في فرجيوة، أولاد طلحة، في فرجيوة، بني تليلان، شمال قسنطينة على طريق الميلية.

السبب فإن كثيرا من الأشخاص كان لهم نفور واشمئزاز من أن يعرفوا أنهم من أصل"بربري"، واليوم مثلما هو في عهد ابن خلدون فقد حافظ السكان البرابرة على عادة الانتساب إلى أصل غير أصلهم. واسألهم عن أجدادهم سيقولون لك إنهم جاؤوا من الشرق، أو من الغرب أو من الصحراء، من شجرة عربي، ومن أسرة دينية شريفة، ولا أحد يريد أن يكون من بلده.

ويخبرنا ابن خلدون أنه في حكم الزيريين الصنهاجيين الذين كانوا يحكمون إفريقيا باسم الخليفة الفاطمي وقع تمردان في بلاد الكتاميين الأول حدث سنة 376 هـ وأسفر عن أخذ وسلب مدينة ميلة، والقرى المحيطة بها، والثاني أثير سنة 379 هـ من قبل يهودي يدعى أبو الفرج كان يقدم نفسه على أنه حفيد للخليفة الفاطمي القائم. هذا الذي كان قد بدأ يدعو إلى الثورة في جبال بابور، بجانب قبيلة بني سليمان.

ولم يقع أي حدث يرتبط مباشرة بالبلد الذي نهتم به، خلال المدة التي تشهد انتقال السلطة في إفريقيا من أيدي الزيريين إلى أيدي سلالة الحماديين الصنهاجيين. وفي سنة 460 هـ (1067 م) أسس الأمير الحمادي الناصر عاصمة بجاية. وخوفا من المؤامرات فإن حفيده باديس قد أبعد أخاه العزيز والي الجزائر إلى جيجلي.

وقد حكم العزيز الذي دعى إلى اعتلاء سدة الحكم، بعد وفاة باديس، وحكم في سلام خلال بضع سنوات، ثم أوصى بالسلطة العليا لابنه يحي، وهو أمير شاب، مائع و متخنث، ترك الحكم الصنهاجي يسقط في الانحلال. وكان يحي شديد الولوع بالصيد، قد بنى بجيجل قصرا فخما للتنزه كان قد سلب وخرب لبضع سنوات من بعد، من قبل أسطول رجر الثاني ملك صقلية الذي كان ينتقم هكذا من الدعم الذي كان يحي قد قدمه إلى أهل مهدية ضد الحملة التي وجهها إليهم. ويقول المؤرخ ابن خلدون في هذا الموضوع إن الفرنج (نورماند صقلية) تقدموا أمام جيجل التي هرب منها السكان نحو الأرياف والجبال. وقد خرب الفرنج الذين دخلوا المدينة تماما، وأضرموا النار في قصر النزهة الذي كان ابتناه يحي بن عبد العزيز. وبعد هذا العمل المفخرة رجعوا إلى ديارهم. وينقل الإدريسي أن كل السكان كانوا يلجأون عند

اقتراب النورماند إلى الجبال حيث بنوا حصنا. وكانوا يعودون أثناء الشتاء للإقامة بالساحل، ولكنهم كانوا ينسحبون من جديد إلى داخل البلد عند إقبال الصيف ورجوع أسطول الصقليين. وكان هذا لا يمنع التجارة من الازدهار. فقد كان القبائل يقاتلون يوما أو يومين ثم يأتون مطمئنين للمتاجرة بمنتوجاتهم الفلاحية والصناعية مقابل السلع النورماندية.

وقد استغل الصقليون مسغبة كان يعاني منها سكان الشمال الإفريقي عناء شديدا، إلى حد إقدامهم على أكل لحم الإنسان، لتوسيع فتوحاتهم وسقط العديد من المدن الساحلية بين أيديهم. غير أن هذه الحيازة لم تكن بوسعهم إلا بشرط استمرار الفوضى التي كانت تسود البلد. لقد تمكنوا مادام أن إفريقيا مقسمة، لكنهم لم يستطيعوا مقاومة عبد المؤمن الذي كان يقترب بقوات متفوقة ساحقة، وهيبة سيادة معترف بها من قبل أقوى القبائل المغربية. وقد تعهد بالولاء يحي ملك بجاية إلى المدعي الجديد الذي أبعده إلى سالة بالمغرب، حيث توفي. وقد طرد الصقليون منذ ذلك الحين من كل المدن التابعة لمملكة بجاية، وبالتالي من جيجلي.

ويخبرنا الجغرافيون العرب، أن مستعمرة إيجيلجيلي أصبحت حضيرة عربية، وكانت دائما موقعا تجاريا ذا أهمية:

ويذكرون أن سكان جيجلي مستأنسون اجتماعيون، أصدقاء للتجار مفعمون بالثقة وحسن النية في المعاملات التجارية، يتعاطون كلهم تقريبا الفلاحة، ومهما كانت الأراضي التي يفلحونها بخيلة بالعطاء ولا تنتج نادرا إلا الشعير، وبعض القنب والكتان فإن الجبال المجاورة المغطاة بأشجار الفواكه البديعة، تمنحهم بوفرة الجوز والتين التي تنقل إلى تونس. ويقيمون أيضا مع الأجانب تجارة كبيرة في الجلود، والشمع والعسل، وللمدينة مرسيان أيضا، مرسى منها في جهة جنوبها، وهو مرسى الشعراء (الشعري) فهو ساكن الحركة كالحوض، حسن الإرساء فيه لكنه لا يحتمل الكثير من المراكب الصغيرة، وهو رملي.

لقد خلف البيزانيون المقيمون ببجاية الصقليين، وقد زودت جيجل لمدة أكثر من نصف قرن، تجار بيزا (Pise) بقسم كبير من الجلد الخام الذي كانوا يستخدمونه في مدابغهم العديدة. غير أن منافسة الجنويين البحارة الأكثر نشاطا في القرون الوسطى، الذين لقيهم البيزانيون في كل مكان من أسواق الشرق سرعان ما أعطت ضربة قاضية للتجارة الرابحة جدا التي كان يقوم بها هؤلاء الأخيرون بجيجلي. وقد احتل الجينويون هذا الموقع من الساحل، الذياحتفظوا به تقريبا لتجارتهم الخاصة، ولايخبر التاريخ في أية فترة، ولا بأية طريقة، وقع هذا الاحتلال. ومن المحتمل أن الجينويين حصلوا من ملك بجاية على ترخيص لتأسيس مركز تجاري بجيجلي، وأقاموا هناك بحيث أنهم أصبحوا فيما بعد من المستحيل طردهم. وكانوا من جهة قد اعتادوا على الواقع. ويروى ترونسي (Tronci) أنه في سنة 1283 كانت باخرة تجارية قد استولى عليها من قبل الجينويين في مرسى جيجلي، ما كان يدل على أنهم في وضع حيازة لهذه المدينة.

ويوجد أيضا في عقد هدنة قديمة لملك أراغون (Aragon) مع ملوك بجاية بند خاص يتعلق بهذا الاستيلاء على جيجلي من قبل الجينويين. يقول هذا العهد: إن آل أراغون سيكون لهم ببجاية، وفي المدن الأخرى من المملكة، المؤسسات التي كانت لهم قديما، والامتيازات التي كان يتمتع بها الجينويون، ما عدا الإعفاء الذي كان لهؤلاء بجيجل، مدينة الساحل. قرنان من الزمن من بعد، وهم لا يزالون الأسياد على هذا الموقع المفيد، عندما جاء القرصان الشهير بابا عروج ليتولى عليها. ومما لاشك فيه فإن السكان الذين كانوا يتضايقون من الجينويين هم أنفسهم استنجدوا بالأتراك.

الهيمنة التركية

في بداية القرن الخامس عشر، كانت المملكة الحفصية مرتعا للفتن الداخلية الأكثر تعقيدا. فبينما كان أعضاء الأسرة الحاكمة يتنازعون على الحكم بتونس، كانت القبائل العربية والبربرية بقسنطينة، وفي مملكة بجاية تعلن استقلاليتها. وفي هذه الفوضى العامة الناتجة عن هذا التمرد، كان الموريسكيون المطرودون من إسبانيا، واللاجئون إلى كل مواقع الساحل الإفريقي، ينشرون الضغينة التي كرسوها ضد المسيحيين لدى مضيفيهم، وقد انقطعت منذ ذلك الحين العلاقات الودية التي كانت توجد عن طريق التجارة بين الأوروبيين والمسلمين في كل مكان تقريبا.

وقد أصبحت القرصنة ولصوصية القراصنة البربرية لا تطاق: حينئذ قررت إسبانيا إرسال حملات إلى وهران، وبجاية، ومدن أخرى كانت تستعمل ملجأ لقرصان البحر.

وفي الوقت الذي جاء فيه المسيحيون للإقامة بإفريقيا ظهر الإخوة بابا عروج في الجزائر حيث لم يلبثوا أن أسسوا إيالة تحت الحماية التركية.

وينبغي أن نعرف عن بداية هذين القرصانين الجريئين اللذين اختارا مدينة جيجل قاعدة لعملياتهما.

لقد ولد عروج الذي يسميه الأتراك بابا عروج والذي جعل منه الأوروبيون بالتحريف باربروس وإخوة خير الدين حوالي سنة 148 بجزيرة ميتلان، ليسبوس القديمة [1] وكان أبوهم يعقوب الرايس قائد مركب يستعملها في تجارة بحرية صغيرة في الأرخبيل.

---

[1] - كانوا أربعة إخوة: إيلياس، وإسحاق، وعروج، وخير الدين وهذان الأخيران هما مؤسسا ولاية الباشا بالجزائر. وقد قتل إيلياس في بداية حياته البحرية في معركة ضد سفينة رودس. أما إسحاق فقد هلك سنة 1517. مدافعا عن حصن بني رشيد ضد الإسبان.

وقد درب أبناءه باكرا على فن الملاحة التي خلدتهم فيما بعد وكان عروج الأول من بدأ في مباشرة القرصنة ضد مسيحي شواطئ إيطاليا الذين كان مجرد ذكر اسمه لديهم ينشر الرعب والذعر [1].

وراح القرصان الجريء على رأس عدد قليل من الرجال المصممين الشرهين بالقتل والنهب يبحثون عن الثروة على شواطئ البلاد البربرية في إحدى هذه الرحلات (السطوات) البحرية أرسى بتونس محملا بالغنيمة والأسرى.

وكان مولاي محمد أمير سلالة بني حفص على هذه المدينة فقدم له عروج هدايا عظيمة طالبا منه السماح له بالإقامة (التوقف) بإحدى المراسي الخاضعة لسيطرته وقد وافق له السلطان على ذلك شريطة أن لا يشتكي رعاياه، وحلفاؤه من رجاله وأن يدفع خمس المغانم التي يغنمها تبعا لذلك من أعداء دين الإسلام وقد وافق عروج على كل شيء [2].

التحق خير الدين بأخيه في تونس آخذين معا عرض البحر آنذاك بأربعة مراكب، وجابا كل حوض البحر الأبيض المتوسط ولا يزالان يحصلان على حساب المسيحيين غنائم كثيرة، يأتون بها إلى عاصمة بني الأغلب وكانت مدينة بجاية الخاضعة للدولة الحفصية، تحت سيطرة الإسبان الذين استولوا عليها سنة 1510، وطبعا فإن القرصانين اللذين حققا انتصارات كثيرة على الكفار، واللذين أطبقت شهرتهما كل الشواطئ الإفريقية قبلا على عجل العرض الذي قدم لهما لاسترجاع هذه المدينة من الإسبان. وما كان يبدو هناك أي شيء مستحيلا لمثل هذين الرجلين، المدعومين من قبل الأمراء الحفصيين، آخر حكام مملكة بجاية الذين كان قد التف حولهم كثير من المقاتلين القبائل. لقد جاء إذن لمهاجمة بجاية أول مرة في سنة 1512.

[1] - خلال هذه المرحلة الأولى من حياته أسر عروج من قبل سفينة رودسية وبقي أسيرا لبعض الوقت.

[2] - تأسيس وصاية (إيالة) الجزائر لساندر رانج.

وقد كنا تحدثنا عن الفشل الذي تكبده المسلمـون في هذه المحاولة، فقد أضـاع عروج ذراعه، وكان لابد عليه مـن الانسحاب [1].

سنتان من بعد، اقترب القرصانان اللذان كان يؤرقهما فتح بجاية، من شواطئ هذه المملكة، وجاءا للإرساء بمكسر صخري غرب جيجل [2]. وقد وجدوا مركب صيد أخبرهما بأن الجنوبيين قد استولوا على جيجل.

وابتنوا هناك قصرا. وكتبا عن طريق نفس هؤلاء الصيادين إلى أهم سكان هذه المدينة بأنهم مستعدون للالتحاق بهم حالما يكونان قادرين على مهاجمة الجنوبيين. ثم تجهزوا فورا ببعض القطع المدفعية لضرب الحصن. واقتربا من الشاطئ المجاور حيث قاما بعملية الإنزال، ولم يتركا في مراكبها إلا الرجال الضروريين لحراستها .

وعند اقترابهما، انضم إليهما سكان جيجل وكذلك كل مسلمي الأريـاف. وجاءوا جميعا لإقامة المركز (المقر) أمام القلعة إلى حيث كان المسيحيون قد انسحبوا. وفي بضـع من اليوم وفقوا إلى إحداث ثغرة، وقام خير الدين الأول إلى الهجوم. ولم يقاوم الجنويون المذعورون إلا مقاومة خفيفة، ثم طلبوا الأمان توا. وقد أسر خير الدين ستمائة أسير، واستولى على غنيمة كبيرة، و وزعها على كل من كان قد شارك في هذا النصر، من دون تمييز بين الأتراك والأهالي. ثم اهتم بترميم القصر وتسليمه في أحسن حال إلى حرس سكان جيجل [3].

وعندما علم السكان المحيطون بنجاح عروج وخير الدين، اجتمع حولهما أكثر من عشرين ألفا قبائليا بقيادة مرابطيهم [4].

---

[1] - انظر التفاصيل في تاريخنا لبجاية، المصنف الأثري لقسنطينة، سنة 1869.

[2] - من المحتمل أنها الجزيرة التي أمام زيامة، أو المرسى الصغير بزيامة أو جزر العافية.

[3] - كان يشتمل هذا القصر على برج مربع، علوه اثنا عشر مترا، يحمي المعبر الذي كان يصل شبه الجزيرة باليابسة. وبالقرب من البرج كانت ملحقات مستعملة للسكن والمخازن وقد اختفى كل شيء اليوم بعد زلزال 1856.

[4] - تأسيس وصاية (إيالة) الجزائر. حوالي القرن السادس عشر (XVI) لساندر رانج"SANDER-RANG".

وقد كان سي أحمد بن القاضي، أحد المرابطين، الذي لعب دورا كبيرا في هذه الفترة. وكان اسمه ضروريا لكل من اهتم بالتاريخ الجزائري، لكن إلى الآن لم يعط أحد تفصيلا عن هذه الشخصية الدينية. أولا فهو الصديق والحليف للأخوين بابا عروج، الذي ساعد بكل قوته على إقامة السيطرة التركية في الجزائر. وانتهى إلى أن أصبح الأكثر خطرا. و أرجو أن أكون سعيدا جدا عما قريب بسد هذه الفجوة من التاريخ المحلي، بمساعدة الوثائق الأصلية التي سلمت إلي من قبل الفروع المنحدرة مباشرة من أحمد بن القاضي. وقد اقتطفت المقاطع التي ترتبط أكثر بماضي جيجل، من الدراسات التي أعددتها لأجل هذا، بعنوان الإقطاعية تحت السيطـرة التركيـة.

ومنـذ أن كانـت بجايـة خاضعة لسيطرة الإسبان، لم يكـف أمـراء أسرة بني حفص الذين كانوا قد حكموا هذه المدينة عن دعوة السكان لاستعادة عاصمتهم. وكان سي أحمد بن عمار، بن القاضي، المرابط الصالح الذي كانت زاويته بمدينة كوكو في جرجرة مسارعا إلى هذه الثورة التي تميز القبائل، على رأس جبليي الزواوة كلما أعلن الجهاد [1] وعندما هاجـم خير الدين جيجل، قدم سي أحمد بن القاضي مساعدة كبيرة، وقد وطـد الانتصار الذي أحرزوه معـا في هذه الظروف على الجنويين التحالف أكثر.

وقد أصبحت جيجل قاعدة عمليات القراصنة الأتراك، ومستودع غنائمهم. ومن هنا انطلقوا للمرة الثانية سنة 1514 لمحاصرة بجاية وقد سارعت كل قبائل الجبال المجاورة الثائرة على الإسبان، بقيادة ابن القاضي وغيره من مرابطي القبائل بعشرين ألفا، لقد أرسى عروج وخير الدين بمراكبهما الثلاثة، بالقرب من بجاية، في الوادي

---

[1] - تملك أسرة بن القاضي نسبا كما تدل عليه شجرتهم تعود إلى الأدارسة، ملوك فاس، وتلمسان وبالتالي فهي تعود إلى النبي محمد. وجدهم هو عمار ابن إدريس الذي كان يحكم القبائل الصنهاجية في سنة 828 م.

بعد سقوط الأدارسة انسحب هذا الفرع من الأسرة إلى كوكو، بجرجرة حيث عاشت مدة طويلة مجهولة. وقد حققت الزاوية التي أسستها في هذا الظرف فيما بعد بعض الشهرة، مما أبرز بعض التأثير الديني لبني القاضي، وقد يسجل خطأ أن ميدان هذه الأسرة كان يقع بين عنابة والقالة، وكان ينبغي أن يقال بين بونة والقالة، الأماكن في بني عباس بسفح جرجرة.

المسمى وادي الكبير، الصومام، وأنزلا أتباعهما، وكذلك مدفعيتهما واتخذا مكانهما في مقدمة جيش البربر الذي كان في انتظارهما، وأحكما الحصار. لكن تصميم الإسبان على المقاومة، ونقص البارود، أوقفا مرة أخرى عملياتهما. حينئذ رجع القرصانان إلى مراكبهما الراسية في الوادي الكبير، غير أنهما وجدا مياه النهر قد انخفضت بسبب قلة المطر، وكان من المستحيل عليهما أن يخرجا من النهر. وكان عروج اليائس نتيجة لكثير من المصائب المتتالية، يدعو على نفسه بالموت ليرتاح، فعزاه ابن القاضي وقدم له مساعدته في كل مشاريعه، وحتم أن يحرق مراكبه خوفا من أن يستولي عليهما الإسبان. وبعد أن تعاهدا على الوفاء ترأسا رجال السفينة والوحدات القبائلية، وتوجها إلى جيجل برا، حيث استقبلا من قبل السكان بهتافات الاستبشار مما جعلهما من جهة ينسون النكبة كما يقول المداح الأهلي (القوال).

وحسب الرواية المحلية، فإن عروج قد استقر حينذاك في جيجل التي تسمى فيها سلطانا. وحتى يكون أكثر ارتباطا بسكان هذه المدينة، لم يفرض عليهم أي إتاوة، بل وراح بعيدا أكثر بسخائه، موزعا لهم حصصا من الغنيمة كلما أبحرت سفنه إلى القرصنة [1]. أما خير الدين فقد استأنف تحركه في البحر بمراكبه الثلاثة التي تركها لحسن الحظ بمرسى جيجل وتوجه إلى تونس حيث اشترى أربعة مراكب أخرى لتعويض ما أحرق في وادي بجاية.

غير أن سكان الجزائر المفتونين بشهرة القراصنة الجسورين الذين كانوا ما يزالون يبذلون كل جهودهم لأخذ بجاية من الإسبان بعد أن كانوا قد فتحوا جيجل، أوفدوا إليهم عدة شخصيات متميزة تحمل التماسا مصوغا في هذه العبارات تقريبا.

[1] - مازال في جيجل بالقرب من مرسى المدينة القديمة يشار إلى النخلة التي كان يجلس تحتها باربروس يتحادث مع أصحابه، ويتداولون في الغزوات التي يقومون بها.

-المجد لنا أيها المدافعون عن العقيدة!-

رب حماستكم للجهاد لم تهزم أبدا. إننا نعرف شجاعتكم ومضاء سلاحكم إذ أنكم قد استرجعتم قبل قليل مدينتي جيجل وبجاية إلى أصحابها الحقيقيين. إن أسماء كم ستبقى خالدة إلى الأبد بانتصاركم الذي توج مشروعكم الشريف. والآن أنتم وحدكم الأجدر لتحريرنا من اضطهاد الكفار.

يا للحسرة، إننا مسحوقون في وضعية شاقة جدا [1].

لقد كانت الجزائر تعاني منذ سنة 1510 من نير الإسبان. الذين كانوا قد ابتنوا حصنا قويا، مقابل المدينة، على الجزيرة الصغيرة، حيث يوجد المنار اليوم لحماية سكان شواطئهم، ولمنعها من أن تستسلم من جديد للقرصنة ضد المسيحية. وقد قابل الرايس عروج الموفدين عن سكان الجزائر سريعا، ووعدهم بأن يخلصهم سريعا من حامية الإسبان، المقامة على مرمى مسدس من سورهم. ومع أنه لم يكن له في حوزته إلا سفينتان صغيرتان فقط، فإن عروج لم يستشر إلا حماسته الإسلامية، وأبحرتا نحو الجزائر، غير أنه قبل أن يذهب وصى أصدقاءه المخلصين، سكان جيجل بأن يطلبوا باسمه من أخيه خير الدين عندما سيظهر عندهم، أن يبعث له بفرقة من رفاقه الشجعان، الذين يستطيع أن يهاجم بهم المسيحيين.

وفعلا، فإن خير الدين لم يلبث أن ظهر بجيجل. وقد سارع السكان الذين اهتزوا فرحا إليه، واستقبلوه كملك لهم، وأبلغوه الوصية التي كلفهم بها أخوه. فأرسل خير الدين فورا مائتين وثمانين تركيا مع كل الذخائر التي كانت ضرورية لهم. وبمساعدة هذا المدد، وعدة آلاف من القبائل المساعدين الذين أتى بهم ابن القاضي.

---

[1] - إن المؤلف الأهلي الذي قدم نص هذه الرسالة، وقع في خطإ، فقد كانت جيجل قد انتزعت فعلا من الجنويين لكن بجاية بالرغم من الهجوم الضاري، فإنها بقيت طويلا في حكم الإسبان. وأعتقد أنه مجرد إطراء كانوا ينسبونه إلى هذه الفترة بفتح بجاية.

في نفس الوقت برا. لقد نجح عروج في صد محاولة الإنزال التي قام بها آنذاك الجنرال دياجو دي فيرا "DIEGO DEVERA" في الجزائر (1516) وبنبإ هذا الانتصار الجديد، كان خير الدين يستعد للالتحاق إلى جانب أخيه عروج، إلا أن هذا أجابه بأنه سيكون من الأفضل له البقاء في جيجل، حيث يمكنه أن يكون أكثر إفادة له. وكان وقتذاك في الجبال شيخ قبائلي، تخلى عن داعي الجهاد، وأصبح خاضعا، وخادما، وجاسوسا للمسيحيين الذين كانوا يحتلون بجاية. وكان يدفع لهم كل عام 10.000 دوقة (608، 8 فرنك)، و1000 مد من القمح، و1000 خروف و700 ثور، و14 حصانا مسروجة. ولم يكن هذا الشيخ إلا عبد العزيز، جد أولاد مقران، شيخ قلعة بني عباس. وبدأ خير الدين في مطاردته، والتقى معه في جبل بني فيار، على بعد بضعة فراسخ غرب بجاية. إن حضوره الذي أثار نوعا من الهلع، والقوات القبائلية التي كانت تدعمه، ألزما عبد العزيز على أن يتخذ فورا تعهدا صريحا يقطع تحالفه مع المسيحيين ([1]) .

وسوف لن نتابع عروج أكثر في حملاته الجديدة نحو الغرب. وسنقتصر على التذكير بأنه بعد الاستيلاء على سلطة الجزائر، وقتل سالم التومي شيخ هذه المدينة، دخل إلى مملكة تلمسان، حيث خسر المعركة حيث قتل من طرف الإسبان.

وقد خلف خير الدين أخاه. وبالرغم من مؤامرات سلطان تونس الحسود للقراصنة الجريئين من الانتصارات التي حققوها. وبالرغم من الإخلال بالعهد، وهجومات ابن القاضي نفسه، فإنه نجح في المحافظة على كل قوته بالجزائر. غير أن أعداءه لم يكفوا عن إثارة الاضطرابات له. طبعا ولولا الشرطة الصارمة التي كانت تحرصه لكان قد هلك. وفي النهاية أبحر خير الدين منزعجا من هذه القضية بثلاثة

---

[1] - كان عبد العزيز، الذي نصب نفسه فيما بعد سلطانا على قلعة بني عباس، آنذاك في بداية قوته. وفضل ألا يتعرض للأتراك على أن يحاول مقاومتهم بوسائل غير كافية.

وسيعطي تاريخنا المتعلق بالعائلة الإقطاعية لأولاد مقران، التي تنحدر من شيخهم القبائلي، معلومات أكثر تفصيلا.

مراكب لنقل أسرته قصد الإقامة فيها نهائيا، من غير اعتبار لتوسلات سكان الجزائر العاصمة، الذين كانوا يرغبون في الإبقاء عليه عندهم، للدفاع عنهم ضد كل عدوان جديد للمسيحيين.

وبالرغم من أن عروج قد أصبح سيدا حاكما للجزائر، فإنه لم يكن لينسى أين كان قد بدأ قوته، مدينة جيجل التي منح لسكانها امتيازات كبيرة كانت قد جعلتهم في ظرف قصير في الحال الأكثر رخاء غير أنه في الوقت الذي أرسى فيه خير الدين للمرة الثانية مع أسرته، كانت مجاعة فظيعة تضايق كل البلد، فقرر إذن أن يقوم بعمليات قرصنة ضد المسيحيين، للحصول على وسائل التخفيف عن شعبه. وقد دخل إلى مرسى جيجل في اليوم التاسع من ذهابه، حاملا الوفرة والغنى والرخاء. وكان سعيد الحظ باستيلائه على عدة مراكب محملة بالحبوب والمواد الغذائية، من كل نوع، وزعت على السكان. هؤلاء الذين لم يكتفوا عن شكر العناية الإلاهية التي أرسلت لهم خير الدين في هذه الظروف حيث كانت نجداته لهم ضرورية جدا.

وتجددت عمليات القرصنة كثيرا، وفي الفصل الرديء كان القراصنة يأتون كالقادة لقضاء فصل الشتاء بجيجل. وقد أراد الحظ أن يلتقي خير الدين في هذه الفترة بالقرصان التونسي، سنان الرئيس، وراحت مراكبهما المتجمعة مكونة أسطولا من أربعين قطعة تجوب سواحل إسبانيا. كان ذلك حين كان الموريسكيون الأندلوسيون الذين أنهكتهم المقاومة المتصلبة العنيدة، يتركون مساكنهم التي غزتها جيوش الكاثولكيين. وقد أتى خير الدين بعدد معتبر من المهاجرين الذين التقطهم من شواطئ الأندلس.

وبقدر ما كانت تسمح له حاله البحر فإنه كان يطارد مطاردة شديدة سفن المسيحيين التي أضربها ضررا فظيعا.

وقد كان أيضا في هذه الفترة أن رأى خير الدين في منامه حلما رائعا، تنقله الأخبار العربية:

في ليلة من الليالي كان قد استسلم إلى سبات عميق، وفجأة رأى النبي محمدا أمامه، متبوعا بالخلفاء الأربعة، أبو بكر وعمر وعثمان وعلي، وكل أصحاب رسالته السماوية، تقدم بالقرب من فراشه، وبصوت مهيب، قال له: "إذن فقد تركت المدينة الحسناء؟ فأجاب خير الدين: لا يا نبي الله: لكن القلق استولى علي. وقد جئت لأطرد عني الضجر بصحبة أصدقائي الجيجليين الأوفياء".

فقال له النبي صلى الله عليه وسلم:"اجعل ثقتك في الخالق يا خير الدين، وعد إلى الجزائر".

وفي هذه اللحظة، استيقظ خير الدين فاتحا عينيه، وهو ما يزال يشاهد شمس السماء والأرض هذه تخرج من الغرفة في مركبه الرائع. وتنفيذا للأمر الذي كان قد تلقاه توا من فم النبي نفسه، اتخذ خير الدين قرارا بالعودة إلى الجزائر [1].

وفعلا فقد أعطى خير الدين الأمر سريعا لتجهيز كل المراكب لنقل فرق الجيش إلى الجزائر. غير أن الرغبة في أخذ بجاية أولا من الإسبان، قد غيرت هذا الموقف. لقد نصب الخيام في السهول المجاورة لجيجل وشرع في السير في رتل هائل، يتكون من الترك وأهالي جيجل لمحاصرة حصون بجاية. والبدء في مشاريعه الجديدة من هناك. لقد كان على مسيرة يوم من جيجل عندما التقى بوفد من قبل سكان الجزائر، الذين كانوا يترجونه بالعودة إلى مدينتهم، حيث وعدا بالاستقبال الأكثر حفاوة. وقد اقتضت هذه الظروف بأن يتخلى خير الدين عن محاصرة بجاية التي كانت تهمه كثيرا، وتوجه نحو الجزائر حيث ذهب لتأسيس وصاية نهائيا بربرية تحت رعاية تركيا، تأخذ مكانها في المراحل التي تستحق الذكر للبحر المتوسط.

وابتداء من هذا التاريخ أحدثت القرصنة المنظمة على نطاق واسع أضرارا مرعبة بالبحرية التجارية للدول المسيحية، مما اقتضى عدة مناورات للردع من قبل هولندة وإنجلترا وإسبانيا. وفي سنة 1611، دمر أسطول أرسل من قبل القوة الأخيرة

---

[1] - غزوات ساند رانج.

بقيادة ماركيز سانت قـرو (DU MARQUIS DE SANTA CREUX) جزيـرة كركنـة، وعند عودته أحرق مدينة جيجل. ولم تحفظ الرواية المحلية أية ذكرى لهذا الحدث.

ومنذ رحيل خير الدين، والهجوم المباغت لدى ماركيز سانتا حتى سنة 1664، لم يعرف تاريخ جيجل أي حادث يستحق الذكر.

وكان يسمح للسكان حلفاء الأتراك بتعاطي القرصنة، وبحظوة متميـزة، لأن المـراسي الأخـرى كانـت لا تتمتـع بـنفس الامتيـاز. و قـدكانوا يعتـصمون في شـبه الجزيرة، ليجعلوا الغنيمة التي يغنمونهـا في أعـمال قرصنتهم في مـأمن مـن محـاولات هجوم القبائل. وقد عانت مرارا شواطئ إسـبانيا وبروفانـسيا وإيطاليـا مـن سـلبهم، وبالرغم من الاحتياطات التي اتخذت من قبل هؤلاء السكان بإشعار الناس، مـن رأس إلى رأس، بوجود المراكب الشراعية المشتبه فيها، فإن اقتحام القراصـنة لـشواطئنا لم يكن أقل. حيث كانوا يجرون إلى الأسر كل من كان يباغـت مـن الرجـال، والنـساء والأطفال.

وبما أن القراصنة كانوا قد اخترقوا معاهدات السلم والتجارة مع فرنـسا، بنـوع من الإهانة سنة 1662. فإن لويس XIV الرابع عشر قد بعث إلى المتوسـط لمطـاردتهم على التوالي، القائد بول، وهو بحري مخيف للقراصنة، وفرسان هوكينكور وتروفيـل، وأخيرا الدوق دي بوفور الذين حملوا ضد بـواخر الجزائـريين، وألحقـوا بهـا خـسارة كبيرة، ومن دون أن يتمكنـوا مـن وضـع حـد لاعتـداءاتهم. وقـد صـممت الحكومـة الفرنسية ألا تتوقف عند هذا الحد. وأن تحاول إقامة منـشأة عـسكرية وسـط بلـدهم بالذات. وكانت فعلا الوسيلة الفضلى لردع وقاحة القراصنة الأفارقـة، هـي الاحـتلال الدائم لموقع سـاحلي حيـث يمكـن رصـد تحركـاتهم، وجعلهـم يخـافون ويرتـدعون. ولممارسة القرصنة عليهم عند الحاجة، كما كانوا يمارسونها عـلى غـيرهم دون عقـاب. وقد اهتم الكردينال مازاران منذ وقت طويـل بهـذا المـشروع وحـدث لـويس XIV

الرابع عشر [1] مرارا فيه، مذكرا إياه بأن ملك فرنسا لا يمكنه أن يقوم بأي شيء أحسن شرفا من أن يحتل احتلالا شريفا، من أجل تحقيق الهدوء والأمن. ومنذ ذلك الحين عرفت شواطئ إفريقيا من قبل الأميرال دوكان، وشوفالي كليرفيل، مراقب التحصينات العسكرية.

وبعد تردد طويل بين بونة وسطورة وبجاية وجيجل، قررت الحكومة الفرنسية أخيرا احتلال هذا الموقع الأخير سنة 1663. وقد استشير ضباط البحرية الأكثر تميزا، ومن بينهم دوكان، وقد كانوا أجابوا كلهم بأنه يمكن الإقامة فيه بقليل من النفقات، فهو مرسى جيد، قادر على استيعاب خمس عشرة سفينة، اثنتا عشرة منها مراكب شراعية، وكل صنادل (مراكب) البلد [2].

كانت حملة إذن قد قررت سنة 1664 وقد أعطيت القيادة العامة للدوق دي بوفور ([3]) الذي عين أميرال فرنسا، عند موت أبيه قيصر فاندوم سنة 1663، وكان لابد من أن تكون معلومات بوفور الملاحية محدودة جدا. وقد جعل منه مزاجه المتقلب، وتردده وشذوذه، قائدا عسكريا سيئا جدا. غير مدرك للنزاعات والخصومات التي راحت تنفجر بين مختلف ضباطه الملازمين، وكان حتما أن يعرض إلى الخطر والمجازفة انتصار هذه الحملة، التي كانت لها، كما سنرى النهاية الأكثر حزنا.

وكان الجيش البري قد تكون من ست (سرايا) من الحرس وعشرين سرية لكل من فيلق بيكاردي ونافار ونورماندي والرويال، بعدد 4650 رجلا.

وهناك من جهة أخرى عشرون سرية من المراكب بـ 800 رجل، وفيلق مالطي بمائة وعشرين فارسا، وفيلق إنجليزي، وفيلق هولندي، فضلا عن مئات من المتطوعين.

---

[1] - بيليسون، تاريخ لويس XIV الرابع عشر.

[2] - مخطوط مستودع البحرية.

[3] - فرنسوا دي فرندون، الدوق دي يوفور الملقب بملك الهال، كان ابن قيصر فاندوم وحفيد هنري IV الرابع.

وقد كانت فرق الإنزال قد وضعت تحت أوامر الكونت دي قادان، الجنرال الملازم، وعين لمساعدته ماريشالين لمعسكرهما: دي لاقيوتيير، والكونت دي فيفون. وكان بيتانكور يقود المدفعية والفارس دي كلير فيل يقود الهندسة.

وقد كان الأسطول بقيادة الأمير بول ودوكان، يتكون من 63 شراعية، منها خمسة عشر مركبا وبارجة، و19 سفينة حربية، من بينها 7 من مالطة، وعدة سفن عمارة بحرية أقل قوة ([1]).

وقد وجهت عدة مذكرات إلى لويس الرابع عشر تبين مناورة النفوذ السري والمصالح الخاصة في المصلحة العامة لتأثيرات السرية النفوذ السري، التي كانت ستعرض هذه الحملة إلى الفشل. وسنقتطف حرفيا من هذه المذكرات المقاطع الأكثر أهمية: "عند عودة السيد الدوق دي بوفور من الحملة البحرية نحو شواطئ بلاد البربر، وصل إلى تولون يوم 29 مارس 1664. وقد أظهره الكونت دي فادان الذي كان قد وصل يومين من قبل أميرالا، حالما كان قد أرسى في الميناء. وقد قوبلت هذه الزيارة بكل حفاوة. وأرضت كل واحد منهما كذلك. وقد جاء السيد دي لاقيوتيير من آفينيون إلى تولون مع السيد دي قادان لا يفارقه. حتى لا يمكن أن تكون هناك علاقة أكثر من تلك التي ظهرت بينهما، ولا برهان على صداقة أكثر من صداقتهما. وقد عاش السيد دي لا قيوتيير خلال الإقامة في هذه المدينة مع السيد دي قادان كأنه في منزله. وقد زار السيد دي بوفور السيد دي قادان مرارا.

وكان لا يقوم بأي شيء من غير إشراكه، وقد وجد عنده كل المراسلات التي كان يرغب فيها، وحقيقة أستطيع القول، إنهما كانا في وفاق تام. ولم تكن تظهر بينهما أية نوايا سوى خدمة الملك".

---

[1] - في مجموعة الأختام المكتبية الإمبريالية يوجد رسم إعدادي (مخطط) لجيجل، ممثلا الأسطول الفرنسي وهو يرسو، مع أسماء كل المراكب الرئيسة، ومن بينها: سان لويس، التي يوجد على متنها دوكان.

وقد وصل السيد الكونت دي فيفون بمركبتين هما، الملكة والقيصر، مما حتم على السيد دي بوفور من مضاعفة العناية بأعداد الجيش للإبحار. وقد بعث عدة مرات إلى شوفالي دي كليرفيل، الذي كان بمرسيليا أن يأتي لتلقى أوامره. وقد انطلقت سفن جلالة الملك يوم 21 جوان للذهاب إلى مرسى ماهون (MAHAN). وقد وصل السيد دي كليرفيل الى تولون أربعة أيام من بعد.

وبناء عليه بدأت عقدة كل المنازعات تتكون سريا. إن شوفالي دي كليرفيل لم يكن يجهل أنه حسب العرض المفيد الذي كان قد قدمه السيد دي بوفور بالبلاط، عن مركز جيجل، قد تقرر الاستيلاء عليه، من غير اعتقاد بأنه أكثر اعتبارا لخدمة الملك، غير أن السيد دي كليرفيل كان قد حدد هدفه إلى بونة، والذين يزعمون أنهم أحسن اطلاعا يقولون إنه قد حصل على معقل فرنسا، وتسهيل تجاري، وأن الملك هو سيد بونة. وإذن فقد يزيد السيد دي كليرفيل من ثروته، بسبب التسهيل التجاري. أما الآخرون كونهم مراقبين لتحصينات المملكة، فقد كانوا لا يستطيعون العمل من غير أن يزعجوه، مثيرين نخوته، وأنه هكذا كان له ذلك من الجدوى أكثر أن يذهب إلى بونة لكل أنواع الأسباب، بما أنه موقع معتبر حيث كان يمكن إقامة حصار حقيقي. ومهما يكن، ولكي يحقق هدفه، فقد استعمل كل شيء من غير أن ينسى حتى بلاغته لينال عطف السيد دي بوفور، ليقنعه بأن نصائحه يجب أن تشفع بالتنفيذ: ونجح في ثمانية أيام أكثر من الوقت الذي كان لا يجرؤ أن يأمله، ومنذ أن عرفت سطوته. فقد استخدم فكره ليستميل السيد دي قادان.

"وقد اكتشف السيد دي كليرفيل وهو على المركب أنه لا يستطيع قيادة السيد دي قادان الذي كان لا يصدق بكل أناجيله، وقد بدأ بإرعابه والإيحاء إليه بتوجيه نواياه إلى السيد دي لاقيوتيير، وأقنعه كذلك بأنه سيجعله لثقته حاكم بونه، الموقع المفيد للغاية. وبما أنهما أخيرا سيربحان كلاهما بواسطة التسهيلات التجارية مبالغ طائلة.

"وقد أقلع السيد دي بوفور من تولون يوم 2 جويلية 1664 تماما تحت إمرة السيد دي كليرفيل، وبعد توقف خلال بعض الأيام في جزر البليار حيث احتشدت السفن

المالطية، ظهرت العمارة في أعالي بجاية يوم 21 من نفس الشهر، وقد راحت تلقي المرساة قبالة المدينة على بعض الشيء أقل من مرمى مدفع. وهناك عقد السيد دي بوفور لمعرفة ما إذا كان لابد من الهجوم على هذه المدينة. وقد أيد السيد دي قادان الذي كان في الزورق يعاين المدينة عن قرب، هذا الرأي لثلاثة أسباب: السبب الأول أن المدينة كانت تبدو مهجورة، وأنه كان يشاهد عدد من الناس يحملون أمتعة قديمة على أحصنتهم للهروب، والسبب الثاني أن المدينة كانت تبدو محصنة جدا، ومن السهل أن تكون بعيدة عن الهجوم ببعض الإصلاحات والترميمات، أما السبب الثالث والأخير، فقد يكون هذا فتحا مشهود في خدمة الملك.

"كان قادان لا يطلب إلا ثمان ساعات للاستيلاء عليها، وكان يجيب والنصر على رأسه لكن السيد دي كليرفيل الذي كان حبله مشدودا إلى بونة، و إلى التسهيلات التجارية التي لابد أن تجعل منه ثريا، كان مع الرأي المضاد، وساند الرأي القائل إنه يجب عدم تحمل المسؤولية وبما أن أوامر الملك كانت تحث على مهاجمة جيجري، و إن أهمل تنفيذها فالأجدر أن يكون الهجوم على بونة أفضل من بجاية.

"وعند ذاك أجاب السيد دي قادان أن هذا لا يمكنه أن يمنع الآخر، وأنه بعد الاستيلاء على بجاية أولا، يكون الهجوم على جيجري، ثم بونة لكن الهجوم على بجاية كان ينبغي أن يسبق الآخرين، حيث إن الحصول على هذا الموقع المجاور لجيجري، كان يمنع الموريس من تقديم أية نجدة، عندما تحاصر هذه المدينة الأخيرة. وقد راح السيد دي بوفور المتردد طويلا يستسلم إلى تفكيره عندما رده السيد دي كليرفيل عن وجهة نظره، مذكرا إياه بأن نفس الاقتراح لمهاجمة بجاية قد رفض عندما قدم في المجلس الملكي. و إذن فقد جعل الخوف من التوبيخ ألا يقع هجوم بجاية".

و استأنف الإبحار، وفي يوم 22 جويلية على الساعة السابعة مساء أرسى الأسطول في حوض جيجري، واستقبل ببعض الطلقات المدفعية، ورفع الدوق دي بوفور الراية الحمراء وأعطى، الأوامر بإطلاق مدافع الكور على المدينة. وفي الغد تم الإنزال بالقرب من مرابط حيث يوضع اليوم حصن دوكان.

وقد بدا على الضفة مائة وخمسون أو مائتان من الموريس مترجلين، وحوالي ستين فارسا. غير أن مدفعية المراكب أرغمتهم على الارتماء في العيص (أشواك الغابات). وقد كان السيد دي فيفون أول من نزل إلى اليابسة على رأس فيلق بيقاردي الذي كان يقوده. وكان متبوعا لساعته تقريبا بفوج من الحرس، وفوج مالطة الذي كان يقوده الكونت دي قادان. وقد سانده السيد بوفور، ودي قاستيلان، ودي كليرفيل، ودي لاقيو تيير بقوة.

وقد قاتل القبائل الذين هرعوا أثناء الليل بأعداد كثيرة بشجاعة. وأخيرا كانوا قد أرغموا على مغادرة المدينة على الساعة الثالثة. وقد احتلها الجند، ورفعوا العلم الفرنسي والصليب فوق منارة المسجد. وتقول الرواية إنه لم يعثر في جيجل إلا على عشرة مدافع من الحديد، وبيوت حقيرة جدا، وفظيعة جدا، لا يكاد يصدق أنها كانت مسكونة من قبل أناس. وقد أخذت الفرق مواقعها في السهل الصغير الذي يمتد بين المدينة والجبال، وتحصنت هناك كما استطاعت ([1]). ويؤخذ عن دي كليرفيل أن أعمال هذا التحصين لم تعط العناية التامة.

وفي يوم 24، اقترب مفاوضون قبائليون حاملين أعلاما بيضاء من المخيم الفرنسي. واقتيدوا إلى حضرة الدوق دي بوفور، وطلبوا منه ماذا جاء يعمل ببلادهم. وقد عمل السيد دي بوفور على إجابتهم عن طريق مترجم أن ملك فرنسا لم يكن يحقد إلا على قراصنة الجزائر، وأن قصده في احتلال جيجل من طرف جيوشه لم يكن إلا للحصول عل موقع محصن، حيث يمكنه أن يراقب سفنهم، وأن رغبته كانت هي العيش بسلام مع سكان البلد، الذين يقدم لهم مساعدته للتحرر من طغيان الأتراك واستبدادهم. وقد تظاهر القبائل بأنهم استمعوا إلى هذه الإجابة برضى، وابتعدوا زاعمين أنهم سيبلغون إلى الشيوخ.

[1] - بالمكتبة الإمبريالية رسم منجز لهذا التاريخ سنقدم منه نسخة توضح لنا المواقع المحتلة من قبل الجيش الفرنسي.

وقد كان السيد الدوق دي بوفور السريع الاغترار بالنفس، يعتقد أنه لم يبق هناك إلا الاتفاق على شروط السلم. غير أن المراكز المتقدمة كانت قد هوجمت في نفس اليوم، وقد اندفع الأهالي بضراوة إلى الجند الذين كانوا يخيمون في الخلاء في هدوء وسكينة تامة. وقد فاجأوا البعض، وكادوا لا يتركون الوقت للآخرين للالتحاق ببعضهم. وقد جعل هذا الدرس القاسي بعض الشيء الضباط أكثر حذرا. وتم الاهتمام سريعا بإقامة عدة مراكز محصنة.

وقد بني حصن صغير، غربا على جبل مجاور، ما زالت منه بعض الأنقاض باقية (حيث يرتفع اليوم حصننا سان فيرناند).

وفي يوم الغد عاد رجال آخرون من القبائل إلى المخيم، وأظهروا تأسفا على ما وقع واعتذروا عن الاعتداءات التي كانت قد قطعت الاجتماع بهم، ناسبين ما وقع إلى قبيلة منشقة، مؤكدين على أن القسم الأكبر من القبائل كان يجنح للسلم. واستعلموا أيضا عن رفاقهم الذين بقوا مسجونين في أيدي الفرنسيين، وظهروا خائفين أكثر منهم متجرعين للإهانة. لم يكن من الصعب طمأنتهم بهذا الشأن. وأكدوا من جديد رغبتهم في التمسك بالسلم.

غير أن واحدا من هؤلاء القبائل أظهر صراحة أكثر قائلا للضباط الفرنسيين: أتعجب من أن رجالا يستطيعون أن يعيشوا في رخاء، ويرتدون ملابس أنيقة، ولهم الأموال، يأتون إلى بلد حيث الأشياء الجميلة نادرة جدا، ولا يوجد أي شيء ينتفع به. نحن نصف عراة، لا نكاد نحصل على مانقتات به، لكننا نحب القتال، لقد ألفنا ذلك، ومهما يقال لكم فإنكم سوف لن تنالوا السلم أبدا. اذهبوا إذن، وابحثوا عن بلد آخر حيث تستطيعون القيام بحرب تكون أكثر فائدة لكم.

ولم ينتظر السيد دي بوفور وغيره من رؤساء الجيش طويلا قبل معرفتهم أن هذا القبائلي لم يختلهم، فقد عادت الهجومات منذ اليوم التالي، ولم تكن خلال شهر إلا اعتداءات مستمرة ومتعاقبة، واحتجاجات سلمية. وكان الجند لا يستطيعون أن

يخرجوا من خنادقهم المحصنة، من غير أن يتعرضوا لموت محقق تقريبا، وكانت فرق صغيرة من رجال القبائل مختبئة في الجبال المجاورة، تراقب المخيم ليلا ونهارا. غير أن هؤلاء القبائل الأوفياء لعاداتهم القديمة كانوا يهرعون أفواجا، إلى السهل للمتاجرة مع الجند، فيبيعون لهم سلعهم الغذائية. "وتنقل الرواية أن كثيرا منهم كانوا عراة كاليد، أما البعض الآخر فكان لهم دثار فضفاض أبيض يغطيهم من أعلى الرأس إلى نصف الساق، أما البعض منهم فكانوا مسلحين بسيوف كبيرة لكن الأغلبية لم يكن لديهم إلا المزراق (أصغر من الرمح القصير)، من خشب متين وثقيل. وكان لفرسانهم المكسوين مثل المشاة، قطعة من قماش بأسفل سيقانهم لشد مناسخهم (مهامزهم) الطويلة (ذات النصف قدم). وكانت سروجهم تشبه البرادع ولم تكن ألجمتهم إلا خيوطا رديئة. وكانت خيولهم كلها صغيرة وضامرة، إلا أن هؤلاء القوم كانوا يدفعون بها من أعلى جبل إلى أسفل منه مسرعة".

وكان القبائل الذين يظهرون ثقة قلما تنتزع من أعداء يأتون إلى المعسكر، يقدمون حتى خيولهم للضباط، ويطلبون العلاج من الجراحين الفرنسيين لجرحاهم. ويروي بيليسون (PELISSON) أنه كان لهم جحود بالنسبة للجراح الوحيد الذي كانوا، حسب عادة غريبة، يضربونه عددا محددا بالعصا على كل جريح خطير كان يموت بين يديه، عقابا له تقريبا، وحسب أهمية الميت ثم مقدار ثمان قطع من الريالات لتخفيف ألمه، ولحضه على العمل أحسن في المستقبل". ومن المؤكد أن القبائل كانوا متأرجحين بين نفورهم من المسيحيين، وحقدهم على الأتراك. ولم يكن بوفور يعرف التأثير على تردد القبائل ليكونوا في صالحه، ويرجح هكذا الكفة لجانبه، وقد كان يمكنه احتمالا أن يقوم بسياسة ماهرة للارتباط بمساعدة الهدايا والهبات بالأشخاص الأكثر تأثيرا عاملا على التلميح لهم ببعض الامتيازات. لقد اكتفى بالوعود المبهمة التي كان القبائل أنفسهم مفرطين فيها آملين أن تستوي الأمور من تلقاء نفسها. ويعتقد شاهد عيان ذكر من قبل بيليسون أن انتهاك مقابر المسلمين التي كانت موادها قد استعملت في بناء القلعة الصغيرة غربا، قد ألحق الأذى كثيرا بإنجاح

المفاوضات، ونحن نعرف احترام العرب للأموات: هذا النوع من الوحشية هو الذي صرفهم أكثر من أي شيء آخر".

وفي غضون ذلك الوقت كان الأتراك يقتربون من جيجلي، وكانوا قد طلبوا من القبائل أن يسمحوا لهم بالمرور عبر أراضيهم لكي يأتوا لقتال المسيحيين. ولم يسمح لهم بذلك هؤلاء القبائل الذين يعتزون بحريتهم، غير أن مرابطا مبجلا جدا يدعى سيدي حمود نصح بالجهاد، وأبرز في أعين القبائل كفرنا وانتهاك مقابر المسلمين، كأسباب كافية للاعتداء. وقد قرر القبائل متأثرين بفصاحة الرجل الصالح أن يوافقوا بالمرور لفرق الأتراك وأن يلتحقوا بهم لمهاجمة المعسكر الفرنسي.

ولم يكن الدوق دي بوفور، والكونت دي قادان يعرفان شيئا عن هذه المفاوضات، إلا أنهما لم يكونا يجهلان أن فرقا عديدة من رجال الجانيسار قد خرجت من الجزائر. وكانت الميليشية التركية قد تجمعت عند سماع أول خبر للإنزال الفرنسي، وشرعت في المسير. وحتى نجعل الفرق في موقف مقاومة الزوبعة التي ستهجم عليها، فليس هناك من وقت يضيع لتسريع أعمال الدفاع التي أهملت منذ شهرين، إلا أن رؤساء الجيش الفرنسي كانوا غير منسجمين مع بعضهم. فالدوق دي بوفور كان لا يحب دي قادان طبعا: بسبب الريبة، والحسد له على نفوذه، وانعدام قدرته على تلقي النصيحة، فقد كان متصورا أنه أعطي مراقبا مزعجا ومضايقا لأعماله، بإعطائه دي قادان وكانت بعض الشخصيات المتميزة التي تبعت الدوق والتي تشكل مجلسه السري، الطامحة في كسب كل ثقته تعمل عل تحريضه، وإثارة حسده عوضا عن أن يجدوا في العمل على جعله يقلع عنها.

كان الكونت دي قادان من جانبه تنقصه هذه المرونة العقلية اللازمة للانقياد لأولئك الذين كان يجب لهم الطاعة. كان يؤدي واجبه بحكمة وحزم. لم يكن ممكنا أن تقدم له أية مؤاخذة، لكنه كان مكروها بسبب التناقضات المستمرة التي كان يعانيها، كان يبتعد شيئا فشيئا عن الدوق دي بوفور وعن رؤساء الجيش الآخرين.

وكان بهذه الحياة المنعزلة الصارمة يجهز هو نفسه على تخريب كل الثقة التي كان حساده يريدون أن ينتزعوها منه.

وكانت الشكوك والارتيابات موجودة حتى قبل الوصول إلى جيجل. لقد تم الإبحار بهذه الوضعية السيئة التي ما فتئت تزداد سوءا أثناء الإقامة في مايوركة. وقد كان المتآمرون المتسترون من قبل قد شرعوا مباشرة بعد الإنزال في الظهور جهارا. وكان الضباط المنحازون إلى صفين يتصرفون حسب تعاطفهم، وكانت المصلحة العامة تعاني منهم كذلك. كان لاقيوتيير خاصة عدوا لقادان، وكان لا ينقاد له إلا على مضض. "وقيل إنه جعل من هذا الجيش الصغير جيشين. حيث لم تنجر الشخصيات المحترمة إلى التنافس فحسب، بل حتى الخدم فبعضهم مع الدوق والبعض الآخر مع الكونت دي قادان". [1]

وقد أمرت الحكومة التي اطلعت على هذا الخلاف الدوق دي بوفور أن يستأنف الإبحار مع ترك القيادة لقادان والأمر بتحسين موقع جيجل والثبات فيه بشكل وطيد. وكان الأتراك خلال كل هذا الوقت قد وصلوا أمام المدينة المحصنة وكانوا يهاجمون بشراسة مركزين كل جهودهم على القلعة الصغيرة من الغرب. وكان قبطان من فيلق النورماندي يدعى قاديلان يشرف على هذا المركز قد رد رجال الانكشارية مرة أولى لكن هؤلاء رجعوا منقضين بعناد كان قادرا على كل شيء لو آزرته المهارة والنظام. لقد قتل قاديلان على الثغرة بعد آية من الإعجاب والتقدير. عندما كان ينظر بحذر من فتحة الشرفة ما إذا كان الأتراك يباشرون الهدم أسفل الجدار، أصابته رصاصة بندقية فتيل وأردته قتيلا بين أيدي جنوده ([2]) كان الحصن يسقط عندما وصل الكونت دي قادان ودي بوفور نفسه في الوقت لإجلاء ملازمه الأول المشرف على الموت. كان لورو في آخر نهايته يتحطم.

---

[1] - بيليسون تاريخ لويس XIV الرابع عشر.

[2] - يحكى أن قاديلان قد زار أمس أصدقاءه الخاصين بالمعسكر وكان قد أكد لهم أنه يقبلهم لآخر مرة.

إن المراسلة الرسمية عن هذه المعركة تخوض في تفاصيل من المفيد الإشارة إليها هنا [1].

"كنا قد علمنا أن معسكر الجزائر يسير لمهاجمة خطوطنا، وأنهم كانوا يجلبون معهم المدافع، وقد وصلنا الخبر عنهم يوم 28 سبتمبر. وفي أول أكتوبر شاهدنا ظهور معسكرهم (مخيمهم) على بعد يوم من معسكرنا وقد اقتربوا يوم 2 أكثر، وأرسلوا ببعض الرجال على الجبل المقابل لمعسكرنا للاستكشاف، الذين استقبلوا برشقة مدفعية. وفي اليوم الثالث صباحا رأيناهم يطوون الخيام لقطع مجرى صغير، ويمرون وراء الجبل، ولم يتمالك الشجعان من جيشهم عن النزول إلى السهل، خيالة ومشاة، والإتيان للمناوشة ضد مراكز حراستنا الصغيرة التي كانت محصنة جدا، وقد أزعجتهم مدافع خطوطنا كثيرا، وقضت على بعض الفرسان، وقتل لهم بعض الرجال أيضا بطلقات من بنادق الفتيل. وبعد أن رأوا أن الوضع في غير صالحهم، صعدوا. وقد ارتاحوا في اليوم الرابع من الشهر. وفي الخامس منه على الساعة الرابعة صباحا، هاجموا برجنا الأول في ضوء القمر المنير جدا. لقد تقدم خمس مائة من الأتراك في الطليعة تحمل الرماح باليد والسلالم مدعومة بخمس مائة فارس مسلح بالبنادق، كان هناك سلم مركوز يمكن التسلق عليه ثلاثة في وقت واحد. لقد صعد عليه تركي وبيده حبل التسلق يريد أن يقفز إلى البرج، لكن الملازم الذي كان بالداخل منحه ضربة من الحربة فأخطأه وكرر، وقد فعل أحسن من المرة الأولى، وأصابه في عنقه، فأسقطه عند سفح البرج. ثم أسقط قاديلان الذي كان قائدا للبرج والملازم لورو السلم. كانت نيران العدو قوية جدا واستمرت بنفس القوة حتى النهار. وقد أطلق المتلقي لها قادلان أيضا نارا كثيرة، وقذف بكمية من القنابل التي دمرت ثلاث محارق عند أسفل البرج، والتي قتلت كثيرا من رجال العدو. وكان قاديلان قد قتل بسويعة من بعد بداية الهجوم بطلقة من بندقية فتيل، ولم يحل ذلك دون أن يقوم الملازم

---

[1] - مراسلة المعركة الحربية يوم 5 أكتوبر بين الفرنسيين والأتراك والموريس الجيجليين ـ مخطوط المكتبة الإمبريالية.

المعاون من طرف مساعده، ومن طرف خمسين رجلا من الفيلق النورماندي الذين كانوا في الحراسة هذا اليوم مع ستة من حراس السيد دي بوفور، وأربعة من حراس دي قادان، لم يحل ذلك دون أن يقوموا بواجبهم له جيدا، وأن يدافعوا عنه جيدا وقد أطلقت مدافع خطوطنا ومراكبنا نارا كثيرة.

وبعد ساعة من طلوع النهار أرسل السيد دي بوفور الذي رأى أن نيران العدو كانت تخفت قريبا مع عشرة رجال لاطلاع على أخبار الذين هم داخل البرج، هذا الذي أخبر أن القائد المشرف قد قتل، وأن الباقي هم مرهقون جدا. وما أن قدم الرقيب جوابه حتى أعاد الأعداء على البرج نيرانهم التي استمرت طويلا، ولما لوحظ أن نار البرج قد فترت قليلا تقررت نجدته بتزويده برجال جدد. كان براندون مؤمرا مع 250 رجلا من الحرس، ودي ميللي وكامبا نول مع 250 رجلا آخر لبيقاردي، وسانت مارث مع 200 رجل لنفار و50 من الحرس الملكي الذين كانوا قد جاؤوا ليحلوا محل الذين هم بالبرج. لكن الملازم لورو الذي كان داخل البرج لم يرغب قط في أن يستخلف إلا بعد أربعة وعشرين ساعة.

لقد سار كافيون مع المفرزة المنتدبة لمطاردة الأعداء الذين كانوا أسفل البرج، والذين أطلقوا نارا كثيرة زعزعت جندنا قليلا. لكن السيد دي قادان الذي رأى أن نيران الأعداء الذين كانوا قد انزلقوا بحوالي 600 بين الصخور بالقرب من خطوط نافار، كانت تضايق كثيرا رجالنا الذين كانوا من غير تغطية ومن غير حماية، عمل على انسحابهم داخل الخطوط بنظام جيد. ويمكن أن يقال إن العمل كان بحق شجاعا جدا وقويا. ومهما كانت نيران العدو قوية فإن نيراننا قد أسكتتها. لقد استمر العمل خمس ساعات وقد انسحب الأعداء الذين رأوا أنهم لم ينجحوا بخسارة 50 تركيا قحا قتلوا بنفس المكان، وقتل 50 من أهل البلد، وجرح ما يقرب من 200 وجرح من الموريس حوالي 400".

"وكانوا قد نصبوا في ليلة الهجوم بطارية من ثلاث قطع لدك البرج، لم تستخدم بها قط إحدى قطعنا، ولكن في الغد أتي باثنين منها إلى أسفل البرج مما أجبرهم على

سحب قطعهم، وحتى معسكرهم لأنهم كانوا متضايقين من المدفعية. لقد عرفنا من فرنسي كان قد نجا أنهم عازمون على القيام بهجوم عام، لكنه لم ينجح، كان لابد أن يأتي 400 موريس إلى المرابط، و2000 إلى بيكاردي ومقدار ذلك إلى نافار، باستثناء البرج الذي كانوا يعتقدون أنهم سيحتلونه سريعا جدا، لكن الموريس الذين رأوا أن البرج كان يقاوم كثيرا، وأن الأتراك كانت قد ساءت معاملتهم، قرروا نهب معسكرهم، وكانوا قد أخبروا عن ذلك، وأعطوا أمرا به وكان ذلك سببا في أنهم قد انسحبوا بأكثر سرعة مما كان يتوقع.

كانت فرقة الموريس قد انسحبت للذهاب إلى البذر، وقد كانت وهي منسحبة تسخر من الأتراك على أنهم لم يكونوا قد تغلبوا علينا. لقد بقي معسكر الأتراك دائما في نفس المكان، إنهم قد أرسلوا يطلبون النجدات من الجزائر وقسنطينة، يطلبون المدافع الكبيرة، في حالة ما أريد لهم أن يهاجمونا، لقد حفروا خندقا صغيرا على قمة الجبل، حيث يقيمون حراسة. ولم يفعلوا أي شيء منذ يوم الهجوم. نأمل أن تكون لدينا أخبار عما قد قرر القيام به في الجزائر.

"وكان سانت مارث قبطان في نافار قد قتل في نفس المكان، وقتل جيراردي الملازم في بيكاردي، وجرح حامل الراية لنفار، وملازم من نفس الفيلق وقتل أو جرح ثلاثون جنديا. وكان للسيد دي بوفور اضطراب كبير في إحدى ساقيه".

لقد قرر الدوق دي بوفور الذي رأى ضراوة العدو انتظار نجدات من فرنسا قبل أن يبتعد لتنفيذ الأوامر التي كان قد تلقاها. وقد وصلت يوم 22 أكتوبر بعض السفن التي كان يقودها الماركيز دي مارتل إلى جيجل، حاملة فرقا من الجيش بقيادة دي قاستيلان، نقيب في فيلق بروفانسيا. كان على هذا الضابط أن يرسل تقريرا إلى الملك عن الحالة في البلد. ومنذ أن كانت هذه النجدة قد نزلت اقترح الدوق هجوما عاما على معسكر الأتراك الذين كانوا قد استلموا المدافع الكبيرة من الجزائر. كان الرأي جيدا. لم يكن هناك أي رأي آخر مخالف يؤخذ به في هذه الظروف: كان يجب أن يمنع الأتراك من تنصيب بطارياتهم بأي ثمن، لكن قادان لم يرد أن يوافق على ذلك.

لقد كان هو السيد: فالأوامر الأخيرة المتلقاة من فرنسا كانت تلزم الدوق دي بوفور أن يستأنف الإبحار، وأن يسلم له القيادة بصفته رئيسا للحملة. وقد تحجج الكونت لرفضه بتعليمات الحكومة التي كانت تلزم بأن لا يتم الخروج عن الخطوط أبدا إلا بعد التأكد من ضمان موقع جيجل. كان قادان يجهل حقا وصول المدفعية إلى معسكر الأتراك. وكان الدوق دي بوفور الوحيد الذي يعرف عن طريق مترجمه ديراند، لكنه لم يتكلم عنه أبدا في المجلس. ومن المعتقد أن الكونت دي قادان كان سيسارع إلى تبني رأيه لو كان يعرف الحقيقة.

وقد أبحر الدوق دي بوفور يوم 27 يائسا من نجاح المشروع، ملقيا التبعة على قادان، ومحملا إياه كل مسؤولية الأحداث اللاحقة. ولكنه بدلا من أن يتجه للقيام بهجوم مضلل ضد الجزائر، انصرف يعترض في مياه تونس وبعد ثلاثة أيام من ذهابه أرسل السيد دي تيرال على متن المركب "المركيز" لإخطار السيد دي قادان أنه قد أوقف أمام بجاية مركبا محملا بالسلاح وأن موريس جيجل قد تلقوا كثيرا من المدافع الثقيلة، ونجدة معتبرة من الرجال. ومن الواضح أنه كان على السيد دي بوفور في هذه اللحظة أن يأتي لمساعدة جيش الإنزال، تاركا جانبا كل ما يتعلق بحب الذات حتى لا يكون التفكير إلا في إنجاح الحملة.

ويوضح السيد دي قاستيلان الذي كلف من قبل الملك بتقديم تقرير عن الأحداث في هذه العبارات:

"بعد رحيل السيد دي بوفور الذي كان يوم 27 أكتوبر توسلت إلى شوفاليي دي كليرفيل بأن يعمل جديا بالخطوط التي كانت تبدو سيئة جدا، وكثيرا على طول شاطئ بيكاردي حيث لا يوجد إلا معبر جاف من جهة الفيلق الملكي - النور ماندي ونافار. وبما أنني أذنت لنفسي أن أخبر جلالتك قلت له إن هذه كانت غايته، وأن الوقت ليس وقت إدارة البورصة، عندما يكون الأمر متعلقا بإنقاذ الجيش، وشرف سلاحه، وأنني أعلنت له صراحة بأنني سأسمح لنفسي بأن أطلع بذلك، ولكن، لأنني كنت واثقا أنه لم يكن لديه الأمر والنهي حتى الآن، لا أتهمه بذلك. - إن السيد دي

قادان كان يجد حسنا كل ما سيفعله، وقد كلفني أن أبلغه بذلك من قبله، وقد أجابني بأن الخطوط كانت في حالة جيدة، وأن خوف الضباط الرئيسيين كان يفسد كل شيء، وأنه كان يتعجب من أنني أهمل الرأي العام، وأنه مسؤول أمام جلالتك عن كل شيء. فأجبته عن ذلك بأنني لم أر أنه كان ممكنا المحافظة على معقلنا الأول، إن كان للأعداء مدافع، مثلما لم أشك في ذلك أكثر، وأنه لما كانت تغطي الجزء الأكثر ضعفا من خطوطنا والتي كانت تحفظ لنا الأعالي، فإنه كان من الضرورة القصوى إيجاد وسيلة لضمانه، أو لإملائه بالطين حتى الشريط، أو بعمل جدار من الحجر من جهة الأعداء. فأجابني: أما المدافع فليس عندهم إلا قطع رديئة، لا تصلح إلا للتقشير، وأما وسائل تعزيزها فهي بطيئة جدا، وهي غير مجدية حسب المدعو دي كليرفيل. لقد التمست من السيد دي قادان أن يعقد مجلس حرب خاصا لحل أمر مافعل، وبعد التصريح به بحضور السيد المقتصد، والسيد دي لاقيوتيير ودي ميللي الذين اجتمعوا هناك، وبحضوري أنا، تعلل السيد دي كليرفيل لهم بنفس الأسباب، واعتبر من الضعف المسارعة التي كانت لنا في العمل، وقال إنه كان يجب إدارة بورصة جلالتكم، وتوظيفها في أشياء أكثر إفادة وأن هذه قضيته بحكم ما وضع فيه من ثقة، غير أن وجهة نظره كانت إقامة معقل بين المرابط وبيكاردي، والقيام بعمل خفيف لمساعدة انسحاب الخيالة.

غير أن عددا من ضباط الجيش الذين كانوا يتذمرون عاليا من أحاديثه وتهاونه، كانوا قد عرفوا خلاصة الاجتماع، وأعذار السيد دي كليرفيل، تجعل الجند يعملون من أجل لاشيء، ومن بينها عمل السيد دي بيار على تعزيزخطه، وقد أردت أنا مع المتطوعين وبعض من الجند الشروع في المعبر على نفقاتي. لكن السيد دي كليرفيل قال إن هذا يوحي بالخوف إلى الجنود الذين سيعتقدون أنهم أكثر تعرضا في خنادقهم إن جعلناهم يعملون من جديد، بالإضافة إلى أنهم كانوا أكثر تعبا، وأنه بالنسبة للمعبر فسيهتم به، وأخيرا فإن عناده كان كبيرا جدا، ومهما ألححت على النقطة الأخيرة، فإنه لم يكن ممكنا العمل لا في المعقل، ولا في الخط، وأنه يقول دائما ليس له هناك ما يقوم به.

"وبينما كان الأعداء يعملون على ربوتهم ولما كان من السهل الحكم من خلال سماكة المتراس الذي كانوا يتجولون عليه اثنان أو ثلاثة في آن واحد أن هناك بطارية، فإن السيد دي قادان أراد حتما أن توجه لهم إحدى القطع من البطريات الأربع بين المعقلين، الأمر الذي جعل لاقيوتيير يكرس له ليلة 28 و29، لكن العمل توقف على الساعة الثانية بعد منتصف الليل، بسبب نقص الرجال لجرها، وعند مطلع الفجر بدأ الأعداء بثلاث طلقات مدفعية، قتلت الثانية منها ثلاثة جنود من المعقل المتقدم، ودمرت نصف المتراس، واستمروا بحماس وهمة كبيرة جدا، مما جعلها عاجزة في ظرف ثلاث ساعات بخسارة ثمانية أو عشرة جنود. والحقيقة لقد رأينا من خلال الكور الذي كان مستخدماعندهم من عيار 48 وقطعة ذات 38. كان السيد دي كليرفيل الذي لم يكن يتوقع ذلك، قد فاتته الحيلة حينئذ، وأن السيد دي قادان قد قرر مهما حدث المحافظة على أعالي المتراس المخرب، الذي تتوقف عليه حتما حماية الجيش. لقد سير إليها ثلاثة فيالق قضت فيها ليلتي 29 و 30. من غير أن لا نشك في أننا سنكون مهاجمين عند طلوع الفجر، غير أنني قمت بإتمام إقامة بطاريتنا ذات الأربع قطع، لكنها لم تقصف صباحا ست قصفات حتى كانت بطارية الأعداء التي دعمت بقطعتين هذه الليلة، والتي كانت أقوى من بطاريتنا، قد فككت اثنتين، وقتلت المدفعيين وجعلت الاثنتين الأخريين غير صالحتين تقريبا. ثم اشتغلوا بتخريب معقلنا الثاني الذي كان مقابلا للخط النورماندي، وقد خربوه خلال ساعتين، وبعد قتل أو إعجاز ثمانية عشر أو عشرين جنديا، ورقيبا واحدا، بحيث لا شيء يشغلهم في الخارج، صوبوا قطعهم إلى المعسكر، والجدار الحجري للنورماندي.

"كان حينئذ ذعر الجيش قد بلغ أشده، وهو يجد نفسه من غير معاقل ومن غير خطوط دفاعية، مرهقا من المدافع في المخيم، وأربعة آلاف تركي على الأعالي كانوا ينتشرون قليلا نحو الأسفل، ومن جانب الجبل، للاقتراب منا، ولأخذنا من الخلف، وكل الموريس محتشدون على النار التي كانوا يشعلونها على الجبال. وحتى كان هناك حوالي مائة من الأتراك الذين جاءوا ليكمنوا في الصخور ليلا، بالقرب من نبع كان أمام معسكر نافار، وعلى مرمى من مسدس المعقل المتقدم. وقد اعتقد السيد دي قادان

أنه لابد من انتهاز هذه المناسبة لطمأنة الفرق قليلا، ولهذا عهد إلى السيد دي بريزاك مع خمسين من ضباط الصف في مهمة لتكليفهم بالمؤخرة وقطعهم، حين كان مائة وخمسون من المشاة يشتبكون معهم من الأمام آخذين إياهم من المقدمة. لقد نفذ المدعو دي بريزاك الأوامر بصرامة إذ بوجوده قد قتل من الأعداء الذين كانوا يغادرون أماكنهم خمسة وعشرين أو ثلاثين في المكان، لكن المشاة لم يشتبكوا قط، فارتمى الأتراك إلى الصخور وأطلقوا النار على الخيالة الذين كانوا قد أجبروا على الانسحاب بخسارة حامل علم الخيالة، ورقيب في الخيالة، وثلاثة فرسان، وبعض الجرحى، من بينهم السيد دي ليوني، الذي تلقى رصاصتين من بندقية الفتيل، واحدة في الساعد، والأخرى في الجسم، وقد قتل حصانه عليه.

وقد اتخذ دي قادان في هذه النهاية القرار الذي كان قد اتخذه دائما في البقاء على رأس المركز الأمامي أسفل المعقل المخرب مصمما على الهلاك والبرهنة على أنه لم يكن جديرا بالشرف الذي منحته له جلالتكم. لكن السيد دي لاقيو تيير الذي كان يتصور أنه سيقدم له أكبر خدمة جليلة بالمحافظة على فرق الجيش التي كان يرى لها الهلاك المؤكد جاء إلى بيتي حيث ذهبت لأكتب إلى جلالتكم، ولأعرض عليه الأمور عن طريق مركب كان يعبر، ولما كنت قد أسمعته رسالتي فقد قال لي إنه من غير المجدي في الشدة التي نحن فيها، وقد حان الوقت لاتخاذ قرار الانسحاب، ومن غير دفاع وبدون أية وسيلة، وأنه جاء ليطلعني كرجل كانت جلالتكم قد أرسلته، للاطلاع على جميع الأمور.

"أعترف أنني لم أستطع أن أكتمه ألمي في هذا الوقت، واشمئزازي من هذا الاقتراح، لكنه أضاف أنه يجب حتما عقد مجلس حرب، وبسرعة، وأنه كان يترجاني أن أذهب لأطلبه من قبله، ومن قبل كل الجيش من السيد دي قادان ولما لاحظ أنه كان يشق على تحميلي بهذه المهمة، فإنه قال لي: بصفتي رجلا من رجال الملك، لم أستطع رفضه، وأنه كان يحملني خسارة كل فرق الجيش، ورأيت بعد ذلك أنه كان من واجبي أن أذهب لإخبار السيد دي قادان، لقد وجدته في نفس الشعور

الذي كنت قد تركته عليه، والذي كان الهلاك أو بالأحرى اتباع قرار اليأس، على الانسحاب، لا يريد عقد مجلس خاص بهذا الموضوع. لكن لما كان عدد من الضباط قد جاءوا وأعلموه بأن اجتماعات تعقد بالمخيم، وأنه حتى الجنود كانوا يتحدثون بصراحة عن الشدة التي هم فيها، أعتقد أن الأمر يتعلق بحضوره لإعادة الأمور إلى نصابها، وعلى هذا الاعتبار نزل إلى المخيم.

كان السيد دي لاقيوتيير قد ناداني لمعرفة إجابة السيد دي قادان، فقلت له إنه لم يرد عقد المجلس قط، وأنه كان بالأحرى عازما على الموت على أن ينسحب والأولى أنه كان متعجبا من اقتراحه، الذي لم يتكلم عنه السيد دي كليرفيل في كلماته صباحا. وقد أكد لي السيد دي لاقيوتيير أن هذه كانت وجهة نظر دي كليرافيل الذي قاده إلى السيد دي قادان ليصرح له هو نفسه، وأنه مع ذلك كان يجب عقد مجلس: ليس من حق دي قادان رفضه في هذه الظروف، وأن قرار الانسحاب كان متخذا من جميع ضباط الجيش، وقد اعتبر ضروريا لإنقاذ الفرق، ولم يكن ليستطيع منعه، وأنه سيكون مستاء جدا أن يكون مقترحا من قبل آخر غيره، معتقدا أبدا أنه لم يقدم لجلالتكم خدمة أكثر اعتبارا، وأكثر نفعا، وأنه كان يترجاني أن أذهب إلى دي قادان لأقول له كل هذه الأمور. بالتأكيد أنني لم أرد أن أفعل، غير شاعر بحمل النفس على الاقتناع، ولا للاستعداد لفعل ما قد يفعله. لقد ذهب إذن للبحث عنه على رأس المخيم بيكاردي، حيث كان يتنزه منفردا، فقاده إلى عنده، وقال له كل الأسباب التي كانت تجب لإرغامه على الانسحاب. وكذلك فعل دي كليرفيل فيما بعد، وبما أنه كان متصلبا متشبثا جدا برأيه إلى أبعد حد، فقد طلبوا منه أن يعقد مجلسا على الأقل، الأمر الذي وافق عليه أخيرا. وقد جاء إليه كل العقداء، ونقباء الحرس، والملازمين العقداء، والسيد المقتصد. ولما كان لي الشرف أنني كنت مبعوثا من قبل جلالتكم، ومكلفا بمقاصده الأخيرة، فقد ترجوني أن أعلن عن وجهة نظري عن الظروف الحالية. فقلت لهم علاوة على أن عدة أوامر كانت جلالتكم قد تفضلت بإعطائها إياي، التي قدمت عنها عرضا إلى السيد دي قادان، لقد طلبت مني على الخصوص أن أقول له إن إرادته أن تقام الخطوط الدفاعية، وأن تحصن جيدا، بحيث يمكن بناء قلعة وأنني كنت معتقدا

أننا سنجتهد جميعا بحرارة وحماس لاتباع أوامره أما عن الظروف الراهنة فإنني لم أفكر فيها إلا عندما تكلم عنها السيد دي لاقيوتيير الذي جاء يبحث عني من أجل ذلك، وأنني نسيت ما كان قد قال، وأنني رجوته أن يوضح أمام الملإ. لقد ظل السيد دي لاقيوتيير موافقا على كل شيء، وبعد أن قدم خطابا مطولا عن الأسباب العاجلة التي كانت تجبرنا على الانسحاب طلب وجهات النظر، لكن لما لم يكن أي شخص قد بدأ في إبداء رأيه، فقد نهض فجأة من غير بث في الأمر. في حين أن كل ضباط الجيش وجمعا كبيرا من الجنود كانوا ينتظرون نتائج المجلس، وعندما تأكدوا أنه لم يصل إلى نتيجة أظهروا كثيرا من الغم من قلة الاحتمال التي يمكن أن تكون للتصدي لهجوم، ووجدت أنه قبيح جدا إن لم أقترح أي شيء، ولا أقول وجهة نظري. وأخيرا كان الحديث بحرارة أكثر من ذي قبل، وتم الرجوع إلى عند السيد دي قادان الذي توسل منه أن يحضره، وكذلك مني. وهذا ما فعلناه. لكن وبما أنني أجبرت أيضا على الكلام، فقلت إنني أسهبت كثيرا في شرح مقاصد جلالتكم، وأما بالنسبة للأمر فإنني أتكلم بدوري، وهذا ما فعله كل واحد وبصوت واحد، واستخلص أن الانسحاب كان ضرورة حتمية، وأننا كنا من غير دفاع، ودون وسيلة، مع أعداء أقوياء مستعدين. إنه وإن كنا آملين في الاحتفاظ بهذا المركز فإن الخطأ كان من أولئك الذين قد أكدوا ذلك لجلالتكم، وأن عليهم الإجابة عما كانوا قد ادعوا. وقلت بدوري لم أستطع مقاومة الشعور العام لكثير من الرجال البواسل، و أنني أتمنى كثيرا جدا، أن نتمكن من القيام ببعض النشاطات القوية قبل الانسحاب، ومع أنني أقوم بكل ما ينبغي أن يقوم به السيد دي قادان، الذي قال إنه كان مستاء لمغادرة المركز، لكنه قد يبقى الأخير في خطوط الدفاع، مادام لا يراد البقاء هناك. وعلى ذلك نهض الكل وفكروا في الانسحاب الذي كان قد قرر للغد يوم 31 وفي الليل شحن السيد المقتصد القوت والتموين إلى المراكب، لكن بما أنه قد كان هناك جزء من قبل، فقد أرسل السيد دي مارتل السيد دي لابريار من جانبه متطوعا إلى السيد دي قادان ليقول له إنه رأي أنه لايستطيع أن يحمل الجنود من غير أن يكون له ترخيص منه. وقد أجاب السيد دي قادان الذي وجده المسمى دي لابريار بالمركز المتقدم، لم يقو على أن يعطيها أياه،

بما أنه أجبر على الانسحاب من قبل الجيش، وأنه لم يكن يوافق على ذلك، مما توقف عليه شحن المؤونة. وذهب السيد دي لاقيوتيير إلى السيد دي قادان ليقدم له مرة ثانية عرضا أن الجيش يائس، وأنه لا يمكن الرد أبدا على الجنود الذين كانوا يقولون علانية إنهم سيصبحون أتراكا، وأنه يعرف عنه كل شيء، ويشاع عنه أنه كان سبب الفشل المحقق لأفضل فرق المملكة من غير أن تستفيد جلالتكم أية فائدة. وأخيرا قال له السيد دي قادان الذي كان يرى استحالة الصمود لهجوم في ذهول كبير جدا إنه لم يعد معارضا أكثر في الانسحاب شريطة أن يصرح كل الضباط الرئيسيين أنهم كانوا قد رأوا أنه ضروري حتما، وأنه كان يريد من شوفاليي كليرفيل أن يعد الخطة ويمضيها الأول، ما كان قد نفذ من قبل السيد لاقيوتيير. وبالنسبة لي أنا الذي كنت أرى أن السيد دي قادان كان يشرع في التوقيع للإبحار لكن بكيفية كانت تظهر الاشمئزاز وأن كل الجيش كان يريد ذلك، وأن الضباط الكبار كانوا هم الذين يطلبونه منه وأنه من جهة فإن المركز قد أصبح لا يمكن المحافظة عليه، فقد اعتقدت أنه باستطاعتي فعله. لقد كتب السيد دي قادان في نفس الوقت سندا إلى السيد دي مارتل أشهده به على أنه كان يوافق على الإبحار، وبما أنه كان ضروريا، فقد كان يترجاه بأن يستخدم في ذلك عنايته. ها هو إذن الانسحاب المقرر نهائيا ليوم 31 أكتوبر بدخول الليل، غير أنه طوال النهار كان يركب الخدم، والمرضى الذين كانوا على الأقل تسع مائة. لكن وقوع صعوبة أحدث بعض التنغيص في المعسكر، وهي أن ربان السفن الذين كانوا قد اجتمعوا لتقاسم فرق الجيش وجدوا أن الماء كان ينقصهم في الغالب، والبعض من مؤونة (البسكويت)، الأمر الذي جعلهم يخبرون السيد دي قادان بالتأخير إلى يوم الغد. وقد كان الجنود الذين قد أعلموا بالركوب منذ المساء يقولون علانية إنه يراد سحقهم تحت وطأة اليأس، وفي هذا الوقت كان فوجان من المراكب الملكية اللذان كانا قد انتدبا إلى مركز قريب من بيكاردي انصرفا، لكن كان هناك أحد من المراكب المسترجعة. لقد كان ذعر المعسكر حينئذ كبيرا [1]،

---

[1] - لقد أصبح الوضع العسكري حينئذ حرجا، لقد كان الجنود منخذلين من جهة تماما. كان دائما يقال لهم إن الموريس ليس لديهم مدافع كبيرة، ولم يكونوا يستطيعون أبدا اختراق الخطوط الفرنسية، إنه شوفالي دي=

وكان كذلك سرور الأعداء الذين تلقوا النبأ بعدد كبير، وبصوت مرتفع، مما كان سببا في أن السيد دي قادان رأى جيدا أنهم قد أخبروا عن الارتباك الذي نحن فيه، وعن انسحابنا في الغد، أعتقد أنه من المناسب القيام به ابتداء من المساء، وأراد أن أذهب لأتحدث إلى السيد مارتل الذي كان يعرف ظروف الوضع وقد قبل أن يكون هذا مساء، وقد وعدني بالعمل على تقريب المراكب وزوارق الإنقاذ وكانت السرعة هي المحصلة الأخيرة في هذه المناسبة. لكن الذي كان أكثر إزعاجا، هي الضرورة الحتمية التي أدت إلى التخلي عن المدافع. لم يكن للسيد دي ليستانكورت الرافعة قط لرفعها، ولم تكن أيضا للسيد مارتل كما قيل لي.

"لقد جئت لتأدية الإجابة إلى السيد دي قادان. وعقدت جلسة مصغرة عن الكيفية التي أعدت للانسحاب. كان قد تقرر أن توزع الفرق إلى فيلقين، أحدهما كان يبحر من المرابط (دي كان)، والآخر من المدينة. وقد أعطى السيد دي قادان الاختيار إلى السيد دي لا قيوتيير الذي أخذ المدينة مع فيالق نافار، ونورماندي وفرقة الملك، وكان للسيد دي قادان المرابط مع الحرس، وبيكاردي والسرايا الثمانية للمراكب والخيالة.

"لقد حمل السلاح بدخول الليل، وتقاطرت فرق المرابط من جهة المرسى على طول المستنقع، وسارت مضطربة في المكان المسمى المرابط من غير ذعر، مهما كانت طبول الأتراك تسمع مقتربة من خطوطنا. وقد أدخل السيد دي لاقيوتيير من جهته

= كليرفيل الذي كان يردد للجميع وأن غسالات الجيش وحدهن تكفي للدفاع عن القلعتين ـ كان قد اجتهد في أن يوزع حماقة ثقته على الجيش، والآن وقد حطمت الخنادق الخارجية، كان الأول من ارتاع ولم يفعل شيئا للرفع من معنويات الجنود المترنحة.

هؤلاء ينبغي الاعتراف لهم، لقد كان معهم بعض الحق في التشكي. كانت تنقصهم الأشياء الأكثر أساسية: إنهم بدون ألبسة، ومن غير أحذية، ولم يكن لهم حتى الحطب لطهي اللحم المملح الذي كان قد وزع عليهم. وكانت الأمراض تعاقبهم بقسوة. لقد كانت القافلة الأخيرة قد حطمت بعض المؤونة لكنها كانت فاسدة في معظمها. كان الجنود لا يتحدثون عن شيء إلا عن الاستسلام للأتراك.

فيالقه الثلاثة إلى المدينة، بعد أن ترك فرقا صغيرة من الحرس على طول الخطوط، لتغطية الانسحاب.

"في حين أنني ذهبت بأمر من السيد دي قادان لرؤية إن كان السيد مارتل قد هيأ كل زوارق النجدة والقوارب، لكنني تفاجأت كثيرا بوجودها كلها في سفنها. لقد عبرت له عن غيظي، وكانت الخلاصة أن أعطاني زورق نجدته مع ثلاثة متطوعين من أتباعه، وذهبت لجمع كل ما استطعت، ووضع أشخاص داخلها لقيادتها، وقد دنا البحارة الذين لم يجرؤوا على الاقتراب من المرابط خاصة لأن الأعداء كانوا يطلقون النار يمينا ويسارا من موقع الإبحار، واقتربوا من الخطوط على العاشرة مساء، وقد انسحبت فرقتنا الصغيرة إلى المدينة بعد مناوشة خفيفة. ولما كان الإبحار الذي كان يقع من المدينة كان أكثر صعوبة من الآخر، كون الموقع أكبر وأكثر اتساعا، فقد أرسل السيد دي قادان إلى هناك أفضل قسم من زوارق النجدة لكن كل العناية التي أمكن اتخاذها، لم تمنع المائتي رجل المنتدبين لحراسة الثغور وجدران المدينة، الذين كان معهم قليل من الضباط، لم تمنعهم من ألا يغادروها بسرعة كبيرة، وبتهور مفرط للإبحار. وقد دخل الأتراك إلى هناك في نفس الوقت، وقتلوا البعض منهم، لكن القسم الأعظم كان قد أنجد في القوارب من قبل السيد دي قادان، الذي كان في هذا الوقت قد اندفع إلى المدينة، والذي تعرض كثيرا إلى خطر نيران الأعداء، ثم بعد ذلك ذهب إلى المرابط الذي لم يكن خاليا من بعض الفوضى لقلة القوارب التي راحت تبحث عن انتشال الجند بسبب الخطر الذي كان هناك عند الإبحار، وأن الوقت قد كان ضحى. كان السيد الشوفالي هوتفاي مؤمرا وقائدا مع مائة رجل من الحرس للانسحاب. كان السيد دي قادان الذي وضع فتيلا في المخزن لتفجيره بعد ربع ساعة من خروج الكل، وكلف بتفجير مدفع بقي وترك عشرين رجلا مع رقيب للمقاومة حتى تصبح القوارب قليلا في عرض البحر، وأبحر مع جنود كانوا قد بقوا، ومجموعة من الضباط كانوا متطوعين هناك في زوارق النجدة التي وجدت هناك بعدد غير كاف. ودخل في واحد منها مع السيد دي قرينان دو دي روسيت، ملازم بنافار، وركبت أنا في آخر، واتخذ زورقا آخر السيد دي مونت جيمونت ودي كالفيسون،

الذي كان مؤمرا على لاهاس، ودي قاسيون، وأحد المدعوين ديقلو. وفي أخر وضع ماريني ودي هوتفاي، وفي أخر السيد دي كودري (أو قودني) وشوفالي دي سان جيرمان. لقد خرج الأتراك الذين قدروا من خلال تحركنا الأمر المعزوم عليه من كل الجهات واعتلوا المرابط من غير مقاومة. وقد أسرع النقيب المنسحب في هذا الوقت بسبب المخزن الذي سينفجر إلى الزورق الذي بقي له وللجنود. لكن الأتراك دخلوا فجأة بحيث إن معظم الجنود قد قذفوا بأنفسهم للسباحة، وباغتوا قارب شوفالي وكودوني، الذي لم يستطع أن يقلع لأنه كان مثقلا جدا من جهة اليابسة، ولما أراد الأتراك الدخول إليه والهجوم عليه، فقد اندفع الشوفالي دي سانت إلى الأرض والرمح بيده، مع ثلاثة من الجنود، فقتل اثنين منهم، وصدهم. ولم يستطع قودوني متابعتهم لأنه قد جرح بطلقة من بندقية الفتيلة في ربلته أولا، لكن الأعداء جاؤوا مجتمعين عليهم، فارتموا إلى السباحة للحاق بالباخرة. وقد تلقى الشوفالي دي سانت جيرمان طلقتين من بندقية الفتيلة في الماء ولما كان يدخل إلى القارب أصابته واحدة في الرأس فأردته قتيلا".وقد رجع السيد دي قادان الذي كان يرى عشرين من الجنود يسبحون بزورقه للنجدة تجاه المرابط تحت نيران الأعداء (وفعلت تلك التي فعل مونتجيمانت اقتداء به) ومع كثير من المجازفة فقد أنقذ منهم أربعة عشر. وقد كان ديقلوا قد جرح هناك في وجنتيه، وقتل بحار وجرح اثنان ([1]1). ويمكن القول إنها اللحظة الساخنة الوحيدة التي شوهدت عند الانسحاب، إذ أنها بقيت ربع ساعة بالتمام، وبعد ذلك ذهب للالتحاق بالمركب وقد أبحر الجيش. إنني أستطيع أن أؤكد كل هذه الأمور لجلالتكم كشاهد عليها، ولم أغادر السيد دي قادان خطوة واحدة".

الإمضاء: قاسطيلان

[1] - إن الانسحاب الذي كان قد تم (Assez-bien) أصبح فيما بعد حسب تعبير السيد دي قادان مخجلا كالفرار. لقد أرغموا علي التخلي عن 36 قطعة من المدفعية منقوشة بسلاح فرنسا، بسبب انعدام الوسائل الضرورية لتحريك ونقل هذه الكتل الثقيلة.

وقد ذبح حوالي ثلاثين جنديا من الذين كان عندهم الإدمان أقوى من حب الحياة من قبل الأتراك على بعض براميل الخمر المهجورة.

لقد كلف هذا الانسحاب المفجع ألفا وأربع مائة رجل، وثلاثين قطعة مدفعية من الحديد المصبوب، وأكثر من خمسين مدفع هاون، وعند نزولنا بجيجل عام 1839 وجدنا جملة من هذه المدافع مطروحة، ومهجورة على الشاطىء، وقد جمعت ووضعت في مخزن للمدفعية، حيث يمكن رؤيتها إلى جانب بعض بقايا أخرى من الحديد، والكرات والقطع من الدروع التي ليست لها قيمة أخرى سوى تلك التي تتعلق بمصدرها. وفي هذا الصدد ينبغي أن نضيف أنه من خلال الأشياء نفسها التي حفظت لهذا العهد من قبل الأهالي، يمكننا أن نعرف تقريبا عدد الأعداء الذين كان على قادان أن يواجههم. وفعلا فإن الإعلان عن هجوم المسيحيين، والنداء للدفاع عن البلدة (الموطن) ظل يجذب أمام جيجل الوحدات (السرايا) القتالية لكل مجموعة الجبال الممتدة من بونة إلى بجاية. وقد رأيت أحيانا بين أيدي القبائل صفائح سيوف بشكل المسمى بريكي (Briquet) بهذه الكلمات المنقوشة عليه: الحرس أو الملكي، (Gardes, ou bien Royal) وقد أعطاني أحدهم ختما من الحديد بقطر عشري، يحمل شارة من عشر أوراق موضوعة 2،4، 4 يقرأ حولها: شارل بومنوار (CHARLES DE BEAUMANAIR).[1]

ومدافع قلعة بني عباس يعود مصدر قسم منها إلى تلك التي تركت بجيجل من قبل الفرنسيين، وهناك أيضا دليل على أن سكان هذه الناحية، مع أنهم يقطنون أكثر من أربعين موقعا من مسرح الحرب، إلا أنهم جاؤوا ليشاركوا في المعركة، وبعد رحيل الفرنسيين نقلوا إلى عندهم غنيمة نصرهم. غير أن هذه المدافع كان لابد من إحضارها إلى بجاية عن طريق البحر ثم سحبت من هناك حتى القلعة، صعودا مع وادي الساحل. ويحمل أحدها نقشا على المعلاق بحرف (ل L) في طوق ملكي وكل فواهة القطعة مغطاة بأزهار الزنبق.

وقد وجدت أشياء أخرى عجيبة يمكن أن تكون ما أسميه نذورا (EX.VOTO) للمقاتلين المسلمين العائدين سالمين من الحرب ضد الفرنسيين في جيجل، من قبل السيد

[1] - لقد أعطيت هذا الختم إلى متحف الجزائر.

المقدم بايان في مسجد سيدي الجودي لدى بني يعلا. هـذه الغنـائم العظيمـة نـوع مـن الأشياء الثمينة للحرب المقدسة، المعلقة على جدران المصلى، تحتوي على خوذة وتنورة ورماح تحمل إحداهما حروفا منقوشة على وجهي نصلها: يقرأ مـن جهـة (VINCERE AVT TIORI SOKI DEO GLORIA) مـع شـعار رسـم عليـه إوز مـع هـذه الكلـمات حوله:1637 VIRTS TVNERI SVPERSTIS وعلى الوجه الآخر من النصلة: PROARIS ET FOCIS FIDE SEDCVI VIDE والباقي غير مقروء وقد امحى من جراء الصدإ.

وقد رأيت كذلك بين أيدي أحد القبائل صفيحة معدنية مستديرة مـن النحـاس بقطر مضعف لقطعة ذات خمسة فرنكات مـستخدمة احـتمالا لتـزيين شـكة. كـان منقوشا على هذه الصفيحة صورة لقلق له تاج كومت داخـل في عنقـه - كـان المنقـار يحمل شريطا بهذه الكلمة: FORTVNA بـالحروف القوطيـة. وأخـيرا، في قاعـة الغنـائم لفـرع قسنطينـة حيث وضعـت الأسلحة المأخـوذة من العدو أثناء غـارات جيوشـنا منذ أن أصبحنا أسيادا للبلد، قد وضعت عدة رماح طويلة يرجع تاريخها بـلا شـك إلى عهد لويس الرابع عشر (XIV). وبعد هذا الاستطراد لنعد إلى اتباع الأحداث. لقد تبع الشؤم الذي كان يبدو ملتصقا بـالجيش الفرنـسي إلى سـواحل بروفانـسيا. فالطـاعون الذي كان أنذاك منذ شهر في طولون قد منع الجيوش من الإنـزال هنـاك، وقـد تلقـت المراكب الأوامر بالتوجه إلى جزر هيرس وقد غرق مركب القمر وهو أكبرهـا فجـأة في طريقه إلى هذه الجزر إلى الأعماق. وقد ضـاع فيهـا ألـف ومائتـا رجـل مـن فيلـق بيكاردي، وجمع كبير من المتطوعين، وعدد من خيرة ضباط الجيش. ولم تنقـذ سـفينة تجارية من الأسطول إلا حوالي ستين رجلا بـزوارق نجـدتها. وكـاد مركبـان آخـران الشمس والقيصر يجنحان.

كانت هذه هي عاقبة الحملة التي كـان تـدبيرها سـيئا جـدا. ويبـين تقريـران موجهان إلى الملك أحدهما، الذي كان قد قرئ وهو للسيد دي قاسـتيلان أحـد أفـضل ضباط الجيش والآخر للسيد دي قادان، الجنرال الملازم بوضـوح أن الخاتمـة المفجعـة للمشروع (العملية) قد خضعت للتأثير السيىء للسيد دي كليرفيل. وفي أحد التقارير

المطولة والمذكرات العجيبة التي مازلنا نقدم منها مقتطفا، كان السيد دي قادان يجيب عن ثلاثة اتهامات، كان الدوق دي بوفور أو مريدوه يوجهونها ضده:1 على أنه أكد الإبقاء على جيجري من غير السيد دي بوفور، 2 لعدم إرادته مهاجمة العدو عندما اقترح السيد دي بوفور، 3 لتركه المدافع.

وبعد التأكيد بجلاء أن أخذ بجاية كان قد ضمن امتلاك جيجل، بما أنها من المدينة الأولى التي كان التقاعس في أخذها، والتي جاءت منها نجدة المدافع التي قررت الانسحاب من جيجل، ويفحص السيد دي قادان تصرف الدوق دي بوفور وينهي هكذا: "يكفيني أن جلالتكم تدرك من خلال ما قلت له إن السيد دي بوفور في البداية لم يكن قد قدر جيدا قوة الموريس، وأنه في النهاية لم يقدر كثيرا سوء ضعفنا إلا بعد أن رأى فعل كثير من الأخطاء من قبل تصرف جماعة من المتآمرين الذين كان قد استمع إليهم كثيرا، لم يرد أن يقتنع بالانتصار لعدو كان يحتقره كثيرا. وأنه اعتقد بعده، بأن التوفيق السيء لجيوش جلالتكم سوف لن يكون إلا مهمتي وسوف لن يكون له قسط قط من فضيحتي...

"أخيرا، سيدي، لا يهمني أن تعتقد جلالتكم، أن السيد دي بوفور كان مخطئا بمغادرة الجيش، وعدم العودة إليه، لكن يهمني أن تعرف جلالتكم أنه إن ترك المدفع فلأنه لم تكن لدينا الوسائل اللازمة لحمله في المراكب، إنها سواء كانت غلطة السيد دي مارتل وضباط المدفعية، أو كانت غلطة السيد دي بوفور فهي على الأقل ليست غلطتي...

"أعتقد أنه بعد البرهنة على أن كل سوء حظنا في إفريقيا سنة 1664 أخذ مصدره من الفتنة التي زرعت بين السيد دي بوفور وبيني أنا، إذ أنني قمت بكل ما كان من واجبي لتفاديها. وللبرهنة على ذلك، قد لاحظت لجلالتكم، أنه قد تمت معارضتنا على مهاجمة بجاية التي من الممكن أن تخضع في مدة ثماني ساعات، وأنه أهملت تحصينات جيجري حيث كنت قد وضحت أنه لا يمكن البقاء إن لم نتدارك ضعف الموقع بقوة العمل. وأنه لإبقاء السيد دي بوفور على رأس الجيش ضد أمر جلالتكم الذي كان

يأمره بأن يرابط بين بجاية وجيجري، كان السيد دي كليرفيل قد تكهن بأن الموريس كانوا دائما ضعافا بحيث إنهم لم يتلقوا أبدا نجدة من الأتراك، وأنهم لا يريدون حتى استقبالهم. وبناء على تكهناته الكاذبة تركت الخطوط الدفاعية غير محصنة، وقد أهمل وضع الجيش في حالة صمود ضد هجوم...

"ستعرف جلالتكم بلا شك أن كل جنايتي هي أنها قد تكون عدم قبولي باقتراح قد قدمه السيد دي بوفور عن طريق السيد دي كليرفيل، وهو الذهاب إلى الأعداء بخمس مائة رجل، والاقتراح في نفس الوقت الذهاب إليهم بقوة كافية، ثم الموافقة على الذهاب إليهم بخمس مائة رجل وعدم القبول بإمضاء اقتراح السيد دي بوفور. لقد تعللت بأن الأعداء كانوا متخندقين بالقرب من معسكرهم، وأننا سنكون أكثر ضعفا لمهاجمتهم، وأن هذا لا يمنع من أن نخفق، وأن هذا الشؤم كان سيلقي الرعب والهلع في كل الجيش، وللاقتراح بأن يذهب إليهم الجيش بقوة كافية كان عندي أسباب الاحتمال لنجاح ملائم والأمل في إعطاء التشجيع للجيش...

"لم يترك المدفع إلا بسبب انعدام أو نقص الوقت أو العناية أو الرافعات أو رافعات السفن... ليس الخطأ من الجيش كون التمرد والهلع كانا قد تسببا في التسرع في الانسحاب، ولا أعني بكلمة التمرد إلا التمرد عن الخدمة، وبكلمة الهلع إلا اليأس من النجاح، والرغبة في الانسحاب اللذين كان قد زرعهما السيد دي كليرفيل في قلوب أولئك الذين وجدوا أنفسهم قابلين للتأثر بهذه الحركة. إنني ألاحظ التقاعس عن الخدمة في التباطؤ الذي أقيمت به بطارية كنت قد أمرت بها لتخريب إحدى بطريات الأعداء، وبانعدام التطبيق للأوامر التي كنت قد أعطيتها لإزالة عمالهم. لو كانت الطاعة تامة في هذين الأمرين، لكان لنا متسع من الوقت لانسحابنا. وقد كان هذا النوع من التمرد إذن سببا جزئيا في ترك المدفع، أقول سببا جزئيا، لأن الذعر قد أثر في ذلك. لقد انتشر من فم السيد دي كليرفيل، و بعنايته لقي استجابة بعض الضباط، وبحيله انتزعت مني الموافقة على الانسحاب. لقد رفضت منه الاقتراح من فم السيد دي قاسطيلان، وللمرة الثانية جمع المجلس لحملي على ذلك، ولم يتمكن في

المرة الأولى من حملي على الموافقة إلا على شرط أن تحمل الذخائر والمدفع والمرضى، ولم يرد السيد مارتل قط حمل الذخائر والمدفع والمرضى. ولم يؤد الذعر إلى الانسحاب فحسب بل عجل فيه لقد جعل القباطنة الذين كانوا يحرسون ثغرات المدينة ينسحبون.

"لو أن السيد دي بوفور، عوض أن يرابط في البحر كان قد جاء لإجلاء الجيش منذ أن عرف أن مدافع كبيرة قد وصلت إلى الأعداء، لكنا أكثر قوة للدفاع أو أكثر أعدادا للانسحاب. أعرف أن السيد دي بوفور كان له أمر جلالتكم بأن يذهب ليرابط أمام الجزائر، لكن هل يبقى الأمر عندما يزول سببه؟ يمكن إذن التعجب حقا من كون السيد دي بوفور لم يعد إلى الجيش، لو نعتبر الفوائد التي كنا نجنيها من رجوعه. قد نتعجب ربما بحق، أنه تخلى عن الجيش، لو تراعى ظروف مغادرته. ثلاثة أيام قبل أن يبحر، قد شوهدت فرق تمر، والعلم يرفرف على معسكر الأعداء، والتي قوبلت بثلاث طلقات من بندقية الفتيل. لقد قدرت أنا والجميع بأن هذا لا يمكن أن يكون إلا نجدات بالمدفع الكبير الذي وصل إلى الأعداء. لقد تظاهر السيد دي بوفور بأنه لا يصدق وأنكر...

"مع أنه من المحتمل أنه كان قد اطلع على الحقيقة قبل أن يبحر، وقد غير كثيرا جدا من خطابه الذي كان من السهل معرفة تعديل رأيه وقد ألقى في المجلس الأخير خطبة مملة، تكشف عن أنه تلقى بعض التوضيحات الجديدة التي لا تمنع من القول إن الأعداء قد وضعوا مدافع كبيرة في بطارية على الربوة التي كانت تقصف المعسكر. وسيكون من المستحيل الاحتفاظ بالمركز. أشك في أنه قد احتفظ بهذا الخطاب، لو لم يكن قد أخبر أن الأعداء كان يمكنهم أن ينصبوا مدافع قوية في بطارية. وأخيرا ولما لم يكن يتفاءل خيرا عن حوادث الأمور، فقد عبر عن التعجرف والارتباك في أفكاره، وعن التناقض في أقواله، والتردد في قصده. لقد فكر في نهايات كبرى، وبحث عن تحفظات (حيطة) كبيرة، وقدم اقتراحات بعيدة، ورفض نصائح صائبة. ولم يؤد كل ذلك إلا إلى الإبحار في نفس اليوم، وترك الجيش، وقد أخذ معه مترجما يسمى ديراند

الذي لم أستطع إجباره على الإقامة معي قط. كان لهذا الشخص اتصالات مع الموريس، وقطعا فإن السيد دي بوفور قد عرف عن طريقه أن الأعداء قد تسلموا مدفعا و إمدادات. مهما يكن من أمر فإنه يمكن التأكيد على أن المدفع كان قد وصل قبل أن يذهب السيد دي بوفور، إذ أنه إبتداء من اليوم التالي من ذهابه، كان الأعداء ينصبون بطرية، وأنه عند بزوغ فجر اليوم التالي، كانوا يطلقون (يقصفون) من المعقل المتقدم. لو لم يكن الدوق قد ذهب، أو لو كان قد رجع هو نفسه عوضا عن إعلامنا عن طريق السيد دي توريل أن الأعداء قد استلموا إمدادات، لكنا قد حاولنا إنقاذ السلاح، أو على الأقل إنقاذ شرف انسحاب...

"التوقيع: قادان"

كان الانتصار السيء لحملة جيجل إذن ناتجا أساسا عن الإهمال الذي وقع لتحصين المدينة، وحشد كل ما كان هناك ضروريا لحماية فرق الجيش. هذه الغفلة كانت كما سبق أن أشرنا نتيجة المنافسة الحقيرة على النفوذ والانشقاق الذي كان قد انفجر منذ الأيام الأولى بين رؤساء الحملة، لكن كان للحكومة أيضا ما تلام عليه لعدم وضعها وسائل كبيرة كافية تحت تصرف الجيش.

وقد يكون من اللائق أيضا أن يعزى جزء كبير من المساوىء المكبدة من فرق الجيش إلى أساليبهم في القتال وإعدادهم وإلى الروح السائدة التي كانت في هذه الفترة. فالقبائلي لم يتغير، هو الآن مثل ما كان عليه منذ قرنين، قد تكون الأسلحة النارية غير منتشرة عنده، هذا ممكن، لكنه، قد حارب دائما بنفس الأسلوب لأن خطته مناسبة لطبيعة البلد، تعبر أساسا عن مزاجه العصبي المستنفر، الجسور. غريزة الدم تجعله شبيها بالحيوان المفترس. نصف عار، أولا يكاد يرتدي إلا بعض الأسمال من النسيج مملسة بالغبار حتى تعطيها لون الأرض أكثر، يمشي إلى القتال زاحفا كأنه قط، منتهزا أقل وعورة في الأرض ليكمن ويترقب كذلك الوقت الذي يستطيع فيه أن يطبق على عدوه، ويضربه من غير أن يتعرض لطعناته، إن فشل

فالفرار لا يفضحه أبدا، إذ أن منهجه هو قبل كل شيء أن يسبب خسارة من غير أن يتعرض لأذى عدوه.

ماذا كان موقف ورأي جيش الإنزال أمام جيجل؟ كان الوقت أنذاك في شهر أكتوبر، وهي الفترة من السنة، حيث الحرارة مازالت مرهقة على ساحل إفريقيا. فالمعدات والتجهيزات العسكرية قلما كانت ملائمة للمناخ حتى لباس الضباط والجند كان معيبا جدا، ومزعجا لمحاربة رجال مثل القبائل. إن هذه الخوذات الموشاة، أو هذه الدروع اللامعة التي لا تصلح إلا للتسديد للعدو، ولبادهم هذه المريشة على الشعر المستعار الخانق، هذه الملابس المحلاة بالحاشية والأشرطة، وأخيرا، الحمائل العريضة، والجزم المعدنية، كانت في النهاية مضايقة، عندما يكون لابد من التحرك برشاقة. إن انعدام الخبرة بكيفية محاربة جبليين برابرة، كانت قيمتهم تحتقر كثيرا، جعلت الجنود والضباط بحيث إنهم كانوا يتقدمون مع جرأة الفروسية لهذا العهد بشجاعة من غير حماية متعرضين لضربات عدو غير مرأى في أغلب الأحيان، ولا يطلق النار إلا عندما يكون متأكدا من إصابة الهدف. إن هؤلاء المتبجحين النبلاء والمتظرفين، لكنهم عقم تماما، لا فائدة ترجى منهم، كانوا يلمعون صفوف الجيش المتكون من شبيبة باسلة، وهكذا كانوا يعرضون نجاح الحملة للخطر. لكن كانت هذه ميزة الطبع الفرنسي، وسوف لن يكون مستحيلا أن تكشف لنا بعض وثائق هذا العهد أن الفرنسيين الذين كانوا ينصبون أنفسهم ويحيون القبائل، كانوا يقولون لهم: "أيها السادة نحن لانطلق النار الأوائل أبدا، حتى تطلقوا أنتم أنفسكم". مقدمة كلمات جديرة بالتذكير كانوا يتبادلوها، من بعد قرن من الزمن مع جيش منافس ببطولة.

لقد كان لنا أن نذكر عدة أعمال شجاعة من قبل ضباط وضعوا على رأس جيش الإنزال. لقد تصرف الدوق دي بوفور ذو الطبع المندفع ببسالة قوية مهاجما في الصفوف الأولى، في المعركة التي وقعت يوم 5 أكتوبر، لكنه لما كان متبجحا كثيرا

بطبعه ادعى بعد رجوعه إلى فرنسا أنه شق إلى الورك بضربة واحدة من السيف فارسا عربيا كان قد تجرأ على مبارزته [1]:

هذا الشجاع الدوق دي بوفور

الذي به الكـل مبهور

شطـر هذا المذكور،

بضربـة واحدة من السيف البتور،

مـور، مـور، مور،

بل أعجـب بالشجاعة،

من هذا الشيطان المـور،

عندما جندله بوفور،

كان التائه المبهور،

مـازال، مـازال، مـازال.

ومهما كانت نهاية حملة جيجل محزنة ومؤسفة إلا أن نتيجتها كانت ترهيبا للجزائريين وإفزاعا لهم. لقد طارد السيد دي بوفور الذي كان قد بقي على رأس الأسطول، القراصنة وتغلب عليهم يوم 24 جوان 1665 أمام المضيق، ويوم 24 أوت أمام شرشال، ونسي بسرعة نهاية الحملة المشؤومة على جيجل. وفي يوم 17 ماي 1666 طلب ديوان الجزائر السلم ووقع معاهدة لصالح فرنسا ([2]).

بعد رحيل الجيش الفرنسي، خلف الأتراك بجيجل حامية من خمسين رجلا من الإنكشارية محتلين عسكريا البرج الجينوى المبني على مدخل شبه الجزيرة. ومن

---

[1] - لقد قتل الدوق دي بوفور 1669 مقاتلا تركيا في حصار قاندل.

[2] - في سنة 1628 اخترق القراصنة الجزائريون أيضا عهودهم صراحة وقد دفعت الوقاحة الداي حسين إلى حد إعلان الحرب على فرنسا. عند ذلك ذهب دوكان لقصف الجزائر.

المحتمل أنهم كانوا لا يخرجون أبدا من حصنهم، الأمر الذي لم يكن يسمح به سكان القبائل المجاورة التي احتفظت باستقلالها التام. ومع ذلك فإن رسالة الرحلة لافتداء الأسرى الواقعة سنة 1720 تسرد فيما يخص حالة تمرد البلد تفاصيل عن عمل معروف ملاحظ في الجزائر من قبل أب مسيحي ثالوثي فرنسي محترم، تمكن أن يأخذ تلك التفاصيل من فم أولئك الذين كانوا هم أنفسهم حاضرين هناك. وبالإضافة إلى ذلك فإن هذه الحكاية تبين أن أخلاق القبائل مازالت منذ قرن كما هي اليوم:

"لقد أبحرت السيدة الكونتية من بورك التي كانت ذاهبة للالتحاق بزوجها السفير لدى ملك الاسبان من (CETTE) على متن مركبة جينوية إلى برشلونة. وقد وقعت الكونتية، وابنتها ذات العشر سنوات، وحاشيتهما بين أيدي قرصان جزائري استولى على المركب. وقد دفعت عاصفة شديدة بالقرصان إلى خليج القل. وعوض أن يبقى راسيا في هذا المكان الآمن، أراد الرئيس أن يبحر إلى الجزائر، لكن عند تجاوز الرأس قدفت به ريح معاكسة إلى الشاطىء حيث تكسر المركب الهزيل إلى ألف شطية. لقد غرقت السيدة دي بورك ونجت ابنتها وأربعة من خدمها لحسن الحظ من الغرق، وحال وصولهم إلى اليابسة كانوا قد جردوا من ثيابهم من قبل قبائل الساحل الذين وقعوا بين أيديهم.

"كان هذا في هذه الحال المزرية، تقول المراسلة، إنهم كانوا قد اقتيدوا أولا حتى الأكواخ الحقيرة في الجبل الأول، لقد استحثت الخطى للسير بهم عبر مسالك وعرة وخشنة، جعلت أقدامهم تنزف كلها دما، ولاسيما الخادمة التي كانت تشتكي والتي كانت قد جرحت بعدة جروح عند مرورها على الصخور، كانت ملطخة تقريبا بالدماء. وكانوا مع ذلك محملين كل واحد منهم بحزمة من الأمتعة العتيقة المبللة. وكانوا يحملون الفتاة بالتناوب. وبعد وصولهم إلى الجبل نصف موتى، كانوا قد استقبلوا بسخرية الموريس، وصياح الأطفال، ولما كان يوجد كثير من الكلاب المهيجة بهذا البلد من جراء الجلبة والصخب، فإنها ترفق ذلك بنباحها. وقد أحدث

أحدها، بعضة من فمه، عدة ثقوب في ساق الخدم، ونـزع آخـر هـبرة مـن فخـذ الفتـاة...".

وعنـد الوصول إلى القرية القبائليـة:

"أعطي أولا لكل واحد منهم، قشابية مقلنسة رديئـة مملوءة بالحشرات الهامـة، وبعد كثير من العناء، أعطيت لهم لكل الغذاء قطعة صغيرة جـدا مـن خبـز الحنطـة معجونة من غير خميرة، ومنضجة تحت الرماد، مع قليل من المـاء، ولاسـتراحتهم كـان لهم أديم الأرض...

" كان يوجد بهذا المكان حوالي خمـسين سـاكنا، يقـيم الكـل في خمـسة أو سـتة أكواخ مصنوعة من أغصان الأشجار، ومن القصب، التي يسكنون فيها رجالا ونـساء وأطفالا وحيوانات من كل الأصناف. وقد اجتمع هؤلاء البرابرة في إحدى تلـك التـي كان فيها ثلاثة من الأسرى أجروا تشاورا يخص مصيرهم، وكان البعض منهم يـشير بالقتل، والبعض الآخر على العكس يأمل في فدية كبيرة، وهكذا انتهت المجالس مـن غير بت في الأمر.

"وفي اليوم التالي الذي كانوا قد نادوا فيه على سكان الدواوير المجاورة رجعـوا بعدد أكبر مهددين لهم تهديدا شديد ا، مفزعـا، كـانوا يـرونهم النـار، ويـسمعونهم بأنهم سيحرقونهم كلهم أحياء، وكان الـبعض الـذين يـستلون سـيوفهم يظهـرون في وقفتهم وقفة القطـع لرؤوسهـم، وقد أخـذ أحدهـم الآنسة بروك من شعرها، ووضع شفرة سيفه عـلى رقبتهـا وكـان الآخـرون يعمـرون بنـادقهم بالرصـاص بحـضورهم ويجعلونهم ينبطحون على وجوههم...

"لقد هدأ الأكثرون تحمسا قليلا، لكن الأطفال والنـساء كـانوا يـضاعفون مـن الشتم والسب في كل لحظة، لقـد كـان يحـتفظ بهـم بكثـير مـن الإحكـام بحيـث إن

موريسا كان لا يرافقهم إلى التبول إلا وفي يده بلطة خوفا من أن ينفلتوا، وأن تؤخذ منهم غنيمتهم بالقوة.

"لم يكن الموريس يروق لهم أن يكون لديهم في حيازتهم خمسة من المسيحيين، بل أرادوا أيضا الاستفادة من الأغراض التي ابتلعها البحر. ولما كانوا ماهرين جدا في الغوص، كما هم ماهرون كذلك في العدو في الجبال، كانوا قد انتشلوا سريعا من قعر البحر الطرود والصنادق، وكذلك الجثث الميتة. وبعد إخراج الجثث إلى الشاطىء كانوا يجردونهم كلهم ويتركونهم عراة للاستفادة من الثياب، وقطعوا ببعض الحصى أصابع السيدة دي بورك للحصول على خواتمها خوفا من أن تدنس سكاكينهم إن وضعت على أجسام المسيحيين... وقد طالب باي قسنطينة بالأسرى مهددا، إن لم يسلموهم له بالذهاب للبحث عنهم بعسكره، مما جعل الموريس القبائل يردون: "بأنهم لا يخافونه، ولا يخافون عسكره، عندما ينضم إليه عسكر الجزائر". كان هؤلاء الموريس لا يعترفون بسلطان الجزائر، ومع أن انحصارهم في المملكة واعتبارهم من الرعايا طبعا فإنهم يعيشون في الاستقلال باسم القبايل.

"لقد أرسلت الآنسة دي بورك أربع رسائل متتالية إلى السيد دي سولت قنصل فرنسا بالجزائر وقد أعطى الداي رسائل توصية لمرابط بجاية كانت قد نقلت من قبل مترجم القنصلية، وقد امتطى مرابط بجاية وجيجل الحصان، وأخذا طريق الجبال الذي كان على مسافة خمسة أو ستة أيام مشيا من بجاية.

"لقد وافق الشيخ كوكو الذي كان القبائل قد اقتادوا الأسرى عنده ثلاثة أسابيع من بعد الغرق على تحرير الخدم الأربعة، لكنه أراد حتما أن يبقي على الفتاة دي بورك التي كان يخصصها لزواج ابنه البالغ من العمر أربع عشرة سنة، زاعما أن ابنه لم يكن غير جدير بها، وأنها لما كانت بنت ملك فرنسا، فإن ابنه يكافئها جدا كونه ولد ملك

الجبال ([1])، وأخيرا أقنعته تأدية فدية من 900 قرش، بإطلاق سراح الشابة الفتاة، التي كانت قد نقلت إلى الجزائر مع خدمهـا".

لقد لا حظنا في القصة الواقعية التي سلفت الإشارة إليها، أن الأتراك لم يحصلوا على موافقة القبائل إلا بواسطة مرابطهم المتسامح. وقد يكون مرابط بجاية الذي أسهم في فك فتاة دي بورك وحاشيتها من الأسر طبعا هو سيدي أمقران الذي كان منذ القرن السادس عشر يتمتع بشهرة واسعة في الولاية الصالحة، والتي سنتحدث عنها طويلا عما قريب.

وبمصانعة كبرياء هذه الشخصيات الدينية، بواسطة هدايا ومجاملات مفخمة، وبتكوين إقطاعات لهم إرضاء لطمعهم في نفس الوقت كان الأتراك هكذا يصنعون حلفاء أوفياء جدا، كانت مؤازرتهم مفيدة كثيرا لكبح روح الانفصال وللحد من اضطراب القبائل في نفس الوقت.

وخلال إحدى حملاتنا الأخيرة، على القبائل الشرقية سنة 1965 حاولت باهتمام أن أعرف عن التأثير الذي كان لبايات قسنطينة، وباشوات الجزائر أن يمارسوه على هؤلاء السكان نصف المتوحشين، إلى أي عهد كان يرجع هذا التأثير وإلى أي مدى كان قد تغلغل. إن القبائل كلهم أميون، ويمكن أن نؤكد هذا من غير خوف من الوقوع في التناقض، لكن يوجد هناك من بينهم العديد من العائلات المرابطة التي كان على الأتراك من باب الضرورة أن يدخلوا معهم في اتصال، من أجل توظيف مصداقيتهم للهيمنة، إن لم يكن فعلا فهو على الأقل شكلا، على جموع القبائل. لقد رأيت تقريبا كل هؤلاء المرابطين بالتناوب في مخيماتنا، وقد حصلت على عقودهم، وعلى أوراق العائلة. وها هي حسب الترتيب الزمني الوثائق الأكثر قدما التي وجدتها عندهم:

---

[1] - إن العائلة الدينية لابن القاضي التي كنا قد تحدثنا عنها فيما سبق عن الدور الهام الذي لعبته في عهد فتح الجزائر من قبل الأخوين بابا عروج، كانت تمارس دائما سلطة كبيرة في مدينة كوكو وفي جرجرة. ومن المحتمل أن القبائل قدموا له الأسرى المسيحيين الخمسة احتراما له.

1/ لمرابطي عائلة سيدي عيسى بن سيدي مومن وثيقة تحدد أصلهم الديني الشريف أو نسبهم إلى النبي، مع إعفائهم من كل غرامة للدولة، وأمر إلى الموظفين وإلى السكان بمعاملتهم باحترام، قد كتبت هذه الوثيقة في نهاية عام 1032 من قبل عبد الله حسين باشا الجزائر (1621 م).

وقد حررت شهادة ثانية مجددة للسابقة من قبل يوسف باشا في نهاية جمادى الثانية من عام 1050 هـ (1640 م).

وتأتي وثائقهم الأخرى تالية لهذه الفترة ولا تقدم منذ ذلك الحين أية فائدة.

2/ وللمرابطين المدعوين أولاد سيدي علي بن محمد الشريف الذين حررت شجرتهم من قبل قاضي بجاية سنة 801 هـ (1398 م) وثيقة من يوسف باشا سنة 1059 هـ (1649 م) تلزم بني مروان والدهامشة وعجسية وملاغة أن يعاملوهم باحترام، وأن يحترموا أملاكهم. ومن المحتمل أن تكون هذه العائلة من تلك العائلات التي كانت قد أرغمت على ترك بجاية والالتجاء إلى الجبال المجاورة عند احتلال هذه المدينة من قبل الإسبان سنة 1510 من تاريخنا.

3/ ولأولاد سيدي عبد الوهاب، بن سيدي الميهوب عقدان محرران سنة 1118 وسنة 1119 (1707 م) من قبل الباشوات، حسين داي وبقداش تأمر السكان القبائل أن يحترموا ويشرفوا هاتين الزاويتين اللتين كانت تملكهما هذه العائلة بأولاد سالم بالجبال المجاورة لبابور وإيمولا في منخفض وادي الساحل. هذه العهود ترخص علاوة على ذلك إلى المدعوين بالمرابطين وخدمهم بالدخول إلى سوق الجزائر، من غير دفع أي رسم على الزيوت أو السلع الغذائية التي يريدون بيعها هناك.

وهم أحرار أيضا في إخراج السلع التي ينقلونها إلى بلدهم من المدينة من غير دفع أي رسم [1].

ولنا أن نذكر مجموعة من الشخصيات الدينية الأخرى أمثال أولاد سيدي بلقاسم ابن أم هاني - أولاد محمد بن بازه - أولاد سيدي العريبي - أولاد سيدي التواتي - أولاد بوعرور - أولاد سيدي الجودي - آل مولاي الشقفة - الذين يسكنون كلهم هذه الجبال، لكن سواء كان هذا ناتجا عن الشعور الحذر المتشكك المتأصل لدى الشخصيات الدينية أو أنهم أضاعوها، أو أنهم لا يملكون حقيقة وثائق قديمة. فإن الوثائق التي قدموها لي لاحقة للتي حللت فيما سبق، ولا تقدم أية فائدة من الناحية التاريخية.

لنهتم الآن بالعائلة الدينية لأولاد أمقران التي تلعب الدور الأكبر في أحداث البلد. لقد كنا قد تكلمنا عن أصلها، وعن شرفها، في مؤلفنا لتاريخ بجاية، ولا نريد أن نكرر، غير أنه من الضروري الرجوع إلى بعض الحوادث الهامة حتى يفهم القاريء الوضعية جيدا.

يرجع أولاد أمقران أو مقران عادة كما ينطقه العرب إلى نسب محمد. لقد أسس أحد أجدادهم سي أحمد بن عبد الرحمان في القرن السادس عشر مملكة قبائلية صغيرة أصبحت عاصمتها قلعة بني عباس. ابن هذا الأخير سي عبد العزيز هو المقاتل الباسل، والأبي الممجد كثيرا من قبل مرمول (Marmol) الذي مات بفخر مدافعا عن بلده ضد عدوان الأتراك بعد أن تحالف مع الإسبان حكام بجاية. ثم حكم أخوه أمقران الذي يعني بالبربرية كبيرا أو رئيسا، والذي استعمل منذ ذلك الحين لقبا عائليا لذريته. وقد خلفه ابنه سيدي ناصر حوالي 1600 من تاريخنا لكنه كان قد قتل

---

[1] - لقد انقسمت عائلة سيدي الميهوب منذ مدة طويلة إلى قسمين متميزين الواحد منها لا يزال دائما يسكن الجبال المجاورة لبابور، والآخر مازال يقطن في إيمولا ليس بعيدا عن أقبو في منخفض بجاية، رئيسه الحالي هو القايد سي الشريف أمزيان، قايد لحراش.

من قبل رعيته الخاصة، واختفت معه مملكته القبائلية الصغيرة لقلعة بني عباس. وقد ترك سيدي ناصر عدة أبناء، سمي أحدهم سيدي بلقه - نجهل إن كان هو البكر في العائلة - كان قد أنقذه بنو هاشم العملاء الأوفياء لأبيه المنكود، الذين اقتادوه في أمن إلى مجانة حيث أصبح أرومة للعائلة الإقطاعية للمقراني التي مازالت تسكن هذا البلد إلى اليوم. وكان ابن آخر قد نقل من قبل أمه إلى منخفض وادي بجاية. وهناك كبر من جهته الطفل المسمى محمد أمقران، ولم يلبث أن حاز على بعض التأثير على العشائر القبائلية بسبب شرف أصله، وفضائله الدينية التي كان يتحلى بها هو نفسه. وقد دخل رئيس النوبة التركية لبجاية في علاقة مع سي محمد أمقران، وأولاه بكل أنواع الحظوة والمحاباة، إذ تقول الرواية المحلية أن المرابط الصالح ترك الزاوية التي أسسها في مدان في قبيلة بني مسعود، للمجيء للإقامة ببجاية حيث ظل مقيما إلى حين وفاته. وقد ترك عددا من الأولاد، منهم الكبير الذي ورث عنه السلطة الدينية، وكان يسمى سيدي عبد القادر ([1])، وقد تحدثنا بما فيه الكفاية عن هذه الشخصية في تاريخ بجاية، وقلنا إنه كان مكلفا خاصة باستغلال الغابات المجاورة لهذه المدينة للحصول على خشب البناء - القريطة - الضروري للبحرية الجزائرية. وبعد ذلك حوالي 1740 م كان قد اكتشف خشب من نوع أجود من ذلك الذي في بجاية في بني فوغال بالقرب من جيجل. قد انحصر استغلال الخشب لفائدة الأتراك في المكان الجديد فقط. لكن لما كان تأثير أولاد أمقران ليس كافيا بهذه الناحية، فقد عين الأتراك أحد أعضاء هذه العائلة للاستقرار بالإقامة في جيجل، من حيث يمكنه أن يخدم مصالحهم أحسن. وما سبق يفسر أسباب الانفصال الواقع بين مختلف أعضاء عائلة أولاد أمقران لمنخفض وادي بجاية. وقد بقيت النواة الأساسية بزاوية آمدن،

---

[1] - لقد عرفنا أولاد سيدي عبد القادر بعددهم الخمسة، بعقد الملكية الذي اطلعنا عليه حديثا. وكانوا يسمون: محمد، أحمد، محمد الشريف، الموهوب، وعبد الكريم والثالث محمد الشريف هو أب الحاج المكي الذي هو جد مقارنة جيجل.

حيث مازالت توجد إلى يومنا هذا. إذن فقد ذهب حفيد سيدي عبد القادر المسمى الحاج المكي بن محمد الشريف، المغمور بالمحاباة والامتيازات ليسكن جيجل حيث عمل على كسب أشياع لصالح الأتراك، حماتهم. والإجازة الآتية التي نقدم ترجمتها تدل على طبيعة وظائفه وامتيازاته التي يتمتع بها:

"الحمد لله وحده!

"ليعلم من يقف على هذا الأمر الكريم، والخطاب الواضح الجسيم، من القواد والعمال والخاص والعام وجميع المتصرفين في الأحوال خصوصا قرية جيجل. أما بعد فإن حامله المعظم الأجل السيد الحاج أحمد المكي نجل القطب سيدي أحمد أمقران نفعنا الله ببركاته آمين، أنعمنا عليه وقدمناه مرابطا بقرية جيجل... ولا يتعدي عليه أحد من أهل النوبة، ولا من يكسر عليه حرمه لا أغا النوبة ولا غيره من سكان قرية جيجل من العسكر. هذا كله حرمة منا له ولوقفه مع النوبة في إتيان الأرزاق ولوجه جده المذكور ولإطعامه الفقراء والمساكين. كتب عن إذن المعظم الأرفع مولانا الدولاتلي السيد علي باشا.

أوسط شوال عام 1168 (جويلية 1755). ([1])

كان لابد علينا أن نشير أولا وقبل كل شيء إلى الوضعية الرسمية للحاج المكي لكن لو تتبعنا تسلسلا تاريخيا في تدوين الإجازات التي اطلعنا عليها من قبل عائلته، كان يجب علينا بداية الإشارة إلى الوثيقة التالية:

الختم: خادم الله، حسان بن حسين باي

1163 هـ (1749 من تاريخنا)

---

[1] - النص الأصلي لهذه الوثيقة العجيبة التي كنت قد نشرتها بالعربية والفرنسية في"المجلة الإفريقية"اطلعت عليه من قبل القبطان لونوبل رئيس المكتب العربي بجيجل.

"الحمد لله وحده!

"هذا أمرنا المسعد، المستحق الثناء، الممنوح لابننا سي أحمد مرابط جيجل. يشهد أننا منحناه الاحترام والتبجيل. ونقره على كل ما كان قد حظي به من حقوق وامتيازات منحت له من قبل أسلافنا السابقين بايات ناحية الشرق (قسنطينة) بهذا الأمر.

"ونحمله خصوصا بكل من له علاقة بجلود النمر، حتى لا يتعاطاها، ولا يشتريها أحد غيره. ونوصي له فوق ذلك إلى كل القبائل أمثال الحموية، وسكان بن عاشور ([1]) وغيرهم من بين أعراش هذه الجهة، حتى لا يقف أحد في طريقه ولا يهتك حرمته، ولا يعتدي عليه. ومن يلحق به ضررا فلا يلوم إلا نفسه. سيعاقب معاقبة شديدة. هذا ما يقضي به أمرنا، ويلتزم بتنفيذ ما يشتمل عليه وأن لا يخالف فيه ما يجب عمله.

"والسلام من المحظوظ جدا سي حسن باي. أعانه الله.

"كتب بتاريخ الثلث الأول من شهر جمادى الثانية عام 1165 هـ (1751)."

كانت جلود النمر شيئا من البذخ مطلوبة جدا من الحكام الأتراك الذين كانوا يتقدمون بها هدايا إلى الباشوات أو إلى سلطان القسطنطينية نفسه، ليحوزوا رضاهم. إناحتكار الصيد أو البيع المخول بهذا الأمر من الباي كان من أجل التزود بجلود النمر التي يمكن أن تمس الحاجة إليها بسهولة، وبطريقة أكثر تأكيدا. مع أنها لم تكن نادرة في الناحية الجبلية الكثيفة بالأشجار من الساحل. ويلاحظ أن هناك فرقا كبيرا عن نظامنا في تقديم مكافآت لإبادة الحيوانات المفترسة.

[1] - بنو عاشور هم أعضاء الأسرة الإقطاعية التي تحكم فرجيوة منذ حوالي ثلاثة قرون.

لكن لا ننسى أن نستطرد هنا قليلا للإشادة إلى ما أصبحت عليه مدينة جيجل وسكانها حوالي هذه الفترة. لقد وصفها مواطننا الطبيب الطبيعي، بيسونيل (PEYSSONNEL) الذي زارها في شهر سبتمبر 1725 في هذه العبارات:

"ترى هناك بعض البقايا من الجدران القديمة وأنقاض بعض التحصينات التي كان الفرنسيون قد بنوها هناك عندما استولوا عليها عام 1664. ومن جهة اليابسة حيث الباب يوجد هناك برج سيئ منهار، ولا تشتمل المدينة اليوم إلا على ستين منزلا رديئا مبنيا من الآجر والطين. وهي مسكونة من قبل الموريس، أغلبهم تجار وبحارة يشترون الجلود، والشموع، والزيوت من القبائل ويذهبون لبيعها في القالة، وطبرقة، وتونس والجزائر. ويتعاطون أيضا صيد المرجان، ولهم اليوم أربعة مراكب للصيد. وبالرغم من أن الفقر ظاهر فإن الموقع لا يسمح بالثراء".

وهناك إجازة أخرى لأولاد أمقران لا تقل غرابة عن تلك التي سبقت، وهي هذه:

"لقد تكرمنا على سي أحمد المكي وأرجعناه إلى المنصب الذي كان يشغله سابقا. ونسحب تسيير الأحوال من أيدي حفيده سي المهدي الذي عهدنا بها إليه. ويكون هذا السحب تاما، حتى يكون سي المكي المذكور هو المكلف الوحيد بشؤون القريطة، ونقل راتب العساكر الذي نرسله إلى حاميتنا (نوبتنا) المحظوظة بجيجل، وكذلك وظائف أخرى كان قد تقلدها سابقا، لقد أعدنا تنصيبه حسب الكيفية المعمول بها سابقا.

"والسلام من سي أحمد باي، والي ناحية قسنطينة، في منتصف شهر شعبان من سنة 1170 هـ (1756 م).

إن الفائدة التي تقدمها هذه الوثيقة ليست معرفة أن سي أحمد المكي المرغم على العودة إلى بجاية بالقرب من عائلته كان قد عوض مؤقتا بحفيده الذي ترك له الوظائف بدوره. ولكن الفقرة حيث تتحدث الوثيقة عن نقل أجرة الجند المكونين لحامية (نوبة) جيجل، يمكن أن تجلب الانتباه إلى أولئك الذين كانوا يهتمون بالتنظيم

الداخلي والدواليب الإدارية في بايلك قسنطينة القديم. وفي بلاد القبائل ليس هناك سيادة لأي مولى وسط السكان، كانت الطرق غير آمنة جدا، وكان الأتراك لا يمارسون أي نوع من النفوذ، ولا ينبغي التعجب كذلك من رؤية نقل مبالغ الدولة تعهد إلى مرابط كانت سمعته في الصلاحية توحي بالاحترام أكثر من فرقة حراسة كبيرة ومسلحة جدا ([1]).

وبسبب حظوة استثنائية ترجع إلى خير الدين الذي كان هكذا يريد أن يعترف ويكافئ حلفاءه البرابرة الأوائل على إخلاصهم له، فإن سكان جيجل كانوا معفيين من أية ضريبة عينية أو نقدية. أما القبائل المجاورة فقد كانت لا تدفع زيادة أكثر، وكذلك ألم تكن الحكومة التركية مرغمة على تمويل نوبة جيجل دوريا بالمال والمواد الغذائية المرسلة أول الأمر من الجزائر على المراكب، ثم فيما بعد من قسنطينة عبر بلد القبائل ([2]).

لقد كان المرابطون بنو مقران مكلفين بحماية الرحلة المنتظمة لهذه القوافل مرافقين لها من مرحلة إلى أخرى ببعض من الرجال المقدمين بالتوالي من قبل كل قبيلة كانت تعبر أراضيها، وكانت تمنح لهم بعض المكافآت الخفيفة في مناسبات الأعياد الدينية الكبيرة، وإلا تمنح لهم أيضا أراض فلاحية في بلاد السهول.

وفي الفترة التي كان صالح باي يحكم فيها الناحية، كانت شخصية أخرى تساعد أولاد أمقران في ضمان خدمة القافلة. هذا الذي يسمى باسم سيدي عبد الرحمان الفرقاني وهو رجل متعلم جدا، وقاض لجيجل، وكان يقوم فضلا عن ذلك

---

[1] - بنو عمران، بنو سيار، أولاد بلعفو، بنو قايد، بنو أحمد، بنو محمد وأولاد ساعد، الذين اعترفوا بالسلطة الدينية لأولاد أمقران، كانوا يؤدون العشور إلى هذه العائلة. وتوجب هذه الضريبة على القمح والزيت ولم تكن منظمة بشكل مطرد لأنها متناسبة بالضرورة مع الغلة.

[2] - كان لابد على عائلة أولاد أمقران أن تنقل كمية الحطب الضرورية للإشعال للحامية التركية مجانا. وبين أيدينا رسالة شديدة اللهجة من باي قسنطينة إلى قائد هذه الحامية يقول له إن المرابط يشكو بحق، إنه يطالب بأكثر مما يجب عليه وإنه يجب أن يقنع بالثلاث شحنات الدورية للوقود التي تمنح عادة إلى رجال الإنكشارية.

بوظيفة كاتب الأغا قائد الحامية، وكان هو الذي نفسه يمشي في معظم الأوقات في مقدمة القافلة أو في مفرزة الإنكشارية الذاهبة من قسنطينة إلى جيجل. وقد خلفه أعقابه في القيام بوظائفه ([1]).

لقد رأينا أيضا في الإجازة التي سبقت أن أولاد أمقران كانوا مكلفين بالتفاوض مع القبائل للتزود بخشب البناء (القريطة) الموجه للبحرية الجزائرية. سوف لن نرجع إلى هذه القضية الهامة التي درسناها طويلا في كتاب تاريخ بجاية، ويكفي أن نذكر هنا بأن هذه الأخشاب كانت تستخرج من غابات الزان التي توجد في عرش (قبيلة) بني فوغال، حيث كانت عائلة بن حبيلص عواز أعيان البقعة تسيطر على إدارة ورشة الأشغال [2].

إن بعض الوثائق العربية الأخرى التي قمنا بترجمتها، والتي كان لابد تبعا للترتيب الزمني أن تذكر هنا، لا تقدم أي حدث بارز، سنعفي أنفسنا إذن من إعادة نشرها. غير أن إحداها تتعلق بوفاة سي أحمد المكي أمقران التي وقعت حوالي سنة 1800 من تاريخنا. وكان قد عوض بأبنية الاثنين، سي محمد، وسي الطاهر وهما شابان في حداثة العمر، ليس لهما من التأثير غير ذلك الذي اشتهر به أجدادهما والذين كان على الباي مصطفى أن يقدم عنهما وصيا. هذه الحال كانت تستحق التسجيل لأنها توضح من الآن السبب الأكبر الذي حال منذ البداية دون إخماد الثورة القبائلية الكبرى لعام 1803.

إنه في جيجل ذاتها ظهرت العلامات الأولى لهذا التمرد الجدير بالذكر، الذي جعل الهيمنة التركية في خطر. وكان لسابقينا عدد كاف من التمردات التي يجب أن

---

[1] - هذه العائلة المحترمة جدا. قد قدمت خدمات جليلة للأتراك قديما. وعند الاستيلاء على جيجل من قبل فرق جيشنا، فرت ولجأت لدى القبائل، وبعد بضع من الوقت التمست من القائد الأعلى الدخول في طاعته، وتقديم خضوعها. ومنذ ذلك الحين أصبح كل واحد من أعضاء العائلة مفيدا، باحتلالهم في الإدارة الفرنسية مختلف الوظائف في القضاء أو سكرتير في المكتب العربي، التي عرفوا كيف يكونون أهلا لها بتعلمهم وأخلاقهم، و إخلاصهم.

[2] - انظر كتابنا تاريخ بجاية ص 205 وما يليها.

تقاوم، مما يدل على أن التعصب الديني ضد المسيحي لم يكن دائما هو المحرك الأساسي للقيام بالتمرد للقبائل (العشائر) الجزائرية. لكن غالبا ما كان الأتراك لا يهتمون بتسيير فرق الجيش ضد من يدعون أنهم أشراف، بسبب الفتن الداخلية، وكان يكفي دائما لهذا الغرض أن يوضع مبلغ من المال بين أيدي جيدة تقريبا، لتسقط راية العصيان مع من كان قد أثاره. وسنورد فيما بعد مثالا واضحا عن هذا النمط من التصرف.

إن أحداث سنة 1803 التي أوشكت آثارها المشؤومة أن تزعزع بجد سلطة الأتراك سابقينا، تستحق الدراسة بعناية. آمل أن أقدمها بكل دقة وأحدد نهائيا بعض النقاط التي مازالت غامضة بفضل المعلومات الجديدة التي جمعتها من أولاد أمقران ومن كثير من غيرهم من مواطنيهم. إن الدور الهام لأولاد أمقران في كل شؤون البلد قد اتضح بما فيه الكفاية، من غير أن تكون هناك ضرورة للرجوع إليه، وتتضح منه بالذات درجة الثقة التي أوليناها إلى المعلومات التي قدموها لنا.

وعن تأكيد المعلومات الأولى الناقصة فقد كان عدد من الكتاب قد أكد أن العصيان القبائلي لسنة 1803 كان يتعلق بأسباب محلية بحتة، وليست لتأثيرات سياسية خارجية، مثلما أعلن القبطان ساندر رانج (SANDER-RANG) مستندا في رأيه على الشائعات المنتشرة بالجزائر نفسها آنذاك [1]. لقد كان قد قيل أولا إن القبائل قد دفعوا إلى الثورة من قبل الإنجليز، الأمر الذي كان سديدا، بما أن شريف المغرب مثير الحركة كان يعترف بذلك صراحة كما سنورد فيما بعد. لكن سرعان ما تحدث تقلبات في الرأي العام، ويكشف بسهولة من أين جاءت الشائعة التي جرت بالجزائر، إن الثورة كانت قد استأجرت من قبل فرنسا، وإن رعايا فرنسيين كانوا في صفوف المتمردين، حتى كان أحد إخوة نابليون في مقدمتهم. وقد وجدت هذه السذاجة بالأحرى تأثيرا بين الجزائريين السذج الذين كانوا قد شاهدوا قبل وقت قليل الأمير

[1] - ساندر رانج جدول المؤسسات الفرنسية بالجزائر.

جيروم نابليون في مرساهم على رأس مجموعة من مراكبنا، الذي جاء مطالبا بالفرنسيين والإيطاليين والليجوريين الأسرى [1].

لم تعش ولم تفهم جموع أهالي الناحية إلا ما يمكن أن يسمى بالمظهر المادي للثورة. وبالطبع فنحن شاطرناهم هذا الرأي، لأنه كان الأكثر رواجا، مبعدين منذ ذلك الحين رواية القبطان ساندر رانج (SANDER-RANG) على أنها غير مؤسسة، وقد كان قد اعتقد أنه ينبغي تبني الرواية التي تميل إلى الأسباب المحلية المحضة. لكن السر الذي خيم على الحركة التمردية بشكل ما. كان لابد أن يكشف لنا في يوم أو في آخر من قبل أناس كانوا أكثر اطلاعا. وهو ما كان قد وقع بمساعدة الوثائق الأصلية التي تملكها عائلة أولاد أمقران المطلعة تماما، بالإضافة إلى اطلاعها على أحداث بلدها التي تشرح لنا العلاقات ما بين الأحداث، وتأثير بعض الشخصيات التاريخية.

كان من عادة الأشراف قديما الذين كانوا يسكنون المغرب تعيين واحد من بينهم على رأس الركاب أو القافلة الكبرى للحجاج المغاربة التي تذهب سنويا إلى مكة. وقد كان هذا الأمير قد اتخذ اسم بودالي أي الأمير الذي يتقلد دوره في قيادة أمور القافلة خلال مدة الرحلة.

وحوالي بداية هذا القرن كان الأمير بودالي الحاج محمد بن الأحرش متبوعا برفاقه المغاربة وبجمع من الحجاج الجزائريين والتونسيين والطرابلسيين الذين كانوا قد أخذوا صفهم في القافلة الذاهبة إلى مكة، كان يقطع مصر حيث كان بو نابرت قد رفع علم فرنسا. في هذه الفترة كان على كليبر ثم مينو المتخفيين بوسائلهما الخاصة في حصار ضيق كان قد حرمهما حتى من أخبار الوطن، كان عليهما أن يقاوما ضد أعداء كثيرين ومن كل الجنسيات، عرب، أتراك، أنجليز... في تحالف بينهم.

كان لابد لقافلة متكونة من أقوام متحمسين، مثلما هو عند المغاربة والحجاج المسلمين بصفة عامة، وصولا إلى مثل هذه اللحظة من الغليان، أن يكون لها وزن ثقيل

---

[1] - بيير براجي، شريف قبائلي في عام 1804.

في المعركة. ومن المرجح أن القادمين الجدد الذين وجدوا مناسبة للقيام بالجهاد الذي يعتبر عند المسلمين فعلا جديرا بالتقدير. لم يلبثوا طويلا أن خاضوا غماره. وفعلا فقد برزوا في كل المعارك التي شنت ضد جنودنا. ولم يلقوا السلاح إلا بعد أن كانت مصر قد تخلصت منهم. ومكافأة للحماس الذي أظهروه حمل الإنجليز قسما كبيرا من المغاربة على متن مراكبهم. وعلاوة على ذلك فقد تلقى البودالي من جنرال إنجليزي بندقية عجيبة جدا كانت لا بد من أن تفيده فيما بعد أكثر للتأثير على التصور الساذج للقبائل. ومن المحتمل أن يكون هذا السلاح من نوع المسدسات التي تسمع كما يقال ثلاث طلقات متتالية من غير أن يعبئها صاحبها المزود بحصان سريع في الميدان.

وفي السابع من النيفوز (الشهر الرابع من التقويم الجمهوري) من السنة العاشرة للجمهورية (17 ديسمبر 1801)، كان ديبوا تانفيل قد وقع معاهدة صداقة مع باي الجزائر مصطفى باشا، باسم القنصل الأول بونابرت. لم تبق الإنجليز التي كانت تحرض ضدنا كثيرا حينذاك من غير انزعاج من جراء هذا التحالف، وهذا الاحترام المتبادل الذي عزمت عليه الحكومتان. وفي الوقت الذي كان فيه اتفاق السلم قد أبرم، كان البودالي بن الأحرش يغادر القاهرة إلى دياره، وقد كان قد أبلى في الجهاد بلاء حسنا بشجاعة متألقة، وحماس محتدم، إنه الرجل الجيد للنشاط، المغامر، الفاعل والجريء الذي كان يناسب أفضل للدور الذي أرادت أن تخلقه السياسة الإنجليزية في الجزائر لإثارة الاضطراب في الإيالة حليفة فرنسا.

- كان الحجيج المغاربة إذن قد ركبوا من الإسكندرية على متن مراكب إنجليزية أعادتهم إلى الوطن. أما أبو دالي الذي أعد إعدادا جيدا عن طريق كلام حقود، وعن طريق طعم المكافأة الكبيرة، فقد نزل بتونس أو في بونة مع بعض رفاقه. لم يكن موقع النزول محددا أكثر، ومن هنا ذهب إلى قسنطينة التي كان يحكمها آنذاك الباي عثمان. ابتداء من هذه اللحظة فقد أصبحت أفعال وإشارات الشريف معروفة لنا تماما، ويمكننا أن نتتبع آثاره خطوة فخطوة.

وبعد أن أقام بعض الوقت في مركز الناحية، حيث التزم كثيرا الحذر بأن لا يثير أية مؤامرة خوفا من أن يوقف من قبل رجال الإنكشارية، لقد عبر بلاد القبائل من غير ضجة وتوقف قليلا في بني أحمد، وقدم نفسه في الأخير ضيفا لله، يطلب حمى في مصلى سيدي الزيتوني، الواقعة في طرف جدار حضن مدينة جيجل القديمة. إن الذين شاهدوا الشريف يقولون إنه كان في الخامسة والأربعين من عمره، كانت قامته طويلة، ووجهه مشرقا، ولحيته شقراء، يرتدي ثياب الشحاذين الدرقاوة. وقد جذب إليه كلامه يوما بعد يوم زوارا أكثر عددا، وكان يفتنهم (يسحرهم) بخفة وهو يروي لهم بأكثر الأساليب ابتداعا مراحل الجهاد في مصر. وقد كان يردد غالبا في أحاديثه هذه الكلمات: "إن الإنجليز أصدقائي، قد حرروا الأرض من أولئك الذين غزوها، وقد أمرني الله أن أعامل الإنجليز معاملة حسنة، وأن أقتدي بمثالهم". ولما سلح سفينة قرصانية فيما بعد كان لا يكف عن توصية ملاحيها باحترام المراكب الإنجليزية. هذه الوقائع وحدها فقط كانت توضح ما هي اليد الخفية التي كانت تدفع بأبي دالي إلى القيام بالثورة.

ولما لاحظ أغا الحامية التركية بجيجل حركة غير مألوفة كانت تخيم على أبواب المدينة كان الوقت قد فات للقبض عليه. كان شخص واحد فقط نظرا للتأثير الذي كان يمارسه على القبائل يمكن أن يحذر من الأحداث الخطيرة التي كانت ستحدث: إنه رئيس العائلة الدينية لأولاد أمقران، الحليف الوفي للأتراك ودعامتهم الأساسية في هذه البقعة. غير أن هذا الرئيس، سي أحمد المكي كان قد توفي منذ قليل، وأن ابنيه الاثنين اللذين كان باي قسنطينة قد أجبر على تعيين وصي لهما - نعيده - كانا ما يزالان صغيرين بدون تجربة، ومن ثم فهما ضعيفان جدا للتحرك بكيفية فعالة.

لقد كشف البودالي الذي تأكد من مؤازرة القبائل له، عن مشاريعه الطموحة لمستمعيه المتحمسين، ونصح بالتخلص من الأتراك الطغاة، مثلما تخلص المصريون من الفرنسيين، بإشعال حرب ضروس ضدهم. وقد ارتأت الحامية الضعيفة لجيجل، المذعورة من جرأة ونجاح هذا المتحمس أن تحذر من المقاومة، فأبحرت وابتعدت من

غير صخب. ولم تلبث حامية القل أن حذت حذوها، ويبدو أن حامية بونة التجأت كذلك إلى قسنطينة على خبر للهجوم المقبل. لقد نمت شيعته سريعا بجمع معتبر...؟

رغم هذا الحادث فقد استمرت قرية جراح تكون مكان لقاء لكل الناس المضطربين عن فضول أو حبا في التغيير، وهي الميزة الفطرية في الطبع الإفريقي: كان هؤلاء يسارعون من كل حدب لرؤية وسماع الشريف الذي كان يطعم كما كان يقال الفقراء وكان يظهر على أنه حامي السكان المضطهدين. وهكذا كانت تصله أعداد من الزوار من قسنطينة، من بونة، من سطيف، ومن بجاية. وبغمرة العطايا، وارتداء أحسن الألبسة وتناول أحسن الأطعمة، أصبح مركزا ومطمحا لكل المتحمسين، وربما كان بن الأحرش لا يطلب إلا العيش هادئا مع مولاته الجميلة يمينة. لكن بدأ القبائل يتذمرون، وينفذ صبرهم من تراخيه. في هذه الفترة دخل الشريف في علاقة مع مرابط يسمى الزبوشي إذ من إقامته بجراح، وحسب نصائح هذا فإنه أعلن لأول مرة عن نيته في مهاجمة قسنطينة عاصمة الناحية.

ولفهم الوقائع التي ستتوالى ينبغي الرجوع بالنظر إلى الوراء وتفحص أولا أسباب الغضب التي كانت قد تجمعت سرا في قلب الشخصية الجديدة التي ظهرت على المسرح.

- كان عثمان باي الذي كان يلقب بالأعور، رجلا صلبا، ومستقيما، يمارس الحكم منذ قليل بقسنطينة عندما اطلع أن سي الزبوجي، المرابط المتزمت والطموح كان في نواحي رجاص بالقرب من المدينة الصغيرة لميلة، يفرط في استعمال نفوذه الديني لتخويف السكان متنبئا لهم بالنكبات والمصائب التي سيجلبها حضور الأتراك على البلد. وقد كان الزبوشي قد كون شهرة كبيرة من التعاطف مع حياته المتقشفة. وقد كان احترام القبائل له كبيرا. وكانوا يعتقدون بكل تنبؤاته. وبدلا من التخلص من هذا المجنون الخطير الأمر الذي فات البايات سابقيه أن يفعلوه، اقتصر الباي عثمان من فرط حلمه على أن يسحب منه الإعفاء الضريبي الذي كان يتمتع به إلى هذا الحين، وكذا كل الامتيازات التي أكسبته إياها صفة المرابط. وكان يعتقد أن

هذا العقاب بلا شك كان كافيا، و أنه سيخمد التصورات المحتدمة للمتنبي الجديد. لقد ذهب الزبوشي إلى قسنطينة يطالب بما كان يسميه حقا إلهيا، لكن بسبب طبعه الأبي وغير المنضبط لم يقم أي وزن لادعاءاته الحمقاء التي هي بالنسبة لهؤلاء الرجال حسب زعمهم توحى إليهم من السماء، وتشتمل على استخدام الدين لأغراض خاصة. لقد ابتعد المرابط المستاء متفوها باللعنات والشتم وانسحب إلى جبال آريس، عرش من الأعراش القبائلية على الضفة الشمالية للوادي الكبير. لكن ضغينته لم تتوقف هناك، مع العلم جيدا أن لعناته سوف تكون من غير نتيجة إن بقي سلبيا غير متحرك، لقد كرس نفسه لكل أنواع المكايد، وادعى أنه ضحية السلطة الطاغية وبكلمة واحدة استخدم كل شيء للانتقام من الإهانة التي لحقت بكبريائه كمرابط. ولم يتوقف عن تكرار أنه كان يريد أن يطأ برجله عين الباي العوراء.

كان الزبوشي متهورا بعض الشيء إلا أنه أحس بضرورة ألا يتحرك إلا خفية وتدريجيا حتى يكون مناصرين من غير إيقاظ انتباه الأتراك كثيرا، الذين يمكن لهم أن يخطفوه بواسطة عملائهم ثم يقتلونه. ولا ننسى أن نعيد إلى الأذهان أن الزبوشي كان مقدما للطريقة الدينية لسيدي عبد الرحمان التي تعد لها أنصارا كثيرين في هذه الجبال والذي كان بهذا اللقب يخضع له القسم الأكبر من القبائل. نحن نعرف كم هي منتشرة هذه الجمعيات الأخوية الإسلامية، المتصلة فيما بينها من الشرق إلى الغرب بمساعدة عمال مكتنفين بالأسرار. وذلك يفسر لنا قيام هذه التمردات المسلحة الفجائية، في الوقت الذي يبدو فيه الهدوء التام ظاهرا يخيم بين السكان الأفارقة.

في هذه الفترة كان بودالي بن الأحرش قد ظهر في نواحي جيجل، فكتب له الزبوشي وأبلغه بالحقد الدفين الذي كان ينمو ضد الباي عثمان، وقد أعطى سريعا هذا التحالف فعالية وتأثيرا في مثيري الفتنة اللذين قد كان من المحتمل أن يكون كل واحد منهما فاشلا بصفة خاصة في المحاولة الجريئة التي صورها كل واحد منهما للآخر لإسقاط حكومة الأتراك. ويوضح لنا كذلك السهولة التي بلغ بها الشريف إلى كسب أشياع في بعض الأجزاء من بلد حيث كان ما يزال مجهولا. لقد عرف الزبوشي والشريف الربط بين رغبتهما ومصلحة الجمهور، واعدين بالغنيمة، و هي الفكرة

الساحرة كثيرا لتحريك بعض القبائل ودفعهم إلى مهاجمة قسنطينة. إن الشريف ليس له أن يتردد، فالأذهان مهيأة جيدا للمعركة، ورؤساء الدين للبلد أعطوه مساعدة بتأثيرهم، وقبل الشروع في المسير كان له عدة خطب مع الجبليين بني فرقان، ثم مع بني عمران، واستعرض أخيرا بطريقة ما جيشه في سهل مرج السكر.

وقد بدأ رفقاء الشريف الذين كانوا يضربون بإيقاع على الطبول في إيقاظ العامة منشدين بحماس القصائد الصوفية القديمة للعهد الإسلامي الأول لتأجيج المشاعر الدينية وحب القتال:

لقد امتطيت خير الجياد الأصيلة

وجئت هذه الربوة المعهودة

أريد اختراق العدو وأعيد اختراقه

لقد رأيت المنية على صدور العدى

متى نأخذ الرمح للقتال

قاتلوا بالرمح والحسام

ألا يحيا الرجال من الوغى

إن سار الأعداء ضدنا سنلتحم

والرؤوس بعضها ببعض سنحطم

ألا تعلم أني المقاتل المجرب

وأن بطولتي تعلم من الشرق إلى الغرب

كم من مقاتلين متكبرين ألقوا السلاح عند مشاهدتي وفروا

سيدوي صوتي أمام العدو حتى تهتز له الجبال والرمال

أنا باسل، يتجنبني الأكثر بسالة

لا يشبه الأسد الرجال

سأمنح طعنات أشد وقعا من السم، وأكبد العدو
إصابة بليغة أكثر ألما من الفحم المضطرم
سأجعل يوما يحكى عنه لكل من يبقى على الأرض بعد موتي
سأمزق الكتائب من كل جانب، وأنثر التراب برؤوس
أعدائي حتى أتركها كبيض النعام على الأرض
افرح يا نبي الله إذ غدا سأسقي أعداءنا من الكأس اللاهبة.

هناك حدثت المعجزة المزعومة التي صفعت في أقصى الدرجات خيال القبائل المتجمعين بعدد كبير لحضور هذا الاحتفال الديني. كان ذلك في فصل الربيع، حيث الكل فيه مهتاج أشجار وحيوانات. إذن فالجيشان المألوف لطبع الإفريقي كان قد ازداد أيضا من جراء حرارة الموسم. ووسط الحشد المدوي كان الشريف الذي كان فضلا عن أنه فارس متألق ينفذ حركات فنطازية جنونية على فرسه المسماة الفاسية مطلقا النار من بندقيته الإنجليزية الشهيرة ذا الطلقات الثلاث.

كانت هذه الفرقعات المتتالية تحث إعجاب القبائل، وهم الناس البسطاء السذج الذين يسارعون إلى العجيب المدهش في كل الوقائع التي لا يستطيعون شرحها.

كان الشريف بعد تمارينه الفروسية يؤم صلاة الجماعة، محاطا بكل مريديه وعندما يرتفع في إحدى هذه الاستراحات الاحتفالية التي تفصل مختلف أجزاء الصلاة الإسلامية صوت منبعث من تحت الأرض يتلفظ ببطء هذه الكلمات:

"لقد حان الوقت! سيسلمك الله طغاة البلد. وسيكون محمد بن الأحرش محرركم إنه سيد الزمان. انهضوا جميعا، لأن الله سيفتح عليكم بونة، قسنطينة وحتى الجزائر".

وقد أحدثت على ما يبدو هذه الكلمة الموجزة الخارقة للطبيعة المقذوفة وسط سكان مهيئين دائما للثورة، والتي كانت من ناحية قد أعدت بلباقة من قبل الذي كان

يتمنى أن يقطف الثمار منها، وأثرت تأثيرا كبيرا وفوريا. وقد طرح كل واحد من الحاضرين وجهه على الأرض ولم يرفعه إلا ليصرخ: إن شاء الله، النصر محقق.

لو كان هؤلاء بعض الفرنسيين لكان من الممكن قبل أن يستسلموا إلى هيجان الفرح يفكرون في حفر الأرض من حيث كان يخرج الصوت العجيب. إن فحصا شبيها لم يرد على فكر القبائل البسطاء السذج، وأنه لمؤسف، إذ أنهم كانوا سيجدون على بعض بوصات تحت الأرض عرابا متواطئا مع ابن الأحرش مختبئا في أحد الأضرحة يسمع له صوت صارخ من مجرد فان بائد، من فتحتين مخفيتين بلباقة تحت باقة (خصلة) من الحشيش.[1]

لم يكن يبقى لمهمة ابن الأحرش التي أعلن عنها، وسلم بصحتها إلا أن تدخل في المعركة وقد خطب المتمرد وكان يعرف أنه لا يجب التهاون في مسألة الوقت مع أشياعه بهذه الكلمات:

"لنسر إلى قسنطينة! وعندما نكون قد دخلناها نغنم أموال السكان ونساءهم ستكون لنا، ومنازلهم منازل لنا".

وقد أشعلت هذه الأماني المشوقة جدا لأعيانه كتلك الأماني الموعودة بالجنة كل الجرأة والقوة، وسار الجمع. وقد وصلت وحدات القوات المتمردة التي كان عددها يتعاظم وينمو من مرحلة إلى مرحلة أخرى، أولا وقبل كل شيء إلى بوغيول، لدى أولاد بلعفو ومن هناك إلى بني مسلم، إلى أولاد عيدون، إلى صفيصفة ماوية إلى سيدي محمد الغراب (بستان صالح باي على وادي الرمال) وفي يوم الغد كانوا يهاجمون ويسلبون ضواحي قسنطينة وعندما ألقت إحدى هذه الإنذارات المزيفة التي نشرت بأسرع من تناثر البارود الرعب والفزع بين القبائل، الذين أخذوا يفرون. لقد أشيع أن الباي عثمان الغائب آنذاك عن قسنطينة مع عساكره، سيصل من وقت لآخر. وقد

[1] - بيير براجي، شريف قبائلي. سنة 1804 .

تابع الشريف حركة الانسحاب حتى سهل ولجة القاضي [1] على طريق ميلة، حيث نجح أخيرا أن يسمع و يوقف الهاربين. كان يصرخ فيهم: "أيها التعساء لماذا تفرون إذن؟ أنتم السبب في أن مهمتي لم تحقق غرضها. مع أنه لا يوجد أي عدو تخشونه - ارجعوا معي، وأعدكم بالنوم هذا المساء في بيوت القسنطينيين. لكن إن أردتم أن يتحقق وعدي، يجب أن تتخلوا عن هذه الغنيمة التي سلبتموها، ابتداء من الآن".

لقد جمعت كل الأشياء التي جيء بها من ضواحي قسنطينة فعلا في كومة واحدة وأشعل الشريف فيها النار من يده بالذات. وقد عادت الوحدات المطيعة على أعقابها في صفوف مرصوصة، وحينذاك بدأ حصار المدينة حقا. قلنا عن عثمان باي إنه كان يتواجد بعيدا عن عاصمته مع جنده في ضواحي سطيف عندما وصله خبر الهجوم المباغت للشريف الذي كان يتبعه حشد من القبائل يقال ارتفع إلى 6000 رجل، وهو العدد الذي يبدو لنا مبالغا فيه. وقد نجح قايد الدار بن البيوض الذي كان يحكم المدينة في غياب الباي في دفع عدة غارات للمهاجمين المعسكرين على خاصرة كدية علي. وقد باشرهم الشريف المقدم بعزم نحو باب الوادي بضربات البلطة (القطاعة) من قبل الأسرى المسيحيين الذين كان قد أخذهم معه، لكن طلقة نارية مسددة من فتحة مجاورة جرحته جرحا خطيرا في ساقه. لم يكن محصنا جدا مثلما أكد رسميا، ولشرح جرحه أشاع بلباقة أن الرصاصة التي أصابته كانت من الفضة وليس من الرصاص، وقد حمل العبيد المسيحيون سيدهم سريعا إلى الجبال. أما القبائل المحاصرون الذين أوقفتهم مدافع المدينة المحصنة، ورصاص المدافعين عن المدينة فلم يلبثوا قط أن تفرقوا، وابتعدوا كذلك، ولكن ليس مبكرا جدا للإفلات من ضربات عثمان باي، الذي كان حقيقة هذه المرة في أثرهم . كان الباي يسارع بخطة كلها طبيعية إلى المشي مرغما على طريق ميلة، لكي يقطع الانسحاب عن القبائل. وقد أدرك فرسانه فعلا قسما كبيرا بالقرب من بوقصيبة، على وادي القطن، وعملوا فيه مجزرة

[1] - ولجة القاضي هي السهل الصغير على الضفة الشمالية للرمال بين بستان صالح وقريتنا عين كرمة.

مرعبة. كان هلع الجبليين بحيث إنهم لم يتجرأوا على النزول إلى السهل لأخذ جثث إخوانهم.

ولقد أبلغ عثمان باي الباشا بهجوم قسنطينة، وبالطريقة التي كان قد رد بها المتمردين ودحرهم. ولم تتأخر الجزائر بالإجابة، بعد بضع كلمات الشكر الموجهة إلى السكان عن الصلابة التي برهنوا عليها في هذه الظروف، لقد كان قد قيل في الرسالة الموجهة إلى عثمان:

"لقد جعلتك بايا على قسنطينة، وعلى أراضيك ظهر الشريف، وعليك أن تسير شخصيا إلى هذا المتمرد وأن تنتقم منه شر انتقام. طارده مطاردة لدودة، لا تتوقف أبدا إن لم تكن قد حصلت على رأسه أو تكن قد طاردته".

وحسب رواية أخرى، فإن عثمان باي لم يكن قد تلقى إلا مجرد هذه الإجابة "رأسك أو رأس بلحرش".

كان أمر لا يقبل لا التردد ولا التأجيل. لقد حشد عثمان سريعا كل ما أمكنه حشده من الجند وخرج لمطاردة العصاة. لقد شرع الرتل في السير حوالي شهر أوت 1804، وكان يتألف من 4000 جندي تركي ومشاة الزواوة، وأربع قطع من المدفعية، و3500 فارس عربي مساعد من القبائل. لقد خيم اليوم الأول في ماوية، وفي اليوم الثاني بغزالة، وفي اليوم الثالث لدى الأعشاش، والرابع في الميلية، في سهل الوادي الكبير. ومن هذا المعسكر بالميلية انتشر إلى ضواحي أولاد عيدون، الذين أحرقت لهم عدة قرى.

إلى هنا لم يكن الرتل التركي قد قطع إلا صقعا سهلا نسبيا، كان مخيمهم قد نصب بالسهل الذي يحيط بالنهر حول غابة صغيرة من الدردار الكبير الذي مازال يرى على الضفة الشمالية على بعد مسافة قليلة من التلة التي قمنا عليها ببناء مركزنا المحصن للميلية. فالوادي في هذا الموقع منبسط سهل واسع ومكشوف، وموشى

بحقول الشعير والذرة الصفراء، ويمكن للخيالة أن يتحركوا فيه ويناوروا بيسر وراحة، وفي حالة الهجوم ترد القبائل بتفوق. في هذه المدة من السنة كان شهر أوت - كانت مياه الوادي الكبير منخفضة، ومجرى النهر يمكن عبوره من عدد لا يحصى من النقاط. إذن لم يكن شيء يمنع القوم أن يمضوا سريعا على هذه الضفة أو تلك، وحرق القرى الواقعة على المنحدرات الخفيفة للضواحي فجأة.

لقد عرف القبائل أن المعركة كانت صعبة بالنسبة إليهم في مثل هذا المكان. كان لابد من الاستعانة بحيلة تدبر بعناية لجر الأتراك إلى ميدان آخر أكثر وعورة لشل نشاط فرسانهم الخطير. ولهذا فإن مرابطا لبني صبيح باسم ابن بارش رفيق أو قاتل مستأجر للمتزمت الزبوشي تقدم إذن إلى مخيم الأتراك. وزعم أنه قد نصح الجبليين بالسلم، وقد حددت كلمته التي استمع إليها من قبل الأعشاش، وبني قايد، وبني خطاب وأهل مشاط، وأولاد عيدون، هذه القبائل الخمس، لإظهار الطاعة. وكانت الجماعة التي هي على بعد بضع مسافة من المخيم تنتظر إشارة معطاة نتيجة مسعى ابن بارش، قد ظهرت وجاءت هي نفسها لتأكيد هذه الترتيبات السلمية. وقد قبل عثمان باي الكريم جدا، مثلما هو معتز بنفسه واثق بتأكيداتهم القوية للقبائل الراكعين عند قدميه، ووافق على أن يصفح عنهم شريطة أن يسلموه الشريف سبب الفوضى كلها.

لقد سبق أن كان الرتل منذ عدة أيام عاطلا، منتظرا تنفيذ هذا الوعد. ولم يغادر ابن بارش المخيم: متربعا بالقرب من خيمة الباي، كان يرى وعيونه مطرقة بسبحته مهمهما، بدعوات لإظهار التواضع والخضوع، وكلما كان الباي يطلب منه أخبارا كان يجيبه بأنه ينبغي التحلي بالصبر، كان يقول له: انتظروا إن القبائل سوف لن يتأخروا في أن يسلموكم الشريف في عجز تام.

وأخيرا تساءل عثمان متعبا من التماطل اللامتناهي، وهو على وشك فقد حلمه للمرة العشرين ابن بارش، لقد جاءت اللحظة الحاسمة ولم نستطع التردد أكثر:

"أعرف - أجابه هذا- أن القبائل يترددون، لقد استولى عليهم الرعب الوهمي لا يتجرؤون على وضع أيديهم على الشريف للإتيان به إليكم، لأنه وعد بالموت الشديد لكل من يمسه. لكن من جهة أخرى لقد قرروا عدم الدفاع عنه. لماذا لا تذهبوا أنتم أنفسكم إلى مشاط لأخذه حيث مكث مختبئا والقبض عليه سيحدث انطباعا كبيرا لدى الجبليين السذج وإذن ستخضع القبائل من هنا إلى البحر".

"هيا لا تترددوا سأخدمكم مرشدا، في جبالنا عندما تزعج النمرة قطيعنا نحن نقتلها، وبموت الوحش يخيم الهدوء، وسيكون كذلك عندما نعمل على القضاء على الرجل الخطير الذي هيج فكر القبائل".

صدق عثمان الكلام الذي أذاعه الغادر بنوع من الإخلاص الكبير، وفي الحال تلقى قسم من جند الأتراك، وكل القوم الأمر باتباع ابن بارش. لقد غادر هذا الرتل سهل الميلية، وغامر واثقا في بلد مشاط، حيث الوهاد، متتالية للوهاد، لم يكن لهم في هذه الفترة لكل العبور إلا بعض الدروب الوعرة التي كان لا يستطيع أن يسير بها الفرسان إلا واحدا بعد واحد. إلى الآن لم تكن لهم أمامهم أية صعوبة، فالبلد كان يبدو غير مأهول، خاليا من السكان، لأنه لكي يجروا إلى المصيدة أكثر، لم تكن تعرض أية مقاومة في تقدمهم. وعند الوصول إلى الموقع الذي كان قد عينه ابن بارش كملجإ للشريف الجريح أخبر عين مبعوث أرصد مسبقا من قبل المتآمرين، أن أولاد عطية قد جاءوا لزيارة الشريف في نفس الصباح، وأنه على إثر هذا الاجتماع، رأوا أنه من الحيطة نقله عندهم، لإنقاذه من غضب الباي.

"لكننا لا نستطيع أن نعود بأيدينا فارغة، قال ابن بارش للجند الذين يتبعونه، سيكون هذا عارا ومخجلا من جانبنا، فأولاد عطية ما هم إلا بعد خطوتين من هنا. هيا بنا، هيا بنا".

كان الرتل يتقدم دائما عبر بلد تزداد فيه الجبال أكثر فأكثر كثافة وصعوبة، لا يرى أبدا الوصول إلى نهاية المسيرة، مع أن دليلهم لم ينقطع عن الترديد والإعادة له:

(سنصل إليه، هيا، نحن وصلنا إليه) وأخيرا عندما دلف في ممر خطير اختير من قبل ليكون مسرح الكمين، خرج القبائل بالسلاح من كل جهة، كالنمل يصرخون صراخا مهتاجا، ويطلقون النار بتأكد مختارين ضحاياهم. كانت هذه الشعاب الهادئة المنعزلة منذ قليل تدوي دويا مرعبا، فالدم يخضب الحشيش والصخور، والأوراق وأغصان الخيس ممزقة بالرصاص، ومقتلعة بالأصابع المتشنجة للقتلى أو محطمة مكسرة تحت ثقل الأحصنة التي قتلت. وقد كان ابن بارش قد قتل من بين الأوائل وسط التراشق بالرصاص وقد لقي هذا الكائن الذي يستحق الجحود عقابه على مسرح الخيانة نفسه.

قد قص علي الجبليين الذين يبحثون طبعا عن التبرئة من فعل الخيانة (الغدر) هذه الوقعة الأولى من انهزام الأتراك على الطريقة التالية:

"التقى جند الباي امرأة قبائلية بأولاد عواط، فقطعوا رأسها كانت قد شتمتهم عندما رأتهم قد ظهروا". وهو سلوك بربري جدا كان سيغيظ أناسا كان قصدهم إلى الآن سلميا. وقد أظهر أولاد عطية الحاضرون في هذا المشهد سخطهم على التو، مفرغين شحنات أسلحتهم على الأتراك. وقد نطق البارود منذ ذلك اليوم من كل جهة، ورأى أغا الدايرة الذي كان يقود الرتل الصغير نفسه مجبرا على الانسحاب نحو أرض أكثر ملاءمة. وفي تاغمار عند بني مسلم سارعت العديد من الوحدات المسلحة من كل الاتجاهات للانتقام من موت المرأة القبائلية، فأحاطوا بالأتراك، وحاصروهم بحيث لا يستطيعون لا التقدم ولا التأخر.

وعلى أية حال، فهذا الحصار في أرض مكشوفة دام أربعة أيام. كان الأتراك ومناصروهم أثناءها قد أبيدوا. وأخيرا قد تمكن فارسان عربيان متنكران أثناء الليل في اجتياز هؤلاء المحاصرين، وقدما لإعلام الباي بالوضعية المحزنة التي كان يوجد عليها أغا الدايرة ورجاله.

وعلى إثر هـذا الخبر راح عثمـان فـورا من الميليـة لنجـدة رجاله، مرتكبا خطأ بأخذه قسما معه من قواته وترك الباقي في المخيم لحراسة الأمتَعة. وكـان جيـشه منـذ ذلك مقسما إلى ثلاثة أقسام، وقد كلفه عدم التبصر هذا غاليـا. وبعـد الوصـول عنـد ربوة من بلاد بني حبيبي شتت عثمان باي الحـشود التـي كانـت تحـيط بالأغـا بطلقـة مدفع. وقد تمكن العدد القليل الذي بقي على قيد الحياة آنـذاك مـن القيـام بحريـة في حركة الانسحاب، والانضمام إلى جيش النجدة. لكن، كان على الرتل لـكي يرجـع إلى المخيم بالميلية أن يعبر ممرات خطيرة جدا، في بوهـروس، لدى بني مـسلم، كـان البـاي المناوش بدون انقطاع، بقتال عنيف، قد أوقف من قبل فرق جديدة أكـثر عـددا مـن الأولى: كان أولئك هم أولاد عيدون، الأعشاش وأهل مشاط وآخرون رغـم وعـدهم الحديث بالسلم، كانوا قد أخلوا من جديد، وهرعوا إلى دوي البارود، وقـد بقـي ممـر واحد فقط خاليا، هو ذلك الذي يسمى أخناق عليهم، حيث توجد لجة موحلة تسمى بوغدار. ويتكون هذا المضيق من جراء ضيق منخفض وادي الكبير الذي يتكون من عدد من الكيلومترات من الطول، حيث تقترب الجبال منه إلى درجة أنها لا تترك بينهـا وبينه إلا مجرى النهر. تنضد يمينا وشمالا سلسلة متتالية من التلال شـديدة الانحـدار، جوانبها مغطاة بالبلوط الكثيف، والخـيس الـذي لا يمكـن دخولـه، مـوشى ومرصـع بغابات الزيتون الصغيرة، المفارقـة لطبيعة وحـشية والغـنى الطبيعـي. فالـدرب الـذي يؤدي إلى هذا المضيق يقطع خطوة خطوة، من جراء الانهيار الذي تحدثـه الميـاه مـن وهـاد جانبية لا تحصى. وقد ونحت على شكل إفريز تارة على هذه الضفـة وطورا على الأخرى، بجانب حافة الوادي التي يتحتم عبورها مـرارا عـلى مـجازات مـن الرمـل المتحرك الخاسف، والوحل ينتقل كل شتاء، ويرتفـع هذا الدرب أحيانا عـلى خـاصرة الجبل أو وسط الغابة راسما عددا كبيرا من التعرجـات، ثم ينزل بعد إلى مستوى ميـاه النهر التي تغمره، وتقع اللجة الخطيرة المسماة بالـضبط بوغـدار بـالقرب مـن إحـدى المجازات الرئيسية.

إنه في هذا الخناق الصعب للغاية بطبيعته. والذي قد أصبح أيضا أكثر صـعوبة من جراء كل المعيقات التـي أعـدت مـن قبـل القبائـل مثـل الخنـادق وقطـع جـذوع

الأشجار التي وجد رتل الأتراك منها مشقة في الدخول فيها، ورأى نفسه محاطا سريعا من كل جهة بحلقة من المقاتلين المعاندين، وأحيانا كانوا متخفين متوارين يلفونهم كما يقول الأهالي في كلامهم المزخرف المجازي"كمسحق الرحى".

لقد أحدثت الطلقات النارية المتساقطة كالثلج على هذه الجموع المرتبكة والمضطربة فاجعة مرعبة، فقد سقط الفرسان والمشاة يترنحون ويندفعون في الوحل عاجزين أمام عدو متربص كامن يرميهم من مخبئه بالرصاص، ويرجمهم بالحجارة من غير انقطاع عن اليمين وعن الشمال. وقد تغطى البوغدار سريعا بالجثث. وقد اجتهد عثمان باي في إعادة النظام إلى نصابه، لكن حصانه المرضوض بالحجارة وجذوع الأشجار التي دحرجها القبائل بفرقعة، من الجبال أصبح هائجا يستشيط ويسير كذلك في الموحل مقذوفا برصاصة في لبانه لقد كانت وضعية الرتل التركي حرجة، لكن موت قائده زاد الطين بلة، على الاندحار والانهيار، فقد كان الفرسان والعساكر يفرون في كل الاتجاهات ملقين بأسلحتهم للتخفف منها.

اقتل اقتل! الكل، كان الزبوشي القاسي الفظ يصيح وسط الجلبة بصوته الثاقب. وكانت الصرخات الحادة للنساء المشجعات لأزواجهن تختلط بالصخب. كان القبائل ينهضون من كل جهة مطلقين صياحا وحشيا، يسدون المنافذ والمسارب التي يمكن أن يفلت منها الأتراك."كانت مجزرة كبيرة، كان يروي لي شاهد عيان الحدث في عين المكان، كانت الأحصنة تهتاج وتشب وتسقط الواحد على الآخر ساحقة فرسانها الذين كنا نقتلهم بضرب الحجارة أو بالعصي، وقليلون جدا هم الذين كان لهم حظ النجاة. وكان أيضا هذا المكان يدعى منذ ذلك الحين المهراس، لأننا هرسنا وسحقنا الأتراك كما تسحق الملح".

وقد غادر الرجال المتخلفون بالميلية، الذين هوجموا بدورهم المخيم من جهتهم المخيم. وقد جمع القبائل غنائم المنهزمين، من الأعلام والمدفعية والخيم والأسلحة

والمؤونة، وقد بقيت كل أمتعة الرتل بين أيديهم. وقد كان البعض من جند الباي المنفلتين من الموت قد سلبوا وأهملوا في هذه الجبال أو فدوا فيما بعد [1].

ووسط هذه المذبحة عندما غاص عثمان باي في لجة بوغدار الموحلة، بسفح خاصرة جبل يسمى دريب المال انقض المرابط الزبوشي كالنسر الجائع من الأوائل على جثته وقتله بطعنة. وبمواعظه المتزمتة المتعصبة رسخ في ذهن الكل من أتباعه هذه الدرجة من التحمس التي تظهر بجنون حيواني بهيمي، نوعا من السعار والهوس للقتل من أجل تسكين نوع من الحمى إلى الدم فقط. وهل كانت الملحمة مرعبة كذلك، لقد هلك أكثر من ألفي تركي، وعدد أكثر اعتبارا من الفرسان العرب المساعدين في هذه النكبة.

ومثلما كان قد وعد به تقول الرواية الشعبية، وضع الزبوشي رجله على العين العمياء لعثمان، ثم قطع رأسه الذي أرسله إلى الشريف ابن الأحرش عند بني فرقان حيث انسحب منذ إصابته بالجرح. وقد كان قد أخرج الجسم المقطوع الرأس للمنكود عثمان بعد أن بقي خمسة أيام في اللجة، ودفن باحترام من قبل ناس العرابة فرع أولاد عواط.

وخلال حملة سنة 1860 قادني شيخ كان قد حضر الجنازة إلى حيث كانت الجثة قد دفنت. في نهاية مرتقى وعر جدا يتلوى وسط غابة الزيتون توجد الضيعة الصغيرة لأولاد عواط. وفي سنة 1852 عند هجوم رتلنا على أولاد عواط المتمردين العصاة، كان كوخ (قربي) من القش وقصب الحشفة يغطي ضريح عثمان، كان قد أحرق في نفس الوقت مع قرية الدمينة. كانت هذه القرية قد أعيد بناؤها من طرف سكانها، لكن، لا أحد كان يفكر أبدا في ضريح الباي الذي بقي دائما متواريا تحت كومة من

[1] - شيخ كرغلي شارك في هذه الحملة، كان قد قص علي يوما الحدث التالي: "في حملة عثمان كنت مكلفا بالكلاب التي كنا نأخذها معنا لوضعها مقابل الخيم التي أوكلت لي حراستها الليلية. وبفضل كلابي التي لا تعرف سواي رجعت سالما من مخيم الميلية إلى قسنطينة. لقد لازمت جانبي كل الوقت، وبحمايتها كان الحظ في الانفلات من عصابات القبائل التي كانت تسلب بقوة وتقتل رفاقي على طول الطريق".

الأنقاض، وبأريحية ومشاعر احترام رقيقة، أزال الجنرال ديزفو (DESVAUX) الأنقاض، وأعاد بناءه سنة 1860. وهي قبة صغيرة من البناء، مبيضة بالجير، ترسم اليوم معالمه وسط الصبار الذي يكلل الدمينة وعين بوموش. ويغطي هذا الضريح عمود معمم، وبلاطة من الرخام الأبيض كتب عليه:

هذا ضريح المرحوم السيد

عثمان بن محمد باي قسنطينة الذي كان

قتل بهاته الأرض المسماة أخناق عليهم

من بلاد أولاد عواط

في سنة 1219 هـ / 1804 م

عندما بلغ نبأ نكبة عثمان باي إلى قسنطينة كان الانذهال والوجوم فيها عاما كان لكل واحد منهم أن يبكي ويحزن على أحد موتاه. ومع الدموع والأسى راح الخوف الحقيقي يلحق بهم من هجوم جديد من قبل الشريف. لم يعد لهم رئيس، وخيرة المحاربين كانت قد رزحت وماتت. وقد أصبح في هذا الخطر الشديد الحل ضروريا لقد اجتمعت الشخصيات التي لها أكثر التأثير على المدينة في المجلس، وكانت قد قررت أن تكتب في الحال إلى الباشا لإخباره بهذه النكبة المرعبة وأن تصف له الوضعية الحرجة، التي كانت توجد عليها المدينة، والتخوفات التي كانت توحي بها للجميع فكرة هجوم قادم.

كان أحمد خوجة الذي جاء ليخلف مصطفى باشا على وشك محاولة إعادة تجديد سلطة مهزوزة من قواعدها من جراء اضطرابات ثورية، كانت الجزائر باستمرار مسرحا لها. كانت العناية بالسياسة الخارجية والمتاعب التي يثيرها له الإنجليز تشغله كثيرا، عندما تلقي الرسالة المشؤومة من سكان قسنطينة. وقد أثار جنونه هذا الفشل الدامي الذي لحق بجنوده، بحيث أراد أولا أن يسير بنفسه شخصيا ضد المتمرد. لكنه استسلاما لصوت مستشاريه الذين نصحوه بأنه من الواجب عليه ألا يترك مركزه،

وأن يوكل أمر الانتقام من هذا العار إلى أيد أخرى، قرر تعيين باي الشرق التركي عبد الله مع الإيعاز له بالشروع دون التأخر في مطاردة الشريف [1].

وبينما كانت كل هذه الأحداث تقع داخل البلد، أرسل الآغا المنصب بجيجل من قبل الشريف، والذي كان متضجرا لا شك من دوره الثانوي العاطل السفينة التي كانت قد تركت له في عملية قرصنة. ولم تكن قد التقت بها أية سفينة مسيحية في البحر، لكن، لما كان من غير اللائق الدخول إلى المرسى من غير إنجاز بعض المآثر فقد سلب صنادل (مراكب) الموريس التي كانت تبحر من بجاية إلى بونة بسلام على طول الساحل. وقد أحدث قرصان جيجل، هكذا كان يسمى، أضرارا كبيرة بالتجارة البحرية للموانيء الجزائرية.

بالرغم من الإهانة الملحقة بالحامية التركية بجيجل المرغمة على ترك الموقع للمتمردين من غير مقاومة، فإن باشا الجزائر ما زال لم يكن قد اتخذ أي إجراء فعال للردع، واقتصر، كما رأينا سابقا على أمر الباي الجديد لقسنطينة بالتخلص من المأزق بقواته الخاصة، واحتجاز الشريف. لكن اللصوصية المستمرة المقترفة من قبل قرصان جيجل، وخبر فاجعة عثمان جعلاه يقتنع بالتحرك للعمل. وقد تلقى الرايس حميدو، القبطان الجزائري الشهير الأمر بالإبحار نحو جيجل مع سرية صغيرة متكونة من أربع سفن حربية[2] وعند وصوله أمام المدينة أنذر رسميا السكان بأن يسلموا له الشريف وكذلك الكرغلي درنالي، الذي اعتبر خائنا بسبب أنه قبل أن يكون في خدمة الشريف، وقد كان مدفعيا في الجيش المنتظم للإيالة. وعند هذا الإخطار أجاب القبائل الذين كانوا يحرصون القلعة الصغيرة باسم بودالي بطلقة حية سريعة. وقد توقف الرايس حميدو أمام المدينة وشرع توا في القصف الذي استمر حتى الغد كذلك، لكنه لم يحدث إلا أثرا ضئيلا، وسواء أكان ذلك بسبب تماوج البحر أو سوء

---

[1] - تاريخ بايات قسنطينة من طرف السيد فايسيت.

[2] - زميلي السيد ديفولكس، من الجمعية التاريخية الجزائرية، كتب عن الرايس حميدو سيرة ذاتية ذات فائدة رفيعة، أرجع القارئ إليها.

قاصفي المدفعية لتسديد قصفهم، فإن القنابل (الكور) كانت تمر تقريبا فوق منازل شبه الجزيرة المرتفعة قليلا، عن مستوى سطح البحر، وتذهب للسقوط بعيدا، من غير أن تحدث أضرارا. غير أن الرايس حميدو قد كان راضيا قبل أن يبتعد بحرق المركب القرصاني للكرغلي درنالي في المرسى. ويؤكد أن قبطان الأسطول الصغير كان محتاطا في حمل سلاسل في السفينة لشد وثاق الشريف جيدا. لكن المراكب رجعت إلى الجزائر من غير أن تعمل شيئا ذا بال.

وقد فكر عبد الله باي، خليفة المنكود بدوره في التخلص من الشريف بن الأحرش، الذي كان يمكن أن يعيد غزواته من حين لآخر. وقد بعث الباي متذرعا بطلب السلم، ومنتقلا هكذا من وسيلة إلى أخرى المدعو الحسين لبني تليلان يحمل إلى الشريف، يقال، صندوقين مملوئين بالهدايا. وقد مات الحسين في وسط الطريق في محاولة مشؤومة منه للطمع والجشع، فقد جمع أبناءه الثلاثة وحاول معهم فتح أحد الصناديق رجاء اختلاس بعض الأشياء الثمينة. لكن هذا الصندوق الذي كان مليئا بالبارود قد انفجر بين يديه، وقتل الحسين، وكذلك اثنان من أبنائه. وقد كان الثالث قد أصيب بالعمى، لازال يعيش لدى بني تليلان، إلى وقت قريب، و هو نفسه الذي أخذنا منه هذه التفاصيل. وقد تشاءم الشريف من كل هذه المساعي، فلم يعد للزبوشي الذي أشفى غليله في الانتقام روح الثورة والتمرد قط، وكباقي سكان القبائل فقد هجر الشريف، ما دامت الدهشة التي نتجت عن هذا الانتصار الذي كان تاما أكثر مما كان يرجى كبيرة. وقد عاش المرابط الزبوشي الذي لعب دورا فعالا جدا في كل ما سبق ذكره أيضا عدة سنين. سوف لن أنقل كل الهذر والسخافات التي تحكى عند القبائل بخصوص موضوع الادعاءات العجيبة والغريبة التي أنجزت. إن السهولة التي بها يصدقون ويقبلون أقل الأحداث من غير أي تمحيص، ليس لها ما يوجب اندهاشنا، بما أنه، ما يزال عندهم أكثر من البلاد العربية، ذكر الأحداث، وحتى الأكثر أهمية منها، لا تنقل إلا عن طريق الرواية والحديث.

وفي شهر ماي من سنة 1808 في فترة طوبال باي، كان جفاف فظيع قد أقفر البلد، كانت المحاصيل الزراعية قد ضاعت، وأتلفت، وكان الفقر والجوع يهددان السكان. كانت الصلوات الجماعية والزيارات تؤدي إلى كل المرابطين المشهورين المتمتعين بنوع من الكرامات والقوة الخارقة للطبيعة. كان البعض ينغمس في الماء البارد، وكان البعض الآخر يضحون بالثيران والأغنام أو العنز، وهي عبادة خرافية وهمية وسائدة لدى الناس البسطاء السذج، تذكر بتلك العبادات التي كانت في عهد الوثنية. ومع ذلك ألم نر نحن اعتقادات شبيهة في أريافنا الأوروبية، عندما يتجول فلاحونا ويطوفون على شكل مواكب مثوى ولي قديس مشهور؟ فالقصد هو نفسه عند البعض منهم في استدرار المطر.

وقد ضحى الزبوشي المزار بدوره، ببقرة سوداء معلنا أنها ستكون مكفنة في الغد في وشاح من البياض الناصع. وأثناء الليل تغيمت السماء، وأعادت ثلوج غزيرة - مغطية الريف- إلى الأرض خصوبتها. وكانت تكهنات المرابط متحققة، إذ أن الثلج قد استخدم بالفعل وشاحا للبقرة المضحى بها.

ويحكى عنه أيضا بعض التنبؤات المعلنة عن قدوم الفرنسيين إلى الجزائر، والحروب التي كان على المسلمين أن يقوموا بها ضد المسيحيين. ومات الزبوشي أخيرا في سنة 1810، وكان قد دفن في زاوية رجاص بالقرب من ميلة. لقد ترك عدة أبناء، هم حسب رأي القبائل أيضا مرابطون ويتبعون سيرة أبيهم، لكن عصر المعجزات قد ولى منذ أن وطئت أقدام المسيحيين أرض الجزائر، وهل يقتصرون كذلك على عبادة الله ويعيشون في صمت عميق. لا أؤكد غير أنهم لا يتغذون عقليا كأغلبية المتعصبين المسلمين إلا بجنون أمل إعادة السيادة الروحية الدينية، عندما يأذن الله بإنقاذ البلد من حضورنا.

قبل الإشارة إلى ما وقع بجيجل إثر قصف الرايس حميدو، من المناسب الانتهاء مع البودالي، واقتفاء مناوراته (مكايده) إلى آخر لحظة.

لقد بدأ إذن حماس القبائل للرجل الذي شغفهم وفتنهم يخمد وينقص، وقد لاحظ ابن الأحرش الذي شفي جرح بساقه، البرودة التي صارت له عندهم، ورأى أنه من الحذر الابتعاد من غير ضجة من بني فرقان الذين كانوا قد استقبلوه. وراح مصطحبا زوجته يمينة والبعض من أصحابه المغاربة، والعبيد المسيحيين، الذين بقوا له، وقد كان الآخرون قد ماتوا من جراء سوء المعاملة، أو كانوا قد قتلوا في هجوم قسنطينة، أو في المعركة حيث هلك عثمان باي. لقد ذهب إلى منخفض وادي الساحل، حيث عاش مجهولا لبعض الوقت. كان الكلام عنه قد انقطع، عندما ظهر فجأة في شهر فيفري 1806 في جبال بجاية، وحاصر هذه المدينة، مثل قسنطينة ولم يأخذها. وفي خلال نفس العام، جاب قبائل البابور.

لقد جلبت الهيبة التي كانت لبطل هزيمة باي قسنطينة في نظر الأهالي تحت لوائه عددا من المناصرين. وقد تبعه في جولته ضد بلد الدهامشة الغني بنو زنداي وأولاد سلام، وأولاد صالح، وبنو عزيز، وقد سلبوه سلبا مفرطا، بعد ما كان شيوخه قد قطعت رؤوسهم بالقرب من سيدي حمودة. وقد باغتت فرق قسنطينة مصحوبة بوحدات القبائل التي بقيت وفية ابن الشريف في مخيمه في بوغدين عند الريشية وقتلوا له كثيرا من الرجال، وأرغموه على اللجوء بأصحابه إلى سند جبل بابور. وبدخوله في اتصال فيما بعد مع ابن بركات المرابط المتزمت لأولاد دراج من نفس جبلة الزبوشي، نجح الشريف في إثارة سكان ضواحي سطيف. وقد تلقى أولاد مقران أولياء مجانة، الإقطاعيون الكبار لهذه الناحية الأمر بحمل السلاح ومؤازرة فرق الأتراك المبعوثين ضد المتمردين. وكان الشريف بن الأحرش المدحور للمرة الأولى بالقرب من مغريس، قد هوجم من جديد في الرابطة عند أولاد خلوف، وفقد الحياة في المعركة. هكذا تبين أخبار الأهالي نهاية هذا التمرد: "في سنة 1222هـ/1807 يوم مجيء علي باشا كان محمد بن الأحرش قد قتل".

قد يكون من الصعب الزهد أكثر في التفاصيل.

لنعد الآن إلى جيجل. لم تكن لتدوم حالة تمرد هذه المدينة طويلا. في الواقع لم يكن سكانها مذنبين جدا، لأنهم تركوا من قبل الحامية الجبانة، لقد وجدوا أنفسهم مضطرين للخضوع إلى الشريف من أجل إنقاذ رجالهم وأملاكهم. رغم مغادرة بودالي، فإن قبائل الضواحي لم يكونوا يستمرون في ذلك إلا في العجرفة وفي معاملة جيجل كمدينة محتلة. ولوضع حد لهذه الوضعية المحزنة والمزعجة، ذهب عدة أشراف يذكر على رأسهم المرابط الشاب، سيدي محمد أمقران في وفد إلى الجزائر، وقد طلبوا العفو من الباشا، والتمسوا حمايته. وقد استقبلهم الحاكم الجزائري برضى، واصطحبهم بعد بضعة أيام الرايس حميدو عن طريق البحر إلى منازلهم، وأنزل في نفس الوقت بجيجل حامية جديدة من أربعين إنكشاريا لحراسة المدينة المحصنة.

لقد استعادت شؤون البلد مجراها العادي، وساد الهدوء في عشائر القبائل منذ حوالي خمس سنوات عندما انتشرت فجأة شائعة أن متعصبا جديدا يدعي أنه حفيد ابن بودالي بن الأحرش، كان قد ظهر في بني عمران. وقد أسرع القبائل الذين لم تكن مغامرات العم قد عدلت من إفراطهم في الثقة لرؤية الحفيد المدعي. ورافقوه في زيارة قام بها إلى المرابط مولى الشقفة لبني أيدر. وجرت على إثر هذه المقابلة مناقشة الاستيلاء على جيجل، لكن الشريف الجديد رفض ذلك متعللا بأن الوقت لم يحن للإقدام على الأمور الكبيرة. ولقد أساء إليه هذا التردد في عرف أولئك الذين كانوا يحيطون به، وأولاد بلعفو الذين كانوا يشتبهون منذ ذلك الوقت في مهمته الربانية، واقترحوا تسليمه إلى حامية الترك بجيجل. وحتى ينفلت من ملاحظاتهم لجأ إلى بني عيشة ولبث متخفيا في مغارة حيث لا يمكن الدخول إلا بمساعدة سلم. وبعد بضع من الوقت طاف ظاهرا على القبائل أيضا داعيا إياهم إلى الجهاد، وعندئذ كتب باشا الجزائر إلى المرابط سي محمد أمقران و إلى أشراف جيجل رسالة عجيبة، هذا نصها:[1]

[1] - قد نشرت النص العربي لهذه الرسالة في المجلة الافريقية رقم 75.

"الحمد لله وحده.

"وصلى الله تعالى على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه وسلم.

"حفظ الله تعالى بمنه وكرمه، مقام المكرمين أولادنا كبراء جيجل، مشايخهم والمرابطين خصوصا السيد محمد آمقران المرابط سدده الله، السلام عليكم ورحمة الله تعالى وبعد:

"فقد ورد علينا مكتوبكم وما ذكرتم لنا فيه على شأن عرو خوجة [1]، الذي كان قد هرب إلى داركم ودخل تحت حرمتكم، وطلبتم منا أن نعفو عنه ونؤمنه لوجهكم. فهمناه، واعلم حيث هرب إلى دارك، واحترم بحرمتك، فعليه الأمان ولا يخاف، فلا نضره بشيء، فلو كان مرادي في إذايته لفعلت ولا كان هو في دارك وفي أمانك يبقى هناك عندك إلا أن يعمل الله سبحانه وتعالى تأويلا، ولايمكنه أن يرجع إلى الجزائر. بل يبقى هناك.

"هذا ولنا عندكم حاجة تقضونها لنا، إن كنتم منا وإلينا، وهي أن ذلك الرجل الذي هو بوادي الزهور من جهة ابن الأحرش الذي كان هناك سابقا يدعي أنه حفيده، وهو مشتغل بالكذب والبهتان يغر الناس بالكذب ويغريهم بالبهتان ويقودهم إلى الفساد والضلال ويوصلهم إلى الهلاك دنيا وأخرى. "فهو من المفسدين في الأرض الضالين المضلين فإن أمكنكم أن تتحيلوا عليه بما يظهر لكم حتى تظفر به فلكم عندنا جميع ما تشتهونه. ولكم منا الحرمة الكاملة والمبرة الشاملة، وتكونون عندنا في المرتبة العليا".

"فاجتهدوا واحرصوا على الظفر به، فإن ظفرتم به فابعثوه إلينا ونكافيكم بما يرضيكم والسلام".

---

[1] - هذا الاسم لم يكتب بوجه آخر.

كتبت عن إذن المعظم الأرفع، مولانا الدولاتي السيد علي باشا أيده الله بمنه. الحاصل أننا سمعنا يدور في تلك النواحي علي الضلال والفساد، فلا يغرنكم ما تسمعون منه فإنه كله كذب وبهتان والسلام.

المتوكل على المولى الجليل عبده الحاج علي بن خليل (باشا) 1224هـ/1809م.

وتبين الرسالة السابقة بوضوح اتجاه سياسة تبحث عن تجنب الصعوبات أكثر من اقتحامها. كانت لا تتراجع أمام اختيارات الوسائل. وكل من يعرفون الفن التراسلي للمشارقة، يقدرون الشكل العسلي المتواضع تقريبا، الذي يتحكم في تأليفه ويوجهه. فاسم الباشا وخاتمه نفسه عوض أن يكون موضوعا في الرأس حسب الاستعمال الرسمي يذكر في الأسفل أو على ظهر الصفحة، كما لو أن هذا الأخير كتب إلى شخص من صف أعلى منه.

وقد أعطى إذن المرابط الشاب لجيجل، سي محمد أمقران، الذي كان قد تلقى الرسالة الرسمية السابقة المهمة إلى اثنين من مقربيه، يحيى البلهوان، والطيب بوجعادة، للشروع في تعقب المحرض على الفتن. وبعد ترصده لعدة أيام زحفا من عيص إلى عيص (غابة إلى غابة) كالنمرة التي تترصد فريستها. وانتهيا بمفاجأته في درب ضيق، عندما كان ينتقل من قبيلة إلى قبيلة وقتلاه عن كثب هو وخادمه. وعاد المرسولان فورا إلى جيجل حاملين رأس الشريف الذي أرسله سي محمد أمقران إلى الجزائر. وقد منح الباشا المعترف بالجميل مائة دورو منحة لكلا الرجلين، أما سي محمد آمقران فقد تلقى من جهته هدايا ثمينة وشهادات اعتراف جديدة من الحكومة التركية.

ومنذ ذلك الحين وإلى لحظة الفتح الفرنسي، لم يحدث في جيجل أي فعل يكون جديرا بالإشارة إليه. لقد خسر سكانها منذ حملة الدوق دي بوفور كل ما يكون ثروتهم يعني علاقاتهم التجارية مع الوسطاء الأوروبيين، الذين لم يعودوا يظهرون أبدا في مرساهم. وكان الجيجليون بسبب انعدام أراضي فلاحية، يستخدمون على ظهر

سفن القراصنة للجزائر، أو يقومون من خليج إلى خليج على طول الساحل بتجارة صغيرة للتبادل مع القبائل والأعراش. كان المرسى يتوفر على حوالي أربعة وعشرين صندلا أو فلكا، كانت تستعمل من حين لآخر في نقل خشب البناء للبحرية الجزائرية. وعندما انتهى هذا الإستيلاء، كان المساحلون (بحارة الشواطيء) يذهبون يبيعون لسكان الجزائر الزيت والشمع أو الفحم المصنوع في قبيلة بني قايد على بعد بضعة فراسخ من غرب جيجل. وقد احتفظ الجون الصغير حيث كان أصحاب المراكب يأخذون منه حمولتهم باسم مرسى الفحم.

كانت تنعقد سوق كل يوم جمعة في ساحة المدينة. وكان جند الأتراك لحراسة الأبواب ينزعون السلاح من القبائل الذين كانوا يرتادونها، الذي كانوا يستعيدونه عند خروجهم. والخلاصة، أنه رغم علاقاتهم بسكان الخارج وتنقل مراكبهم على طول الشاطيء، فإن وضعية الجيجليين كانت متزعزعة جدا خلال السنوات الأخيرة للإيالة. وستوقفنا بعض الرسائل الغريبة التي وجدت في وثائق عائلة أولاد أمقران على التجارة والصناعة في هذه الفترة:

"الحمد لله وحده.

"وصلى الله على سيدنا محمد.

"حفظ الله بمنه وكرمه مقام المبجل الموقر، ابننا سي محمد آمقران مرابط جيجل حفظه الله آمين.

"أخبركم فيما يلي باستلام رسالتكم العزيزة، لقد قرأناها، وفهمنا ما قلت لنا فيها، من أن واضعي اليد على الشموع والجلود، لا يستمعون إلى أوامركم، وأنهم ينوون نقل بضاعتهم إلى بونة. أطلب منكم أيها الابن أن تعلموهم من جديد، وأن تقرؤوا عليهم رسالتنا، حتى يأتوا إلينا بسلعهم، وحتى لا يذهب أحد منهم إلى بونة. إن أولئك الذين يستمعون إليكم ليأتوا إلينا سيكونون قد أنجزوا ما نريد، لكن الذي يعصيك سجلوا اسمه وأرسلوه إلينا. أعلمهم أيضا أننا عينا مركبا حربيا للجزائر، يذهب ليرابط في نواحيهم، وفي نواحي بونة. ومن تكن له النية في التوجه إلينا سيكون له الأمان، لكن

من سيوجد داخلا إلى مرسى بونة، سيقبض عليه من قبل المركب الطراد، وسنصادر بضائعه لصالح الدولة، سيموت صاحب السلع بالقريطة (الأشغال الشاقة). وما على الجانحين إلا أن يتحملوا وحدهم مسؤولية ما يحدث. ألم نكن قد أخطرناهم كم من مرة؟ غير أنهم يستمرون في العصيان، وكذلك ألن يسقط خطأهم على أعناقهم.

أخطرهم كذلك بالترتيبات التي اتخذناها، أما هم فسيعرفون ما ينتظرهم.

أرجوكم أيها الابن أن تدعوا رعايانا الفحامين أن يعدوا كثيرا من الفحم في مجرى هذه السنة. ادعوا كذلك رياس القوارب أن يشتروا عليهم هذا الفحم فالنقل وحده فقط سيدفع لهم عشر موزونة (1,25 فرنك) للقفة الواحدة. ما لهم إلا الربح، ستكون القفة القديمة أي القفة التي كان يستعمل رياس المراكب عادة للنقل. إن كانوا هم في حاجة سأقدم لهم تسبيقات من المال، أعلمني، سأرسلها إليكم. ليس لدينا شيء آخر أقوله لكم إلا أن أتمنى لكم السعادة والرفاهية والسلام.

"كتبت عن إذن الصدر العالي، سيدي إبراهيم وكيل الحرج لباب الجهاد، حفظه الله وأيده بمنه آمين 1237 هـ / (1821) من تاريخنا. [1]

لم أستطع أن أجد أي تفسير معقول للأسباب التي تعلل الإجراءات الصارمة المتخذة ضد التجار الذين ذهبوا لبيع سلعهم الغذائية في بونة. هذا ما كان قد قيل لي، لأن الباشا كان يتمسك بأن كل محاصيل الساحل، ينبغي أن تصل إلى سوق الجزائر. وذلك يجعلنا نفترض أن احتكار التجارة قد يكون بيع إلى أحد تجار هذه المدينة، كما وقع ذلك مثلا، لفائدة دار اليهود لأولاد بكري لاستغلال الغابات، وكان من فائدة الحكومة أن تساعده، حتى بوسائل الضغط ليكون لها حق الاقتضاء بدورها بإتاوة أكثر اتساعا.

[1] - وكيل الحرج، يعني المقتصد أو رئيس البحرية الجزائرية.

قد يمكن أيضا البحث عن تلك الأسباب في العلاقات السياسية الموجودة حينذاك بين الجزائر وتونيس، وقد يكون من اللائق في هذه الحال ألا يترك سيولة إنتاج البلد نحو مرسى مجاور لإيالة منافسة. وقد يساعد المقطع الآتي من رسالة أخرى من وكيل الحرج إلى سي محمد أمقران نفسه هذا الرأي:

"ابعثوا لنا كل الصاندل (الفلايك) لا تذهب ولو واحدة منها إلى تونس إذ لو أننا نعلم أن واحدا من رياس الصنادل ذهب إلى تونس، ما عليه إلا أن يتحمل هو نفسه تصرف ما يحدث".

وهناك رسالة أخرى من نفس الشخص موجهة في هذا المعنى:

"الحمد لله وحده.

"إلى ابننا سي محمد أمقران، مرابط جيجل.

"نحيطكم فيما يلي أيها الابن الفاضل، أنه ينبغي أن تبعث إلينا بالصنادل في أقرب وقت ممكن. التي سوف لن تكون مجلفطة (مزفتة) وأمر بأن تكون حالا وأن تبحر. ومن لهم الشموع والجلود يحملونها من غير خشية و في أمن تام. سيكون ثمن الشمع خمسة ثمن بوجو (25، 1فرنك) للرطل. عجل أيضا في عمل الفحم. ساعدونا أنت و إخوانك الرياس. ينبغي ألا يكون لك أي خصام مع هؤلاء الرياس. أما أنت شخصيا فلا بد أن تعجل بالإتيان إلينا لرؤيتنا من غير تأخير لا محالة. إذ لنا أن نحدثك في أمر هام نريد أن نكلفك به، وكذلك التوصيات التي توجه إليك فيما يخص موضوع بعض الأشياء التي يجب أن تقوم بها لصالحنا. وفي الختام، إنه من المستعجل أن تسارع إلى المبادرة فورا وعما قريب.

"أول كل عنايتك إلى عائلات البحارة الذين هم هنا في خدمتنا، إذ أنهم منشغلون عن أسرهم وبيوتهم، وأوص أغا النوبة أن يسهر بعناية على هذه العائلات.

من قبل إبراهيم وكيل الحرج سنة 1238 هـ/1822 م.

لقد علمنا أنك أسأت التصرف بالنسبة للآغا القديم للنوبة الذي كان قد حبس رجلا متهما بالسرقة. الذي يلقى الدراهم من هذا الأخير، ثم أطلقت سراحه يجب ألا تتدخل في الشؤون التي هي من اختصاص الآغا. لأن هذا الضابط هو الممثل لمولانا الباشا بصره الله. كل واحد منكم يجب أن يتمتع باعتبارات له. فأغا الحامية يجب أن يكون موضع احترام، مثلما يجب أن تكون محترما. ينبغي أن يأتيك مساعدا عند الحاجة ومن جانبك، واجبك أن تساعده. إن المحبة والأخوة ضروريتان بينكما. فالله تعالى يعيننا ويعينكم، كذلك. ويثبتنا على الطريق المستقيم بفضل النبي الذي يستحق الشفاعة في خلقه.

سننتهي من مدونة هذه الرسائل بتسجيل بعض السطور اقتبسناها من تجديد وثيقة الإجازة المسلمة من قبل الحاج أحمد آخر بايات قسنطينة. وتبين هذه الوثيقة أنه خلال السنوات الأخيرة للهيمنة التركية، كان تأثير أولاد أمقران يتسع في بلاد جيجل، وحتى في جهة بجاية، مع أن هذه المدينة كانت قد احتلت من قبل فرنسا منذ حوالي خمس سنوات:

"إنهم معلومون، الأغوات، والخلائف، والقياد، وكل من هم مكلفون بإدارة السكان، خاصة في مدينة بجاية وما يخضع لها مثل المدينة الصغيرة لجيجل وغيرها... إننا منحنا الحظوة إلى سي أحمد، المكي، [1] سليل المرابط سي محمد أمقران، بإذن المبجل السامي جدا الحاج أحمد باشا 1243هـ/1837م ."

لقد اتخذ الحاج أحمد حاكم بايلك قسنطينة اسم الباشا بعد سقوط باي الجزائر. وربما قد يكون الكاتب قد حرر الفقرة السابقة باسمه، واستعمل عبارة مكرسة قبل أن نكون قد فتحنا بجاية، حيث كان ينتشر حينذاك تأثير أولاد أمقران، اللهم إلا إذا كان الأمل في رؤيتنا نغادر البلد، وهي الفكرة التي برزت منذ مدة طويلة ليس في ذهن الأهالي فحسب بل عند الكثير من الأوروبيين، وهي تعتبر احتلالنا مؤقتا.

---

[1] - هذا الذي كان يحمل اسم جده جاء الأول ليقيم بجيجل.

وفضلا عن ذلك، ففي الوقت الذي كانت فيه المعركة في المقاطعة تكاد تصبح حاسمة مع فرنسا قبيل الحملة العسكرية الثانية التي كان يجب أن تنتهي بالانتصار الساحق لقسنطينة كان الحاج أحمد، لا شك يحاول تأجيج الشجاعة لرعيته، معطيا بعض الأدلة الأخيرة على سلطته التامة.

ومنذ ثمانية عشر شهرا، كان مقر المقاطعة في حوزتنا، وكان الإنكشاريون الذين يؤلفون حامية جيجل هم أنفسهم قد غادروا المدينة، التي لم تكن تحكم إلا من قبل حاكم، هو سي الطاهر أمقران. كان الطبع الديني لهذا المرابط يمسك بزمام القبائل باحترام، لكن حالة الفوضى والاضطراب للقبائل كانت منتشرة جدا، بحيث إنه كان لا يمارس نوعا من التأثير على الجيجليين. وفي هذا الوقت بالذات، وعلى إثر مواجهة حوادث مختلفة فيما بعد، فكرت الحكومة الفرنسية في فتح هذه المدينة البحرية.

الفتح الفرنسي

في أول جانفي 1839، كانت الأنديباندنت، سفينة فرنسية ربانها بران، الذاهبة من الجزائر بشحنة من القمح لحساب الإدارة، قد ارتطمت بالشاطيء، على مستوى وادي جنجن، على مسافة قليلة من جيجل. وقد أغارت القبائل القاطنة بجوار موقع الحادث على المنكوبين البالغ عددهم تسعة، وأسرتهم، بعد جرحهم، ورفضت الإفراج عنهم إن لم تعط فدية كانت تطالب بأن لا تقل عن اثنتي عشرة مائة دورو (6.000 فرنك).

وقد كتب قائد بجاية المطلع عن هذه الكارثة البحرية من قبل بحارين جيجليين هما الأخوان: الرايس عيسى، والرايس مسعود بوربون إلى الجنرال جالبوه بقسنطينة قائد المقاطعة آنذاك، الذي سارع إلى التفاوض لإطلاق سراح المنكوبين عن طريق المرابط مولى الشقفة، وقد حصل في أثناء ذلك الأخوان بوربون اللذين اتخذا من نفسهما وكذلك أسرتهما رهينة لدى القبائل على تخفيض في مبلغ الفدية، التي حددت نهائيا بـ 4.500 فرنك، وقد كان الأسرى قد أرسلوا إلى الجزائر بعد دفع المبلغ.

وقد كافأت الولاية العامة الأخوين بوربون مكافأة سخية على فعلهما الكريم.

وانطلاقا من هذا المبدإ الخاطيء الذي يعتبر أن الأهالي مجردون من العاطفة البشرية، فإن بعض العقول المتوهمة راحت تفترض تفسيرا لهذه الحال جاعلة عائلة برابنة جيجل تنحدر من أحد برابنة فرنسا، بقي بين أيدي الموريسيين بعد حملة 1664. ولم تكن هذه الرواية التي تعتمد أساسا على نوع من التشابه في الأسماء، أكثر استساغة من تلك التي يوردها أولاد أمقران عن أحد المونتمورنسيين (MONTMORENCY) الذي يكون قد اعتنق الإسلام. وكلا هذين المصدرين لا يستند إلى أي رواية أو نقل أوروبي أو أهلي. وحتى لا تعدم الحقيقة أيضا فهي تفتقر كثيرا إلى الاحتمال. وستكون لنا الفرصة في عمل آخر للخوض في التفاصيل الأكثر توضيحا عن هذا الموضوع.

وخلال السنة التي كان فيها المنكوبون التعساء في قبضة القبائل كانت كل حركة، وكل عملية من العمليات العسكرية أو البحرية يمكن أن تعاكسها رداءة الطقس. وكانت الوسيلة المستخدمة لإطلاق سراح بحارة السفينة الشراعية "الأنديباندنت" ضرورة قصوى، غير أنه لا بد من ذكر العمل البربري الذي جعل من أناس ضواحي جيجل جناة في الوقت المناسب. وفعلا ما إن سمحت الظروف الجوية بإبقاء الجنود خارج المخيمات، حتى اهتم المارشال فالي حاكم الجزائر العام، بإصدار التعليمات لاتخاذ التدابير اللازمة لضمان إنجاح حملة ضد هذه المدينة. وكان يجب أن تنجز هذه العملية إن لم تتقدم في نفس الوقت مع أول التحركات التي كان يجب على جيش قسنطينة أن يقوم بها في اتجاه سطيف ومجانه. كان يعتقد أن معاقبة السكان المتمردين الجفاة لجيجل قد يعطي مثالا مناسبا شافيا للأعراش القبائلية القاطنة شمال خط الاتصال الذي يؤدي إلى سطيف مرورا بميلة وجميلة عند السفح الجنوبي لبلاد القبائل الشرقية.

كان احتلال كل مراكز الساحل إجراء ضروريا، يجب أن يقع بالتوازي مع سير مؤسساتنا بالداخل، وأن يكون متزامنا مع تقدمها. وقد كان المارشال فالي يريد من السيطرة على الموانيء و إنشاء طرق الاتصال فتح منافذ للتجارة وضمان حركة منتجات الصناعة والفلاحة. ومن هذا المنظور لا بد من أن تصبح جيجل مفيدة جدا.

لقد أعطى الجنرال جالبوه (GALBOIS) قيادة الحملة التي تذهب لمهاجمة جيجل بحرا لرئيس قيادة الأركان دي سال (DE SALLES) أما هو فيقوم بالعمليات من البر، فقد كان قصده التوجه من ميلة إلى جيجل لدعم حركة جند الإنزال. وكان على حراس سكيكدة وبجاية أن يخرجوا من مواقعهم في اليوم المحدد للهجوم لصرف انتباه السكان القبائل بهذه المناورات و إعاقتهم من التوجه إلى ساحل جيجل أثناء الأيام الأولى للاحتلال.

وقد أبحرت سفينتان بخاريتان، هما الستيكس (LE STYX) وسيربير (CERBERE) من الجزائر بأول فوج من اللفيف الأجنبي المخصص لتشكيل حامية

جيجل بعد احتلال هذه المدينة. كان الجنرال جالبوه (GALBOIS) قد توقع أنه يصل برا يوم 13 ماي أمام جيجل، وكان يجب أن تنزل فرق الإنزال في نفس اليوم على الشاطيء. لقد كانت قيادة السفن لقبطان الفرقاطة دو ماركي (DE MARQUE) وقد كانت الحملة الصغيرة المجمعة في سكيكدة مشكلة على النحو التالي:

- **رئيس قيادة أركان الأسطول الصغير دوسال، قائد عام،**
- **القائد دو مسنيل (MESNIL) رئيس الأركان،**
- **رائد كتيبة (اللفيف الأجنبي) هوران، قائد المشاة،**
- **قبطان سلاح المدفعية البوف (LE BOEUF) قائد المدفعية،**
- **الملازم الأول للهندسة ديراند دو فيلي (DURAND DE VILLERS) قائد الهندسة.**

وقد كان عدد الجند:

- **مشاه 683 رجلا (الكتيبة الأولى للفيف الأجنبي).**
- **مدفعية 24 رجلا**
- **هندسة 51 رجلا**

وكان عتاد المدفعية يتكون من قطعتين ذات 12، ومن مدفعين اثنين للحصار.

وقد وصلت السفن الذاهبة من سكيكدة يوم 12 ماي أمام جيجل حوالي منتصف الليل من يوم 12 إلى 13.

وقد تمت محاولة معرفة مدخل المرسى ليلا، لكن الزورق المكلف بهذه المهمة كان قد جرفه التيار إلى الشرق، وكان يجب انتظار طلوع النهار للاقتراب من الشاطيء. وألقت المراكب مراسيها على الساعة الثامنة صباحا وشرع في الإنزال الذي وقع عند أسفل أسوار المدينة من غير أن تكون أية مقاومة جادة من قبل السكان.

واتخذ جندنا سريعا من غير اشتغال بالمدينة التي فر جزء من سكانها - لم يعد أي دفاع - على قمة التلال المجاورة موقعا كان يضمن الاستيلاء على المدينة والمرسى.

وتزودنا مراسلة المارشال دي سانت أرنو قائد كتيبة اللفيف الأجنبي آنذاك التي استولت على جيجل، عن هذا اليوم الأول ببعض التفاصيل الخاصة التي لا نتردد في إثباتها هنا:

"جيجل في 14 ماي.

"إننا إلى جيجل دخلنا من غير مقاومة ومن دون إطلاق نار وبعد عملية إنزال، من أسوء العمليات، إذ أنه لو وجدنا المقاومة لكنا قد هلكنا. لقد لمست مراكب الإنزال العمق وبقيت جانحة منتصبة تحت نيران حصن المدينة. وتضجرا من هذا الوضع المضحك ارتميت إلى السباحة مع فرقتي، لقد مشينا بعض القامات في الماء، وكنا قد وضعنا اليد على المدينة. وما إن وصلت إلى جيجل حتى توجهت إلى أمام المدينة إلى حوالي ربع الفرسخ لأخذ موقع على خط تلة. لقد استقبلت هناك بتراشق حقيقي، قتل لنا بعض الرجال. وبتواصل قمت بعمل حواجز صغيرة من الصخر الجاف ومن الطين وأوراق الصبار لجعل الرجال في منجى.

"لقد أطلقنا النار وقنبلنا طول اليوم. كان القبائل يبدون حوالي خمسمائة أو ستمائة... وقد وعدنا منهم بخمسة أو ستة آلاف مساء. لقد تركونا في هدوء ليلا... في الوقت الذي أكتب فيه إليك (الساعة التاسعة صباحا). كانت أرتال كبيرة بيضاء تنزل من الجبال وتتوعدنا بمعركة عنيفة...

يا لها من مدينة جيجل هذه، حيث قدر لنا أن نقضي ربما عاما... منازل قد لا تضع فيها أمنا خنازيرها في قاسكون... ثم إننا لا ندخل إليها وهذا أحسن. لقد أقيمت معاقل حول المدينة التي لا تتصل باليابسة إلا بلسانة سهل جدا الدفاع عنها. [1]

لقد كان الجيش الفرنسي يحتل موقعا جديدا في الجزائر، ولكن كان لابد من ضمان حمايته من هجمات القبائل التي سوف لن يتأخر وقوعها. وقد كانت أعمال

[1] - مراسلة المارشال سانت أرنو.

التحصين قد قررت سريعا وشرعت بهذا الغرض. كان جنود البر والبحر يعملون بحماس، المعول بيد، والبندقية باليد الأخرى لقد استغلت المعاقل القديمة المخربة. وأحدثت فتحات بزاوية قديمة كانت توجد هناك على يمين الموقع. وأصلح الباقي من البرج المسدس القديم حيث كان للدوق دي بوفور سنة 1664 مركزه الأمامي. وقد أخذ هذا البرج اسم سان فيرديناند. وقد كان الدفاع قد ضمن بمنتصف الخط بإقامة معاقل مربعة مرتبطة بحصن خماسي. وقد سمي أول هذه الحصون بقلعة جالبوه وأعطي اسم سانت أوجيني للثاني. وعلى اليسار قرر بناء حصن باسم قلعة دوكان على أنقاض بناء قديم مشرف على المرسى وحيث كان يوجد مصلى إسلامي يدعى جامع سيدي أعمر.

وكان العمل خلال يوم 13 ماي قد تواصل بقدر ما أمكن من نشاط لكن الأهالي الذين كانوا قد أوقفوا لحظة كل هجوم، استأنفوا في نهاية اليوم إطلاق بعض الطلقات من البنادق، ولم تكن الأشغال متقدمة تقدما كافيا، حتى يمكن الاستيلاء على الموقع طول الليل، إن الجنود المحصنين غربا بمعقل سانت فيرديناند غربا، وشرقا بمعقل دوكان الذين لم يخرجوا قد خيموا أمام حائط قديم كان يغلق المدينة من جهة اليابسة.

وفي الغد من يوم 14، منذ الخامسة صباحا كان جنودنا قد أخذوا مواقعهم. وحوالي العاشرة كما تقول الرسالة المقتطفة من مراسلة المارشال دو سانت أرنو آنفا، لقد شوهدت جماعات عديدة من القبائل تنزل من المرتفعات الواقعة شرق وجنوب شرق جيجل، وعما قليل من بعد بدأت المعركة على طول الخط بينهم وبين جنودنا. إن سرية اللفيف للقنابل التي تحتل معقل جالبوه، وسرية المشاة، ومفرزتين بحريتين منزلتين من الباخرتين المقيمتين بين هذا المعقل وحصن دوكان قد صدت الهجوم الرئيسي للعدو الذي كان قد وجهت له ضربات قصف مدفعي الحصار. لقد توقفت الباخرة السيربير (LE CERBERE) أمام حصن دوكان وتمكنت من فتح نارها على

تجمعات القبائل. ولم ينسحب المهاجمون إلا حوالي الساعة الثالثة بعد الظهر، وكان عددهم قد قدر بـ 2500 في تقرير أنهاه المقدم دوسال بهذه العبارات:

"يجب علي أعظم الثناء على شجاعة ورباطة جأش الجنود. لقد كنت باستمرار بحاجة إلى تهدئة حماس الفوج الأجنبي والبحرية. وكان نقابو الهندسة قد أنجزوا تحت نيران العدو أعمالا هامة. وكانت المدفعية تحتل الموقع الأكثر خطرا. لقد اشتغلت بهدوئها وشجاعتها المعتادة، لقد كنت قد أقمت وسط بطاريتها، واستطعت أن أقدر إخلاص الكل. ولقد أصيب مشير الرقباء وأحد القاذفين بجروح خطيرة، وكان حولي عدة ضباط قد أصيبوا بالرصاص.

"وكان نقيب الفرقاطة بشماي (BECHAMEIL) قد جرح جرحا خفيفا، وتلقى قبطان المدفعية البوف (LE BOEUF) رصاصة في ثيابه، وكان قد أصيب طبيب الفوج سوكورجون (SECOURGEON) بجرحين في رأسه لحسن الحظ لم يكونا خطيرين. لقد أدى الجميع واجبهم وعلى بعض توسع خطنا، وبعض التقدم في أعمالنا فإنني لم أشعر بالقلق. يجب علي أن أنوه تنويها خاصا بالقائد هوران، لقد كان متواجدا حيثما كان الخطر، وكان هدوءه، وشجاعته تثبتان الجند. وباختصار سيدي المارشال، إن عمليتنا قد نجحت تماما، وأعتقد أن جيش إفريقيا قد حاز جدارة جديدة لفضل الملك.."

يوم 15 ماي سعت بعض القبائل المجاورة إلى طلب السلم، وكان قد سمح للأهالي بالدخول إلى داخل الخطوط لكن شريطة أن يتقدموا من غير سلاح. لقد أحضر بعض القبائل ثيرانا، وقد تمكنت الإدارة أن تشتري منها لاستهلاك الجنود غير أنه خلال هذا اليوم نفسه، انزلق بعض القبائل في وادي يقع أمام مركز الموقع المحتل واندفعوا بعدد حوالي 400 على مركز حراسة صغير متقدم، مقام من وراء الاتصال بين حصن سانت أوجيني ومعقل جالبوه (GALBOIS). وقد كان الرجال الذين يحتلون هذا الموقع قد أرغموا على الإنسحاب، لكن القبطان دوسانت أرنو قد وصل لنجدتهم على رأس سرية

الرماة، ورد القبائل ولاحقهم إلى أكثر من ألف متر، بينما كان القبطان كليرك (CLERC) يخرج على رأس سرية المشاة من معقل جالبوة، وينظف المكان تماما [1].

يوم 15 مساء كان حصن دوكان قد تم، وسلح بقطعة ذات 12 وكان معقل سانت أوجيني ومعقل جالبوه في وضعية دفاعية محصنة، كانت فتحات الجدار القديم المكون لحضن المدينة من جهة اليابسة قد رممت حتى تستطيع المدينة استخدامه عند الحاجة كمحرز. وحتى في الداخل كان قد شرع في التهيئة على شكل قصبة، وبنيت بيوت خشبية لإسكان الجند.

لقد أشار أهل البلد الذين كنا قد تمكنا من الاتصال بهم إلى أن قبيلة بني عمران هي أكثر القبائل عدائية، لكنها كانت توجد على الطريق الذي يجب أن تسلكها قافلة الجنرال جالبوة، وكان يؤمل أن تتوقف كل الهجمات حالما تكون القافلة المنطلقة من قسنطينة بالقرب من أسوار جيجل.

لقد أعلن عن وصول الجنرال ليوم 13 وقد تأخر لمدة ثلاثة أيام وكان منتظرا بتأثر من قبل الفيلق المحتل لجيجل. لاسيما وأن تقارير الجواسيس كانت تبلغ عن هجوم جديد ليوم 17. وكان هذا التاريخ يصادف يوم سوق، وكان لابد من أن يظهر القبائل بقوة أمام خطوطنا. خلال يوم 15 قد جد في أشغال التحصين، وبنوع خاص وسط الموقع وقد كان الموقع الصغير المهاجم عشية قد حصن بجدار، وكانت أشغال الطريق المغطى الرابط بين معقل جالبوه، وبين الحصن سانت أوجيني متقدمة جدا وأخيرا وصلت في المساء برقية رسمية من الجنرال جالبوه، لكنها كانت تخبر أن صعوبات الطريق والظروف السياسية كانت تجبر القافلة على التوجه على التوالي إلى جيملة وسطيف، وأخيرا فإن الجنرال قد التزم بالعدول عن مشروع الذهاب إلى جيجل [2]. كان إذن كل أمل لنجدة جند الإنزال خائبا، وكان عليهم وحدهم أن

---

[1] - تقرير 15 ماي للقائد هوران إلى رئيس الأسطول الصغير دي سال.

[2] - كان ضباط الأمير عبد القادر قد ظهروا في البلاد بين سطيف ومسيلة.

يصمدوا لهجوم أذيع عنه أنه رهيب وقد كان لهم في المعارك السابقة 8 قتلى و42 جريحا - يوم 17 ماي حضرت جموع من القبائل، قدر عددها بـ 4000 حوالي العاشرة صباحا أمام جبهة الأشغال.

كان القبطان دو سانت أرنو قد كلف بقيادة الميسرة، وقد كان قد عهد إلى أحد القذافين بنصب بطارية قريبا من قلعة سانت أوجيني، وكان رئيس الكتيبة هوران يقود الميمنة في اتجاه معقل سانت فيرديناند. وقد تسلق القبائل برباطة جأش منحدرات جبل أيوف ووصلوا إلى عشرين مترا من الخط. وقد زعزع أحد القذافين المكلف بقصف قافلتهم زعزعة كبيرة، وفورا دفع بسرية سريعة ضدهم. وقد طاردتهم بالحراب، في حين كانت المدافع الحجرية المستعارة للبحرية المقيمة بحصن سانت فرديناند، ومعقل جالبوه، وقذافو الحصار يقصفون الجموع الموزعة على منحدر الجبل.

وقد وقعت معركة دموية، شمالا ليس بعيدا عن حصن دوكان، وقد أوقع القبطان دو سانت أرنو على رأس مشاته بالمهاجمين الذين عرقلت نيران الباخرة الستيكس (LE STYX) انسحابهم.

"هذا الأمر، كتب القائد دي سال، كان شرفا عظيما للجند، لقد هاجموا العدو من كل مكان ببأس شديد، إنه من النادر التمكن من نيل العدو في إفريقيا، وأكثر ندرة أيضا أن يرغم على ترك جثث الذين هلكوا. لقد منحتنا ربة الحظ هذه الحظوة. لقد ظهرت هذه الحالة الأخيرة على أنها خارقة بالنسبة للسكان الذين كانوا قد أعلنوا عن هجوم لليلة الموالية، ولم يقع.

= وقد مولت ميلة التي كان يجب أن تستخدم قاعدة لعملية جيجل بشهر من المؤونة لقافلة من 3000 رجل، لكن لم تكن لدينا حينذاك إلا معلومات مبهة عن البلد الذي يوجد بين ميلة والبحر. لقد سعينا إلى التعرف إلى طريق، وقد ظهرت صعوبات الجبال التي يجب أن تقطع بحيث لم يتجرأ على توريط الجنود هناك. وقد كان هذا السبب أكثر جدية، إنه من المؤكد لكل من يعرف أن قافلتنا الصغيرة تكون قد ألقيت بلا تبصر في دوامة من الدوامات الأكثر خطرا.

"ووسط هذا النجاح المتألق أصابنا كلنا ألم عميق في القلب. لقد أصيب القائد الباسل هوران، الذي كانت أخلاقه مقدرة من كل الذين كانوا يعرفونه بجرح خطير جدا. لقد أصيب برصاصة اخترقت صدره على بعد خطى مني في الوقت الذي كنا نحمل فيه إلى الأمام، آمل أن يعيش أيضا لخدمة فرنسا التي حان الوقت أن يرتبط بها بعلاقة الوطنية، أرجوك سيدي المارشال أن يطلب من الملك أن يمنح لهذا الضابط الجريء الموافقة على التجنيس الذي استحقه ثمنا لدمه. إن هذا الحدث قاس بالنسبة لي، كان لي تعلق منذ مدة طويلة بالقائد هوران، يرتكز على احترام أكثر تقديرا، وبرؤية التعلق الذي كان يوحي به للجميع، منذ كنا معا، والمثل الكريم الذي كان يقدمه تعلمت درسا جميلا من أعظم الدروس المفيدة جدا للرؤساء الذين يريدون أن يكسبوا ثقة جنودهم".

لقد كان القائد هوران الذي تقرظه بعض هذه الكلمات تقريظا حقيقيا، قد نقل إلى مستشفى بجاية، حيث توفي بضعة أيام من بعد. وحسب وصيته الأخيرة فإن جثمانه كان قد نقل إلى جيجل، ودفن في حصن دوكان في أول جوان. وقد قدمت كل الحامية التشريف الأخير لهذا البولوني الشجاع الذي لم يستطع أن يجعل خصاله الفروسية في خدمة وطنه، وأرغم على الابتعاد عن بلده المضطهد، لقد قدم حياته بعز وفخار لعلم لم يكن له [1].

وتزودنا المراسلة الخاصة بالجنرال دي سانت أرنو أيضا بتفاصيل مليئة بالفائدة عن الظروف التي سبقت موت رئيسه القائد هوران.

---

[1] - كان القائد هوران من أصل ليتواني. كان حظه معتبرا فقد كرس جزءا كبيرا منه لمساعدة مواطنيه المدمرين من قبل الأحداث السياسية لأوروبا وعند احتضاره بمستشفى بجاية كان يقيء دفقات من الدم غير قادر على نطق الكلام بوضوح، أشار بإحضار علبة محتوية على أوراق بحضور عدة ضباط وكان يشير = إلى حرقها بالشمعة التي كانت تشتعل عند رأس السرير كل السندات أو وصول المبالغ التي كان دائنا بها للرفقاء الذين قدم لهم خدمة. كان هذا توديعه الأخير.

"إلى المراكز الأمامية قدام جيجل يوم 18 ماي 1839.

"أه! أيها الأخ أية مهنة هي مهنتنا! منذ أن كنت هنا يوم 13 كم من انفعالات مختلفة، كم من أحداث، كم من آلام مبرحة. كل الأيام، أيها الأخ، كل الأيام من غير استثناء خلال خمس أو ست ساعات فهي معارك العمالقة! إذ أننا نواجه على الأقل خمسة عشر مائة رجل، ومرتين أربع آلاف. بعد الهجوم على كل نقطة من خطنا الواسع كثيرا بالنسبة لجمعنا الصغير. كنا مرغمين على الهجوم بالحراب وقمنا به بحماس وقوة جديرين بأكبر مسرح. وبالاعتماد على وسائلنا الخاصة فقد صنعنا المعجزات، وقد منحنا ذلك الاعتزاز بالنفس. لقد انتزعت سريتي مواقع مغطاة بالقبائل الذين يصارعون بمجابهة، يشدون على الأرض ويموتون ضاربين. وكشاهد على المعركة بالخسارة، لقد فقدت يومي 15 و17 عشرين جوالا. وقد جرح ملازمي... إن هؤلاء القبائل هم الجند الأكثر شجاعة في كل إفريقيا. هناك منهم من هجموا على قطعنا، وقد قتلوا بالقنابل المتشظية على بعد 10 خطوات لقد كانت جثة الأب قد سقطت، وقد قتل الابنان فوقه بضربات الحراب وهذا ليس وحشية، ففي الحضارة لا يمكن فعل أفضل من ذلك... وماعدا الهجوم على قسنطينة، لم أشاهد شيئا مشابها للمعارك التي نخوضها هنا.

منذ 13 لم أنم، ولم أنزع جزمتي وفك أزرار معطفي، يثبتني الحماس والضرورة، قد أكون في صحة جيدة لولا الحزن المريع الذي صدمني البارحة. لقد تلقى قائد كتيبتنا، المقدم هوران، صديقي الحميم، الرجل الذي انسجم معه أكثر، وهو يحمل على القبائل رصاصة اخترقت صدره. لقد بكيته وأبكيه: أرثي لنصر عزيز جدا. لقد حمل على متن الستيكس (STYX) التي قادته هذه الليلة إلى بجاية حيث طلبت النجدة والذخيرة. إن جرحه خطير جدا، ولا ينقذه سوى شجاعته ومعنوياته فقط".

لقد رأينا سابقا أن أوامر قد أعطيت لحاميتي سكيكدة وبجاية للفت انتباه القبائل أثناء العمليات الأولى ضد جيجل بأن يقوموا بخرجات في اتجاه هذه المدينة.

وقد أرسلت سكيكدة كتيبة يوم 13 تحت القائد شوبان (CHOPPIN) على الطريق المؤدي إلى القل.

وقد وقعت اشتباكات حادة في الجبل، وفي المساء دخلت الكتيبة إلى المدينة المحصنة، وقد توفي منها اثنان، وجرح 13. من جهته خرج المقدم بيدو القائد الأعلى لبجاية من هذه المدينة ليلة 11 إلى 12 ماي على رأس 600 رجل. وتوجه نحو خناق تيزي حيث وصل قبل طلوع النهار. وقد احتل منها المواقع المشرفة. ثم بلغت القافلة قرية ايرزه متبعة دربا صعبا جدا، ومضت حتى قرية ملالة وهي 50 أو 60 بيتا كانت تؤلف هذه القرية الواقعة على ضفاف الصومام، وعند اقتراب القافلة فر السكان بمواشيهم. ثم رجعت القافلة إلى بجاية، وقد اشتبكت عند عودتها برجال الشيخ أمزيان قاتل القائد سالمون ([1]) وكان قد قتل رجلان، وجرح خمسة عشر. ويوم الغد 15 سعى المقدم بيدو في إيجاد معبر تجاه مصب الصومام، والتعرف على السهل من جانب ميزاية. لكن تهاطل الأمطار خلال يومين أرغم الفرقة على البقاء في المواقع. لقد كان المجاز في حالة يتعذر عبوره. وأخيرا، وصلت يوم 17، أخبار من جيجل إلى القائد الأعلى، كانت هذه المدينة قد احتلت، وكان إذن من غير المجدي مواصلة العمليات في ضواحي بجاية.

عند سرد الأحداث التي تشير إلى بداية احتلال جيجل كنا قد توقفنا عند معركة يوم 17 ماي. وسنعود إلى هذا التاريخ لمواصلة عرضها. لقد حتمت خسائر يوم 17، وضرورة التعجيل بأشغال التحصين على القائد دي سال طلب النجدات من المقدم بيدو، الذي لم يتردد لحظة في أن يرسل إليه سريتين اثنتين من الفيلق الثاني من الفرقة الأجنبية تحت قيادة رئيس الكتيبة هونفو (HONVAUX).

ومن جهته فقد وجه الحاكم العام من الجزائر إلى جيجل يوم 22 ماي سرية جديدة من المشاة، وقدم نجدة بالتموين والدخائر، وكذلك برجين مصفحين

---

[1] - انظر موضوع هذا الشيخ الأهلي في تاريخنا لبجاية.

مفككين. وكان قد نصب أحد هذين البرجين بحصن سانت أجيني وأقيم الثاني على القمة بين حصن سان فرديناند ومعقل جالبوه، في موقع اتخذ اسم حصن هوران.

في يوم 26 ماي كان يتوقع هجوم جديد، كان المراقبون قد أشاروا إليه في تقاريرهم، وقد اتخذت الإجراءات لصده. وقد كان الهجوم قد وقع فعلا، لكنه لم يكن ذا أهمية، لقد حضرت مجموعتان من القبائل أمام حصن هوران، وحصن دوكان، وكان يبدو أنهما لم تتكونا إلا من 200 رجل للمجموعة الواحدة. وكانت بعض القذفات المدفعية كافية لإبعادهم.

كانت وضعية أشغال التحصين متقدمة جدا في أول جوان، فقد كان حصن دوكان المزود بقطعتين ذات 12 مغطى تماما، وقد كان يشتمل على بيت من الخشب لسرية، ومنزل للضباط، وكان حصن سانت أوجيني يستطيع أن يقاوم، وكان معقل جالبوه قد سلح بقطعتين ذات 4 وكان السعي دائما لتحسين وسائل الدفاع فيه، وكان يحتوي على بيت خشبي لإيواء السرية. وكان حصن هوران الواقع في المقدمة على قمة صخرية مشيدا بالحجر، يربطه طريق مغطى بحصن جالبوه.

وفي مؤخرة هذا الخط كان قد أعيد بناء جدار طوق المدينة وحول برج جينوه إلى مخزن للبارود. وكانت بطارية جديدة للدفاع عن المرسى والسهل الصغير الذي يمتد جنوب شرق المدينة في أشغال الإنجاز. وفي المدينة نفسها كان قد أقيم نوع من المحرز باسم القصبة، وكان مسجد قديم محول إلى مستشفى يستطيع أن يستقبل من 50 إلى 60 مريضا. وأخيرا، فإن محلات مؤجرة للخواص الأهالي كانت قد أعدت لاحتياجات المصالح الإدارية.

خلال ليلتي 2 إلى 3 جوان بدأ تراشق حامي الوطيس على مدى انتشار كل مواقع جبل أيوف. وفي اليوم السابق كانت فرقة استطلاع في اتجاه رأس فج الزرزور غرب المدينة قد اكتشفت تجمع عدد كبير من القبائل. ولم نكن أيضا نفاجأ بهذه المحاولة،

وحتى للرد على هذا الهجوم الليلي فقد أمر القائد الأعلى دي سال بالتوجه إلى المهاجمين الذين كانوا قد هزموا في كل مكان. وقد عجز لنا سبع رجال عن القتال أثناء العمل.

لقد وقع هجوم جديد الليلة الموالية، لكن هذه المرة ارتأينا أنه من غير المجدي السير لنجدة الموقع المهاجم، الذي كان يبدو الدفاع عنه مضمونا. ومن جهتهم عوض أن يهجم القبائل جملة على جبل أيوف حاولوا الانزلاق من الشق الذي يوجد بين حصن سانت أوجيني، وحصن دوكان، والمجيء لمهاجمة المخيم نفسه من مؤخرة خط الدفاع. لقد بقي الجند في صف القتال. وكانت أربع طلقات مقذوفة متشظية لرد القبائل الذين استمروا يعبرون تحت نيران حصن دوكان الذي كبدتهم مدافعه القاصفة والقذائف المتشظية كذلك خسائر جسيمة.

"هذه الهجمات الليلية، كتب القائد دي سال يبدو أنها تشير إلى أن العدو لم يكن له الأمل في مطاردتنا من مواقعنا، وأنه يريد فقط إزعاجنا. سيعود الهدوء شيئا فشيئا، وسوف لن نتأخر في عقد علاقاتنا، وإنني مقتنع بذلك، إن القبائل يعرفون أن جبهتنا وميمنتنا منيعتان".

ولحماية الميسرة وربط حصن سانت أجيني بحصن دوكان شيد برج مصفح محاط بحاجز سمي باسم فالي (VALEE)، وأخيرا ختمت أشغال تحصين جبل أيوف بمنزل صغير ذي شرفات قدام حصن سانت أوجيني.

في ليلة 8 إلى 9 جوان، كانت الحصون قد هوجمت هجوما عنيفا أيضا، لكن لم يكن قد مات للمدافعين المحتمين بالمتاريس إلا رجل واحد وفي الغد ابتعد القبائل الذين خمدت همتهم.

وعند ضمان تحصين جيجل، تم الاهتمام بإقامة الجند داخل المدينة المحصنة، وإعداد إسكانهم فيها نهائيا. لم تكن المدينة إذن إلا جمعا من أكواخ القبائل، شهباء وباهتة كالصخر الذي كانت تقبع عليه، والذي كانت لا تتميز عنه من بعيد،

فالشوارع لا تكاد ترتسم، والأسوار متصدعة، ومقوضة. كان هذا الحشد من الأخصاص (الأكواخ) يكون منظرا حزينا شاحبا وذابلا عند رؤية شدة الفقر المدقع للسكان الأهالي البؤساء، الذين كانوا يعيشون خاملين في أبشع قذارة. وبفضل مبادرات القائد دي سال، والأعمال الفعالة لجنوده فقد غيرت المدينة من مظهرها سريعا. وكان جدار جهة اليابسة قد رمم تماما. وعلى رصيف الشمال الغربي الذي اتخذ اسم رصيف دي بوفورت نصبت بطارية كبيرة بني وراءها بيت خشبي لإسكان الفرقة العسكرية، وأقيم جدار ذو شرفات، يحمي من كل هجوم. وقد أقيم رصيف ومدرج للوصول إليه: وبقيت دار مجاورة مخصصة للجمارك. ولحماية المدينة من جهتي البحر شرع في بناء جدران وحواجز، استخدمت القواعد الأولى من بناء روماني قديم كأساس له. وأدخل حينذاك إلى المدينة جند الحامية المخيمون حتى ذلك الحين. وكان قبطان قد كلف منذ 13 ماي بوظيفة قائد الحصن، وكان شاوشان اثنان يقومان بأعمال الشرطة تحت أوامره ويحفظون النظام لدى السكان الأهالي وكان ضباط، وجنود يؤدون وظيفة الجندرمة والجمارك مؤقتا.

ولتدارك كل اضطراب في هذا الموقع الجديد للاحتلال الفرنسي كان لا بد من مراقبة العديد من المراكب الصيادة للمرجان التي كانت تأتي إلى داخل المرسى، ومنع التهريب. وكان لا بد أيضا من البحث عن أملاك البايلك، والمؤسسات الدينية، ومنع تخريب البساتين وقطع الأشجار. وكان مستوصف قد فتح للمرضى الأهالي الذين كانوا يرغبون في أن تعطى لهم الإسعافات من قبل أطبائنا. وكانت بعض هذه الإجراءات بغرض دعوة القبائل إلى التقرب منا، وقد رأينا يوم الاستيلاء على جيجل أن سكان المدينة قد فروا. وبناء على الضمانات التي كانت قد أعطيت لهم فورا بأن أملاكهم ومعتقدهم سيحترمان، قد رجع جزء منهم إلى جيجل، غير أن القاضي سي علي بن عبد الرحمن رفض العودة، وكان يصرح بتصرفاته السلمية، لكنه كان يتعذر بحجة ضرورة البقاء قريبا من عائلته والخدمات التي كان يقترح تأديتها من أجل سلامة البلد. لتعويضه وحسب الاختيار الذي أشار به، فقد عين سي الطاهر الفرقاني، وكان سي عمار بومعزة قد نصب في وظيفة المفتي. كانت المساجد منذ سقوط الهيمنة

التركية، لم تتلق أي ريع، وكان الوكلاء لا يتحصلون إلا على هبات طوعية للنفقة على إقامة الشعائر، وقد سويت هذه الخدمة، وكذلك خدمة تربية الأطفال ([1]).

لقد دخل القائد الأعلى كذلك في تفاوض مع القبائل المجاورة التي كان يرغب أن تعقد معها علاقات تجارية. لقد سعى عمار بن جمان أحد شيوخ قبيلة بني حسان، الذي كان قد تشاور يوم 13 ماي مع الفرنسيين إلى التفاوض بهمة. لقد أكد أن بني حسان كانوا يريدون السلم، وأنهم لم يشاركوا في أي قتال. وقد كان بنو قايد قد بلغ عنهم أنهم أقل عدائية وكانت المنتجات التي تصل إلى السوق أكثر عددا من يوم إلى يوم، كانت في الواقع ترد عن طريقهم، لكن أهالي هذه القبيلة كانوا يطلبون أخذ السلع والأشياء التي هم في حاجة إليها من المدينة، وكانوا يريدون أن يترك السكان يخرجون بحرية. وكان أمن الموقع لا يسمح بالموافقة قبل إعادة السلم في البلد، وقد أدى رفض هذه التسهيلات إلى التأخير لبعض الوقت أيضا في إحداث تأثيرنا على القبائل.

وكانت إجراءات الحيطة ضرورية في هذه الفترة، وكل من كان يعرف وضعية المجتمع القبائلي قبل الفتح يفهمها بسهولة. لقد كنا قد قلنا في موضع آخر إن القبائل كانت تعيش مستقلة عن بعضها البعض، ومشتة بالأحقاد والضغائن التقليدية. وكان يكفي الواحدة منها أن تتشجع في علاقاتها مع الفرنسيين الذين جاءوا لاحتلال جيجل بقصد السلم أو لمجرد منفعة، حتى تستخدم منافستها فورا كل الوسائل من أجل إلحاق الضرر بها، وجعلها تقطع علاقاتها. وكما أنه لا شيء على العموم من الثياب

---

[1] - لا يوجد في الحقيقة إلا مسجد واحد، والمؤسسات الدينة الأخرى بعدد ست لم تكن إلا مصليات أو زوايا، وكانت تسمى: سيدي إبراهيم بن حسان - سيدي علي المظلوم - سيدي عزوز - سيدي عقبة - سيدي نبي - سيدي ريحان. وتشاهد في الأولى سلاسل حديدية معلقة في السقف، تنقل الحكاية أن قرصانا من جيجل كان قد أسر من قبل المسيحيين مع طاقمه وقيدوا بطوق. وقد قام أولياء البحارة المقبوض عليهم بالدعاء والابتهال إلى المرابط المدفون في الزاوية وبشفاعته تحقق إطلاق سراح الأسرى. وقد ظهر هؤلاء فجأة في بلدهم، وهم لا يزالون مكبلين بالسلاسل التي علقت بالمصلى اعترافا بحاميهم.

وكان سدي إبراهيم هو الربان القائد المبجل للبحارة الجيجليين.

الخاصة، كانت تسمح بتمييز الصديق من العدو، فإنه كان يحدث غالبا أن رجالا ينتمون إلى قبائل معادية كانوا يدخلون بيننا متظاهرين على أنهم حلفاؤنا. وبعد أن يقضوا حوائجهم بحرية ملاحظين ومتجسسين على كل ما كان يقع، كانوا يعودون من هناك إلى الريف، لكن ما إن كانوا يصلون إلى بضع خطوات من أمام الحراسة حتى كانوا يسترجعون أسلحتهم المخفية في العيص، وكانوا يريحون أنفسهم قبل الابتعاد بإفراغ بنادقهم على حراسنا المتقدمين.

كانت هذه الخطة الماكرة موجودة لدى القبائل عبر كل العصور، وينبغي علينا أن نذكر أنه عندما كان الصقليون قد وضعوا أرجلهم بجيجل، وفي سنة 1664 حين نزول الفرنسيين، فإن الأمور لم تكن تمر خلافا لذلك. وبالأحرى ما كانت قبيلة تفتح نافذة سلمية وتدخل إلى المخيم فتبيع حاصلاتها الزراعية، حتى كانت قبيلة منافسة تبدأ عداوتها. إن وثائق العهد (العصر) تتفق على هذه النقطة لكني لا أتردد في الاعتقاد بأن من بين المعتدين، كان لا بد أن يوجد غالبا أولئك أنفسهم الذين كانوا قد جاءوا ليتصادقوا مع المسيحيين لقد رأيناهم يسلكون تقريبا نفس الطريقة مع الأتراك، مع أنهم جاءوا يقدمون لهم يد المساعدة لإعانتهم على قتال جيش الإنزال للدوق دي بوفورت. يذكر هذه الفقرة من مخطوط لهذا العهد، تمت الإشارة إليها فيما سبق، حيث يقال "إن الموريس أو القبائل الذين كانوا يرون أن قلعة الفرنسيين كانت تقاوم كثيرا، وأن الأتراك كانوا قد ذلوا هناك، عزموا على الذهاب إلى سلب مخيمهم وقد شعر الأتراك بهم، وكان ذلك سببا في انسحابهم بسرعة أكثر مما يجب".

وتوضح هذه الكيفية في السلوك تجاه حلفائهم وإخوانهم في الدين كثيرا درجة الثقة التي ينبغي أن تكون لدى القبائل وقت الحرب.

كانت العلاقات مع عمار بن جمان بغرض إخبار القائد دي سال عن مختلف الهجومات التي كانت لا بد أن تقع، ومنحه التسهيل لشراء البقر لمعاش الجند خلال الشهر الأول من الاحتلال. وقد سعينا أيضا للدخول في علاقات مع المرابط مولى الشقفة، لكن مع التأكيد على رغبته في ضمان السلم، وبالرغم من تأثير هذا الرجل

الديني فإنه لم يتمكن من منع قبائله من الاشتراك في كل المعارك. ولم يحدث أن تمكن القائد الأعلى إلا في أكتوبر 1839 من مقابلة مع شيخ بني عمران، أقيمت على إثرها علاقات تجارية مع هذه القبيلة.

بعد 9 جوان، لم يكن يهجم القبائل المشتغلون بأعمال الحصاد في جموع ضد المدافعين عن جيجل. وكانت بعض الطلقات النارية تطلق ليلا فقط. كان الهدوء قد استتب، لكن حرارة الشمس الشديدة لشهر جويلية، ورطوبة المستنقعات المجاورة كانت تسببت في بعض حالات المرض الخطيرة بين جند الحامية. ومن أجل رعاية الجند كان لا بد من التمهل في إنجاز الأعمال المشروع فيها في المدينة وفي الضواحي. لقد كانت السيطرة على جيجل من الآن فصاعدا أمرا واقعا وفي نفس الوقت كانت الحكومة، التي وافقت على كل التدابير المتخذة لضمان أمن المدينة، قد أرسلت مكافاءات وشهادات اعتراف للجند الذين كانوا قد شاركوا في الدفاع الثابت عن هذه المدينة المحصنة.

وبهذه المناسبة كتب الحاكم العام إلى الوزير: "لقد استولي على أربع رايات وأعلام في حملة جيجل، وإن كان النسيج الذي صنعت منه غير متألق، وغير جميل، فإنها لم تكن قد حصل عليها بأقل مجد بالنسبة لثمن دم بعض الأبطال، ويمكن بهذه الصفة أن تكون غالية على فرنسا. ستضيف هذه الحملة إلى حيازة فرنسا بإفريقيا، مرسى ومدينة وموقعا هاما. لقد كانت بالنسبة للقائد دي سال كما بالنسبة للجند الذين هم تحت أوامره فرصة جديدة لارتداء رداء المجد".

وحوالي الأيام الأخيرة من شهر جويلية، خلف القائد هونفو السيد دي سال الذي نصب مقدما، ودعي إلى الجزائر. وفي يوم 6 فيفري 1840 كان هو نفسه قد عوض بالمقدم بيكولو.

ومع أن القبائل ظهروا في الأسواق، فإن طويتهم تجاهنا ما زالت لم تكن سلمية، فقد كانوا ينقضون زاحفين على البطن كالزواحف الخفية فجأة على مواقعنا، محاولين

خطف حراسنا أحياء أو قتلهم. وكانت هذه الهجومات تتجدد كثيرا، وكان هدوء المدينة يتعرض مرارا للحرج. وقد صمم المقدم بيكولو على أن يعطي لأعدائه العنيدين درسا قد يحد من جسارتهم لبعض الوقت، إن لم يضع لها حدا نهائيا. وقد نفذت غزوة من قبله على أولاد مرابط موسى، فرع بني أحمد، ونجح فيها نجاحا تاما، غير أن مناسبة كانت أكثر ملاءمة لعقابهم حضرت وقد انتهزت فورا من قبل المقدم.

وعلى إثر الغزوة كانت تأكيدات جديدة للقبائل تبدو واجبة لضمان العلاقات الودية، ولا شيء كان يمكن أن يدعو إلى الريبة في نواياهم الغادرة. وفي يوم 4 فيفري 1841 شوهدت حشود معتبرة في أطراف المدينة، لكن هذا التجمع كان يتعلق باحتفال (العيد الكبير). لم تكن له دلائل العدوانية. وحوالي الساعة 11 مساء سمعت فجأة طلقات نارية شديدة وبدأ وابل من الرصاص على المدينة. كان القبائل قد كمنوا على صخرة ظهر الجزيرة حيث كانوا يطلقون النار بلا عقاب. وقد كان مركز تمريض، ورجال مرضى قد انتظموا وراء البطارية الشمالية لإلهاء المحاصرين. وفي هذه الأثناء خرج المقدم بيكولو خفية على رأس كل الجند السالمين يطوق موقع المهاجمين ويستولى على شعب ضيق سادا عليهم كل انسحاب، ويحصرهم بينه وبين البحر. لقد كان القبائل الذين يقدر عددهم بحوالي مائتين، المحاصرون على هذا الرعن الصغير، والذين اكتشفوا مؤخرا موقعهم السيئ، يحاولون لحظة الدفاع عن أنفسهم. لقد دوت الهجمة بالحراب، ووقع التحام وجها لوجه، فقذف الأعداء أنفسهم في البحر أو قتلوا بالسلاح وقد هلك غرقا في الأمواج أولئك الذين حاولوا الانفلات بالسباحة. وفي الغد أخبرت أعداد الجثث الهامدة بالقرب من المدينة أو على الشاطئ الناس في الخارج بنتيجة الحملة الليلية لإخوانهم. وقد أخذ الصخر الذي وقع فيه هذا الحدث المسلح منذ ذلك الحين اسم بيكولو.

لقد كانت حراسة مدنية أهلية قد نظمت بحوالي 80 رجلا تقريبا في هذه الفترة بغرض إعطاء بعض الراحة لجنودنا الذين كانت الحمى قد أنهكتهم كثيرا[1]. وكان كل أهلي يقبض أجرا بفرنك واحد عن كل يوم، غير أنه كان لا بد من فصلهم فورا لأنهم كانوا يقومون بخدمتهم بتراخ ولامبالاة. وباختصار فقد كانوا جنودا سيئين جدا أمام العدو.

ومع أن هجمات القبائل كانت شدتها تتناقص شيئا فشيئا إلا أنهم كانوا لا يتوقفون عن إزعاج المدينة المحصنة من حين لآخر، لكنهم تعبوا من محاولاتهم التي لم تعطهم أية نتيجة. لقد كانوا قد بنوا كوخا من القش في مصب الوادي الصغير لاستعماله كمرقب متقدم لمراقبة حركة الحامية. وكان يقذف عليهم من حصن دوكان بعض القذائف، كلما كانت تجمعاتهم تبدو أكثر من المعتاد. وقد اقتربت السفينة البخارية الكروكوديل (LE CROCODILE) عند مرورها يوما بجيجل، في الوقت الذي كان فيه حشد يتكون حول الكوخ، وقصفتهم قصفا ملائما، لم يجرؤ القبائل منذ ذلك الحين على أخذ هذا الموقع كنقطة للتجمع. وقد استتب الهدوء خلال عدة أشهر حول المدينة، وانتهزت الفرصة لعقد علاقات تجارية مع سكان الريف، لكن الحرب قد اندلعت من جديد لقد انضم أحد المرابطين، باسم السعيد بن غزالة، الذي كان يدعي أنه موفد من قبل الأمير عبد القادر، إلى المتحمس سي زغدود، وحرض على الجهاد في القبائل المجاورة.

وقد برز القبائل يوم 17 سبتمبر 1841 حوالي 11 صباحا في عدة مواقع دفعة واحدة، خاصة على حصن دوكان، وكانوا يهاجمون بشراسة حتى الساعة 4 مساء. وقد أجبرتهم نيران المدفعية والجنود المستعدون للخروج، على الانسحاب مخلفين أعدادا كبيرة. ويومان من بعد، انتهز القائد كلاباريد فرصة وصول المركب البخاري

[1] - لقد كانت أسباب الأمراض التي أحدثت ضحايا كثيرين في الحامية من الأعمال التي كان ينجزها جنودنا من غير توقف لتجصيص المدينة وتجفيفها بواسطة خنادق التصريف للمستنقع الذي بنيت عليه جيجل الجديدة الآن، حيث كانت تنبعث الرائحة الضارة.

الشيمار (CHIMER) إلى المرسى، والتدابير الحسنة للقبطان ديربنجان (DERBINGHEN) الذي كان يقوده لقصف الحشود الكبيرة التي كانت تتكون بالقرب من دوار أولاد علي على الشاطئ مدة ساعتين. وبعد الرد برشقات ضعيفة، هجم العدو فجأة على المدينة، حيث كان قد قوبل بسريتين، واحدة منهما للهندسة كانت مجهزة مسبقا بينما كانت الباخرة الشيمار التي تابعت الحدث تقصفهم في نفس الوقت بضراوة ولم يكن قتال القبائل في ذلك اليوم أقل حمية حتى الساعة الرابعة مساء.

وقد استمر مركب الشيمار، يوم 20 بعد أن أنزل إلى البر ليلا بعض البحارة للتخفيف عن الحامية المتعبة من جراء هذه السلسلة من المعارك، في قصف القرابي التي تجاور الشاطئ. وبعد الغد ظهر القبائل من جديد، لكن كانت للمدفعية أيضا الفرصة لإلحاق الضرر بهم.

ويشير احتلال جيجل المقتصر في النطاق الخارجي على المعاقل والقوة العددية المتكونة من 500 رجل على الأكثر بما فيه الكفاية إلى الدور المنوط بنا خلال عدة سنوات على هذا الجزء من حيازتنا. وفي كل مرة كان لابد للهدوء من أن يتوطد، كان بعض المتعصبين يظهرون، ويجعلون البلد في عصيان بمكائدهم.

في سنة 1843 برز في بلاد القبائل الشرقية شخص يدعى أنه البودالي بن الأحرش الذي تسبب في موت عثمان باي. ولو أن القبائل كلفوا أنفسهم عناء التفكير، لكانوا قد تأكدوا من أن المحرض الذي كان قد قتل منذ حوالي 1806 لا يمكنه أن يبعث من بعد قرن من الزمن. ولم يكن هذا الرجل الذي ذاع صيته إلا مكيدة، أو مؤامرة مرابطين كانت تقدمه للسكان على أنه كائن موحى إليه، ومرسل خصيصا لطرد المسيحيين من الجزائر. لقد جند مولى الشقفة، مرابط بني آيدر، لا يعرف أين، هذا الشريف الذي توجه ضد جيجل، حيث أصيب حوالي مائتين من رجاله بالعجز عن

القتال[1]. وقد اختفى بسرعة أكثر مشمئزا من هذه البداية غير المشجعة جدا دون شك كأنه لم يأت.

وفي سنة 1847 كان مولاي محمد أحد الأصدقاء الأكثر نشاطا لبومعزة في الظهرة الذي جاء بدوره لحصار جيجل. وفي صبيحة يوم 3 أكتوبر كان حوالي 1200 قبائلي من الأعراش المجاورة، يهاجمون المراكز المتقدمة. وكان القائد الأعلى فور المخبر من قبل جاسوس، قد دعم الموقع دوكان، وفالي، وسانت أوجيني، وقد خرجت الحامية الصغيرة.

وقد أطلق القبائل المترصدون في تعرجات الأرض وفي العيص نارا قوية، واستمروا يتقدمون. وازدادت أعداد العدو بعد ساعتين. وفجأة حملت الحامية إلى الأمام وبددت الحشود.

وفي سنة 1849 كان القائد بودفيل الذي شاهد سلب السفينة الفرنسية الرحمة (LA MISERICORDE) التي كانت قد جنحت عند مصب وادي أم النشا، على أربع كيلومترات من المدينة، قد باغت أثناء الليل إحدى قرى هؤلاء القبائل، وأحرق منازلهم، وأخذ الشيخ الذي كان قد احتفظ به في السجن حتى تدفع القبيلة تعويضا معتبرا.

كان المرابط سي الطاهر أمقران الذي لعبت أسرته دورا كبيرا جدا إبان الهيمنة التركية، والذي ترك إقامته بجيجل عند نزول الفرنسيين، قد انسحب إلى القبائل وراح حينذاك يعرض طاعته. وقد أحدث هذا الفعل انطباعا معتبرا في البلد، وحقق لنا علاقات جديدة مع السكان المجاورين.

وحوالي هذه الفترة تقريبا، كانت ورشات عمال مدنيين وعسكريين تبني قناة المياه الكبرى التي مازالت تستخدم حاليا في تموين المدينة. وكان القبطان فيرو رئيس

[1] - ساعد السفينة البخارية السيتيكس في الدفاع عن المدينة وقد هجم القبائل بعدد 8 آلاف.

الهندسة المتوجه ذات صباح لتفقد أفران الجير قبل وصول عماله، قد أحيط فجأة بعدة مئات من القبائل الذين كانوا متربصين لمباغتته وقتل هؤلاء الخدم، ولم ينقذ هذا الضابط المطارد من قبل العدو الذي أطلق عليه نارا مستمرة، إلا سرعة حصانه. وقد جنبت هذه الوضعية لحسن الحظ من وقوع كارثة محزنة، كانت قد تكلف حياة أغلب العمال الأوروبيين، إن وقعوا في الكمين. ومهما يكن، فقد قصف حصن سانت فيرديناند بالقنابل المتفجرة المجموعات العديدة للقبائل التي كانت قد تشكلت، وقد سارعت الحامية راكضة على الفور وطاردت العدو إلى أكثر من فرسخين من بعد خطوطنا، قاتلة 30 رجلا منهم.

في شهر مارس 1849 كانت المسألة هي الشروع في حملة كبيرة على بلاد القبائل الشرقية. لقد حان الوقت لوضع حد لاعتداءات الإخوة بن عز الدين، وهم من عائلة الزواغة الإقطاعية، كانوا لا يتوقفون على نقل الاضطراب إلى القبائل الخاضعة في ضواحي ميلة. وكانوا لا يخافون إلا حلفاءنا المتعبين، من هذه المعارك التي لا تتوقف مع جيرانهم، ولم ينتهوا إلا بمشاركتهم في المصالح، ولم يعترفوا بسلطتنا. وتمكنت حركة التمرد من الانتشار تدريجيا، حتى حوض ميلة، وقطع أمن المواصلات بين قسنطينة وسكيكدة. وكان الغرض الآخر الذي ينبغي الوصول إليه هو إرغام سكان الجبل على الخضوع، وإجبارهم على رفع الحصار الذي كانت توجد فيه مدينة جيجل منذ أكثر من عشر سنوات. لكن الحملة كانت قد أرجئت إلى سنة أخرى.

وفي أفريل 1851 برز الوضع السياسي للبلاد الواقعة بين جيجل والقل، بشكل معاد تماما. وكان القائد الأعلى لسكيكدة، قد هوجم في جولته لمعاينة أشغال طريق البغال المنجزة من طرف القبائل أنفسهم، في مدينة القل من قبل بني إسحاق، وأولاد عطية، وبني تفوت، وقبائل الشرق غير الخاضعة. وقد رأى هذا الضابط الأعلى المطارد بالطلقات النارية أن يترك الأحصنة مرغما، ويلجأ مع أت[illegible] إلى ب[illegible]خرة أنزلتهم في مأمن على بعد 3 كلم شرق المدينة. ولم يقاوم سكان القل إلا مقاومة قصيرة، وغير ذات معنى، وانضموا فورا إلى المهاجمين. وبقي البلد منذ هذا الوقت في حرب. وقد

كان التصميم في كل مكان على المقاومة للدفاع عن استقلال بلاد القبائل. وقد كان الوضع في جيجل هو نفسه. فقد كان بنو عمران وأولاد بلعفو، وبنو فوغال قد اجتمعوا جارين معهم القبائل الأكثر ضعفا، وقد أقسموا على قيامهم بالجهاد، وراحوا يتحدون حتى جيجل مطلقين النار على مراكزنا الأمامية. وبعد عدة اجتماعات كان القبائل قد أعلنوا عن مقاومة متصلبة. وقد نظمت هذه المقاومة في كل مكان، من القل إلى بابور. وكان التعصب يزيد كالعادة من حماس هؤلاء السكان. كانوا يتحدثون عن استقلالهم، وعن طهارة جبالهم التي كانوا يشاهدون فيها تحطم جيش عثمان باي تحت أقدامهم. هناك حيث هلك الأتراك، يجب أن يهلك الفرنسيون أيضا. تلك كانت هي تكهنات المرابطين.

لم تكن إذن هذه الحملة عادية، بحظوظها المألوفة من المعارك الصغيرة، والسير المضني، الذي يجب القيام به إنما كانت هذه حربا حقيقية. من ميلة إلى جيجل، ومن جيجل إلى القل. كان أمام القافلة العسكرية بلد ما زال لم يكتشف، يصعب اجتيازه جدا، ومقاومة حوالي خمسة عشر ألف بندقية مستعملة من قبل رجال مصممين، ما زالوا لم يعانوا من الحرب. وكانت خطة هذه الحملة هي قطع هذه الجبال أولا كالعاصفة، ورسم خط، ثم أخذ القبائل من الخلف من كلا الجانبين، وإرغامهم على الخضوع. وفي 7 ماي 1851 اجتمعت الحملة العسكرية إلى بلاد القبائل بقيادة الجنرال دوسانت أرنو قائد المنطقة تحت أسوار المدينة الصغيرة لميلة في سفح الجبل. وكانت القافلة تتكون من لوائين من المشاة ومن 250 حصانا وفارسا، ومن 1200 بهيمة زاملة تحمل موكبا ثقيلا، بمجموع 9500 رجل.

في يوم 9 ماي كان الجند يتجهون في السير إلى فج باينان، ويدخلون إلى أرض العدو.

"منذ 11 يوما، حيث غادرت مخيمي بباينان، كتب الجنرال دي سانت أرنو يقول: كان أمامي من 4 إلى 6000 بندقية، ومنذ خمسة عشر سنة وأنا أمارس الحرب بإفريقيا، لم أجد أبدا بلدا أكثر صعوبة، ولم أقاتل أعداء أكثر جرأة، وأكثر ضراوة من هؤلاء.

لقد وجدت يوم 11 ثلاثة ممرات يجب أن أعبرها، وهي محصنة من قبل القبائل الذين كانوا يبنون في كل مكان معاقل صغيرة من الحجارة فقط هذه الممرات كانت محمية من قبل 4000 بندقية. وكانت كل المرتفعات مهيأة كان لا بد من الهبوط من فج باينان لعبور وادي حاية، وقرية قزان الكبيرة والصعود مع الشعب مجتازين وهادا عميقة، بواسطة طرق مخيفة. وكانت هذه العملية لا يمكنها أن تحدث إلا تحت النيران المتساقطة للعدو".

كانت الإجراءات قد اتخذت، والأوامر قد أعطيت، وكان الجنود يوم 11 عند طلوع النهار ينزلون على ثلاثة أرتال من الكتائب، رتل لكل واحدة واثنان من القذافين. وكانت الفرقة اليسارية بقيادة الجنرال دي ليزي مع 2 من كتائب الـ 20، والقناصة الأهالي يهاجمون فج المنازل لأولاد عسكر، المحصن بجدار طويل من الحجر من غير طين، الذي كان القبائل يطلقون النار من ورائه متأكدين. وقد كان 70 حصانا وقناصا وصبايحية بقيادة القائد فورني للصبايحية، على أهبة الهجوم إن سنحت الفرصة لذلك.

وكانت فرقة الميمنة تحت أوامر الجنرال بوسكي، تتكون من الزواوة ومن كتيبة الثامنة للقتال، ومن كتيبة إفريقيا. وكان المقدم بوسكاران متبوعا بـ 70 حصانا.

وكان على فرقة الوسط، المتكونة من الكتيبة الثانية للقناصة المشاة، ومن كتيبة من التاسعة، ومن اللفيف الأجنبي بقيادة المقدم إيسبيناس أن تشتت انتباه العدو.

كانت مهمة المقدم جامان من الثامنة لخط الهجوم، مع فوج من فيلقه وفوج من الـ 16 الخفيف، والـ 10 من الهجوم، مهمة خطيرة وحساسة في قيادة القافلة. على الساعة 7 صباحا كان وادي حاية قد اجتيز، وقرية كزان الكبيرة المحمية من قبل القبائل قد استولي عليها بالسلاح الأبيض، وأحرقت. وعلى الساعة التاسعة كانت المواقع المهاجمة بشدة، رغم رصاص العدو المتساقط، في متناولنا، وكانت الأرتال الثلاثة المطاردة للقبائل أمامها، تجتمع وراء المخانق (المضايق). وخلال هذه

المعركة الضارية، سقط القائد فاليكون مصابا برصاصة قاتلة. وكان القائد روبيست من الثامنة قد جرح، وكذلك العديد من الضباط والجنود. ولم يتوان الجنرال بوسكي المصاب بطلقة نارية في مواصلة الهجوم، وقد توج القمة مع زواوييه. وحوالي الساعة الثامنة مساء بعد اجتياز بلد مغطى بغابات كثيفة حيث كان لا بد من التصدي لسلسلة من المعارك المتعاقبة، وأحيانا بمجابهة وجها لوجه، كان حرس المؤخرة للقافلة المتأخرة في دروب يتعذر اجتيازها تقريبا، يصل إلى المخيم المقيم على هضبة العروسة. لقد كان الاقتتال عليه منذ السابعة صباحا.

يوم 12 أراد الجنرال دي سانت أرنو أن يمنح قليلا من الراحة لجنده، مع العمل على إلحاق الضرر بالعدو في ضواحي المخيم. لقد أحرق أربعة أفواج خفيفة، وسلاح الفرسان قرى أولاد عسكر وبني ميمون - وقد برز العدو بقوة، وتكبد خسائر فادحة.

كان يوم 13 صعبا وشاقا، وكانت الطريق تمتد في الغابة على كشح الجبل، تشرف عليها المواقع التي كان لا بد من الاستيلاء عليها بالتعاقب وإخلائها عند مسيرنا. كان العدو كثيرا جدا، كالنمل: إلى الأمام، على خصر الجبل، إلى الوراء، كانوا ينزلقون من أجمة إلى أجمة، ليسددوا بدقة أكثر وعن قرب أكثر، كانت المعارك حامية الوطيس، ومتكررة. وكان الدعم الجناحي للقافلة كذلك متعبا بقدر ما هو ممكن، وكانت كل هذه الصعوبات قد ذللت، وقد تعد ذكرى لنا للاعتزاز أكثر، لو لم يكدرها التأسف على الخسائر البالغة التي تكبدتها الفرقة العاشرة من خط الهجوم المدعمة لجناح القافلة. إن سريتين من الرماة من هذا الفيلق يفيضون حماسة، لكنهم يفتقرون إلى خبرة الحرب بإفريقيا، تركوا أنفسهم يباغتون في مكان كثيف الأشجار، ويطوقون بعدد كبير من القبائل الذين كانوا ينسابون متخفين في أحراج كثيفة وقتلوا منهم عددا كبيرا. وقد رويت هذه الواقعة هكذا بالضبط، وبالتفصيل من طرف ضابط شاهد عيان للحادثة:

"عندما يكون الطريق كله هناك درب ضيق يتسع مقدار قدمين عرضا ساقط عموديا على الوهاد، سائر على طول الانحدارات يمينا وشمالا، محاط بصخور وغابات

كثيفة، وحتى عندما ينعدم أحيانا هذا الممر الضيق وينبغي نحته في الأرض الصخرية، فإنها مهمة صعبة أن تحمي قافلة تمتد رجلا بعد رجل، ودابة بعد دابة، على مدى أكثر من فرسخ ونصف. ولوضع المؤونة والذخيرة الاحتياطية، والجرحى في مأمن من عدو جريء وخفيف الحركة، وكثير العدد، ومصمم، ينبغي إحاطة هذه القافلة بسياج حي. فالطليعة تفتح الطريق متبعة الدرب، وعلى يمين وشمال جانبي القافلة أفواج أعطيت لها الأوامر بالسير متوازية في مستواها، مهما كانت الأرض، مخصصين سرايا تهتم كلية بذلك، إن اقتضت المواقع التي تهيمن على الطريق. ويدرك الآن ما هو تعب الجندي المحمل بكيس مملوء مؤونة عندما يظل طول اليوم، من طلوع الفجر إلى غروب الشمس يعبر بلدا هائجا من غير توقف، الخرطوشة بين أسنانه، والبندقية بيده. ثم تأتي المؤخرة فيما بعد: إنها هي التي اعتادت أن تأخذ أكبر حصة من المعركة، وكان الجنرال دي سانت أرنو قد أعطى الأمر أن تقسم القافلة إلى جماعة من المشاة بين مسافة وأخرى، إلى درجة أنه كان يخشى عليها الاختراق. كانت المعلومات دقيقة. وكان البلد المجتاز من قبل القافلة حينذاك يبدو سهلا، بالمقارنة مع تلك التي عبرت يوم 13. إلا أنه كان كل شيء يمر على أحسن ما يرام. كانت المواقع المحتلة تدريجيا تضمن العبور للقافلة المعجلة من قبل ضباط صف السير من غير تقهقر. ومع أن العدو كان مقداما، وكثير العدد، فإنه كان يبقى عن بعد.

"عند أحد المعابر الصعبة على الجانب الأيسر، كان هناك موقع هام، إذ أنه كان يشرف تماما على درب البغال. وكان الزواوة قد احتلوه الأوائل، ثم الفرقة الـ 16 الخفيفة ثم القائد كاماس بعد. وقد أدى سير مدعمي الجناح إلى تعويضهم بسريتين من الفرقة الـ 10 لخط الهجوم، وصلتا حديثا من فرنسا، وقد وجد هذا الفيلق نفسه مقذوفا به لأول مرة في السعير (المعركة)، لا زالوا لم يتعودوا على التعب. وقد أحدث فيهم هؤلاء الأعداء المتوحشون هذا الاندهاش الأول الذي يمر به كل الجند الحديثي العهد بالمجيء. لقد عين القائد كاماس نفسه للقبطان ديفور المواقع التي يجب أن تحتل، والدروب التي تتبع للانسحاب، ولا يكون الابتعاد إلا بعد ترك الأمور على أحسن ما يرام. وكان العدو منذ لحظات لا يظهر أكثر من هذا الجهة: كان السكون

يخيم على الغابة. وبانعدام الخبرة لفرقة جاهلة بالحرب، فإن جنود الفرقة الـ 10 يعتقدون أنهم في مأمن، فالبعض منهم ينام مستسلما للتعب، ويستريح والبعض الآخر يشاهد المعركة التي يخوضها رجال المؤخرة والتي كانوا يتفرجون عليها من هذا المكان، ولا أحد يحرس. وخلال هذا الوقت ينساب القبائل زاحفين على طول الأحراش، وينقضون عليهم فجأة في أكثر من أربع مائة، صارخين صرختهم للمعركة. فيجتمع الجنود المباغتون حول ضباطهم مختلطين اختلاط الحابل بالنابل: ويصرخ القبطان ديفور هيا يا أبنائي إلى الحربة ويسمع كل من كان يحمل شارة أو حساما صوته، ويحركهم الواجب، فيندفعون إلى الأمام، ويسقط الضباط وصف الضباط الخمسة والخمسة وثلاثون راميا مضروبين على الوجه. وحول هؤلاء يتكلم رجال آخرون أكثر ضعفا، ويحاولون المقاومة، ثم يتركون أسلحتهم تنفلت منهم. وقد أخذهم الدوار، يحبون الحياة، ورعبهم الوحيد هو القبائل، كانت كل الأخطار الأخرى تختفي، يقذفون بأنفسهم من أعلى فيصلون ممزقين من سقوطهم، الأجساد مضرجة بالدماء في صفوف القافلة. وفي هذه الأثناء كان في أعلى المرتفع موت بطولي يكفر عن الهفوة التي وقعت من جراء انعدام التجربة الحربية. فالقبائل المتحكمون في الموقف، يطلقون النار على القافلة، والبعض الآخر منهم يحاول اختراقها، والفوضى تدب فيها، والبهائم تفزع. كان الجنرال دي سانت أرنو يتواجد بالقرب من هناك، يهرع، وكل شيء سيرمم حالا، فقد أرسلت سريتان من التاسعة على الصخور، يقودهما القبطان القورنري: تسقطه رصاصة جثة هامد على رأس فرقته، تنتقم للدم القبائلي".

في يوم 14 ماي واصلت الفرقة العسكرية في الانحدار، في دروب وعرة نحو مصب الوادي الكبير في قتال مثل العشية. كان القبائل الذين حاولوا القيام ضد سريتين من اللفيف الأجنبي بالمناورة التي كانت ناجحة لهم ضد الرماة من الفرقة الـ 10 قد ووجهوا من قبل رئيس الفيلق ميير (MEYER) بأسلوب لا يعودون معه أبدا إليها. كنا قد خرجنا من البلد الصعب، ولم يقاوم العدو إلا برشقة نارية يوم 15 صباحا عن بعد على الكتائب التي ذهبت بقيادة المقدم ماريلاز من الـ 20 قبل مغادرة

المخيم تحرق قراهم على ضفتي الوادي الكبير. لقد كان الجو قد أصبح رديئا. واتخذت الفرقة العسكرية يوم 16 صباحا تحت سيل الأمطار الغزيرة التي لم تتوقف عن السقوط إلا يوم الغد، مخيمها بالقرب من جيجل.

وتقول معلومات إيجابية إنه خلال المرحلة الأولى من الحملة، كان قد قتل للقبائل حوالي 400 رجل وكانوا يعدون أكثر من الضعف جرحى، وقد كان أولاد عسكر، وبنو عيشة وبنو حبيبي الأكثر تضررا. ولم تكن خسائرنا إلا خمسين من القتلى، وحوالي 200 من الجرحى، ما عدا المصيبة التي لحقت بالسريتين من الفرقة العاشرة.

يوم 19 ماي كانت القافلة تغادر جيجل، وتذهب للتمركز بدار القجالي وسط بني عمران، وبني أحمد، وعند الوصول إلى المخيم، كانت كل المرتفعات المحيطة محتلة من طرف القبائل. وبالرغم من مقاومة كانت أكثر حدة فقد أبعدوا منها. وفي الغد كانت وحدات عديدة تحتشد مقابل المخيم وقد نجح الجنرال بمناورة ماهرة في حشرهم إلى وهد، عاملا على قطع الانسحاب عليهم من طرف الخيالة، في حين كان الهجوم عليهم بالحراب من قبل المشاة. كانت حينئذ قد بدأت مذبحة مرعبة. ولم تنتظر نتائج هذا الدرس القاسي طويلا. وكانت القبائل الكبرى: بنو عمران وبنو أحمد وبنو خطاب التي فتر استعدادها للحرب من جراء الخسائر الجسيمة التي تكبدتها، قد قدمت إلى المخيم في نفس اليوم يعلنون خضوعهم. كانت جيجل قد فك عنها الحصار وكانت هذه المعركة السابعة التي كان لا بد من خوضها في مدة 10 أيام. لكن لم تكن كل هذه الانتصارات السريعة كافية لجلب الهدوء التام إلى البلد، كان لا بد كذلك من معاقبة بعض الأعراش الكبيرة المتمردة، الذين يعتقدون أنهم متحصنون في جبالهم، لم يكونوا قد قاموا بأي عرض للاستسلام. ومع أن القافلة قد نقصت بذهاب الفيلقين اللذين كانا قد راحا بقيادة الجنرال بوسكي لدعم الجنرال كامو، من أجل إيقاف انتشار العصيان المهيج من طرف الشريف بوبغلة في منبسط بجاية وكان الجنرال دي سانت أرنو يوم 26 يتجه إلى بني فوغال، وبني ورز الدين. وبعد جهد أخير في المقاومة، كانت هاتان القبيلتان الكبيرتان تطلبان الأمان وتسلمان أسرى. ومنذ هذا

اليوم، لم يظهر القبائل إلا مقاومة ضعيفة، ولم تعد المعارك ذات 12 ساعة كما كان في بداية الحملة، وبمجرد ما كان العدو يحضر بأعداد، كان يهاجم، ويتابع، كانت قراه المنيعة قد استولي عليها وأحرقت، وبعد بضع ساعات كانت الجماعات المستسلمة تصل.

وقد واصلت القافلة تقدمها حتى زيامة، قرب حدود دائرة بجاية، وأرغم سكان هذه المقاطعة على الاعتراف بسلطتنا.

كان جزء من البرنامج المسطر سلفا قد أنجز، لكن بقي أن يفك الحصار عن جيجل من جهة الشرق لضمان الأمن بشكل إيجابي في نواحي القل، وفي المركز الزراعي لمنخفض (وادي) الصفصاف، وعلى المواصلات بين سكيكدة وقسنطينة. كانت معارك مشهودة ودامية واستسلامات كثيرة ونتائج مؤكدة قد جعلت النتيجة والنفوذ المعنوي لصالحنا، كان لا بد من استغلاله، وعدم إضاعة ثمار الانتصارات الأولى، ولا تترك أية قبيلة من غير خضوع.

وكانت الفرق التي استراحت لبعض الأيام في جيجل، قد رجعت بحركة مناورة يوم 18 جوان. وفي الغد عند الوصول إلى القصيبة، استقبلها بنو أيدر بطلقات نارية، وأثناء الليل هاجمت الوحدات القتالية لعشرة قبائل واجهة المخيم بضراوة وابتداء من هذا الوقت استأنفت المعارك. وكان بنو أيدر وبنو حبيبي وأولاد عواط وأولاد عسكر وبنو مسلم وبنو فرقان وبنو بلعيد وأولاد عطية وبنو تفوت قد أرسلوا في كل الاشتباكات السابقة تقريبا كل يوم قوتهم القتالية للتناوب في قتالنا. وقد كانت هذه المناورة مستمرة إلى حين استسلامهم وكان كل خضوع محرز يضعف صفوف القبائل، من غير أن يقلل من حماسهم وعنادهم ضد فرقنا.

من 19 إلى 26 تقدمت القافلة ببطء في البلد، ضاربة القبائل الأكثر قوة، مختارة المواقع المركزية للانتشار من هناك، والانقضاض على العدو والانتصار عليه،

ومطاردته، وتنفيره من المقاومـة. كانـت كـل معركـة انتـصارا، وكـان لكـل انتـصار نتائجه، وكانت الاستسلامات تتوالى وسط الطلقات النارية.

كانت العمليات في نطاق جيجل قد انتهت، من وادي زيامة إلى الـوادي الكبـير (الرمال). وكانت القبائل قد انهزمت وخضعت، وكان الشيوخ قد ارتدوا برنوسنا. كان القائد الأعلى روبيرت قد استلم دائرتها محررة ومنظمة. لقد أخذ طريـق جيجـل مـع مجرد حراسة بسيطة من 25 فارسا قناصا كان القبائل في كل مكان يبدون احتراما عند مروره، وبعد بضعة أيام من إتيانه كانت سوق جيجل تعد أكثر من 500 قبائلي.

من أول إلى 12 جويلية، قام الجنرال دي سانت أرنو بعمليات في منخفض الوادي الكبير، مارا بالتناوب، من الضفة اليمنى إلى الـضفة اليـسرى ملاحقـا فلـول تجمعـات المتمردين حيثما كانوا يظهرون. إن القافلة التي لم تـترك وراءهـا، ولا عـلى الجانـب، وبعد أن كانت قد قاتلت كل الأعراش مجتمعة منذ شهرين لبلاد القبائل التي كانـت تقطن مجموعة جبال القل كانت يوم 12 جويلية تغادر مخيم الميلية لمعاقبة قبائل هـذه الناحية بصرامة، وتنفيرهم من هجوماتهم على مدينة القـل الـصغيرة. وأخـيرا، كانـت القافلة يوم 18 جويلية مساء، تشرع في المسير مبرزة حرابها المنتـصرة عـبر مـنخفض وادي القبلي، وكانت كل كتيبة ترجع إلى مواقعهـا على مراحل قصيرة.

ومنذ ذلك الحين، كانت علاقات طيبـة قـد أقيمـت بـين سـكان مدينـة جيجـل والقبائل الذين اجتذبتهم التجارة إلى السوق، وعندما اندلعت الاضطرابات في البلد في شهر سبتمبر 1851. قام شيخ بني أيدر خلفة بن عميروش الذي كـان منـذ مـدة يكـره مولاي الشقفة، بغزوة ضده بحجة أنه كان هو نفسه قد طلب مجيء قافلتنا إلى البلـد. وقد دعا بن عميروش القبائل من جديد إلى الحرب، موزعا رسائل من الشريـف بوبغلة الذي كان في هذا الوقت يثير مؤامرات في منخفض بجاية. لما لم يكن متحصلا على أي انتصار بالتصريح باسم بوبغلة الـذي قلـما كـان يعـرف في دائـرة جيجـل، اسـتخدم حينذاك شريفا قديما، كان يبدو زاهدا في هذا الدور منذ مدة، إنه محمد بن عبـد اللـه الذي كان قد انسحب إلى الغرب. هذا الـذي كتـب إلى القبائـل أن بـومعزة عـلى رأس

جيش عرمرم يستعد لمحاصرة بجاية. وكان يعرض نفسه من جهته ليكون على رأس القبائل الشرقية لمهاجمة جيجل، وقد استقبلت هذه الاقتراحات بفتور. وأخيرا، فقد بذلت محاولة أخيرة، فقد ظهر شيخ آخر باسم بوسبعة، بالقرب من الشيخ بن عميروش، جاب كلاهما بعض القبائل متلازمين، لاسيما أولاد عيدون. كانت الأذهان منشغلة بتأثر والوحدات تتجمع مسلحة، مما حتم خروج قافلة من قسنطينة حوالي شهر ماي 1852 بقيادة الجنرال ماك ماهون، الذي جاب (عبر) الضفة اليمنى لمنخفض الوادي الكبير، واسترجع الهدوء في البلد بعد معاقبة المتمردين بشدة.

غير أن المجموعة الجبلية لبابور، وتابابورت التي لم تكن قد زيرت من قبل قواتنا، بقيت تستخدم كملجإ لكل المحرضين والساخطين. كان من المستعجل تحطيم هذا المركز للتمرد. في شهر ماي 1853 دخلت حملة كبيرة بقيادة الجنرال راندون، الحاكم العام لهذه الجبال. وبعد إخضاع القبائل التابعة لتقسيم سطيف، كان الفيلقان اللذان يتكون منهما الجيش، يقومان بعملية التحام على شواطىء البحر بالقرب من مصب وادي أقريون، ويوم 5 جوان، كان الحاكم العام ينصب شيوخ القبائل الذين خضعوا حديثا، بمخيم سوق الاثنين لبني حساين. وقد تم الحفل بكل عظمة الجيش الذي كان يسمح بتجمع جنود الفرقتين للجزائر وقسنطينة، والذي زادته المناظر الرائعة الجذابة أيضا أكثر جلالا وهيبة. وكانت الفرق منذ الثامنة تستعد، وتحرص على تجميع كل القبائل التي كانت تنقل من حالتها المتمردة، ومن حياتها الهمجية إلى النظام القانوني لمجتمعنا. ووسط هذا الصمت، وفي اللحظات الاحتفالية، يطل الحاكم العام على الحشود، ويرفع صوته، ويتفوه بالكلمات التالية:

"يا قبائل البابور،

"لقد أخبرتكم من سطيف أن جنودي سيدخلون بلدكم، وأن مخيمي يكون مفتوحا للذين يحبون الطاعة، وأن عساكري سيحطمون كل المقاومات. لقد وفيت لكم بكلامي.

"والآن ها أنتم في حضرة علم فرنسا.

لقد واعدتم، أنكم تخدمون وطننا بإخلاص. سأزودكم بالوسائل للوفاء بعهودكم، بتوليتكم الوظيف. تذكروا أن واجبكم الأول سيكون احترام العدالة وحماية الضعفاء.

"ابعدوا عنكم كل الناس الفوضويين، ينبغي أن يكون أعداؤنا هم أعداؤكم.

"لقد اخترت من بينكم شيوخا، سيتولون تدبير أمر القبائل. ستتعاملون مباشرة مع ضباط المكاتب العربية، وهذا يدل على أنني أريد منكم أن تحافظوا على أعرافكم وقوانينكم الخاصة.

"خصوماتكم القديمة، ينبغي أن تنتهي حتى يسود السلم في البلد وحتى يمكنكم أن تترددوا على السوق في أمن، هذا ما أريده لخير الجميع وهذا ما ينزل عليكم رحمة الله، وسيبرهن لكم على أنكم حقا جديرون بأن تدعوا خدام فرنسا".

كانت كل هذه الجمل المترجمة فورا من طرف المترجم، متبوعة بهمهمة تشير أن كلمة الحاكم العام كانت تضرب في الصميم، وأن مصلحة كانت قد فهمت، وأن ميلا فطريا قد حرك.

وبعد إنهاء الكلمة الموجزة، نودي كل شيخ بدوره ليتلقى البرنوس وليمر أمام الحاكم الذي تقبل منه اليد، مجددا الإخلاص لفرنسا. كان البعض من هؤلاء الرجال يعتقدون منذ قليل من الأيام أنه مقدر لهم ألا يعرفوا العبودية أبدا. كان بثيابهم القاتمة شيء ما يذكر بالفوضى الفظة لجبالهم إنه مشهد شجي أن ترى الأرجوان الفرنسي يسقط على هذه الثياب البدائية كأن هناك صورة محسوسة من التحول الذي تحدثه قوة بلادنا على الجزائر.

بعد توزيع البرانس، صفف الحاكم الشيوخ حوله من جديد. يذكرهم بالكلمات التي كان قد خطب فيهم بها، ويؤكد على السلم الذي يجب أن يسود بينهم لصناعة كل ازدهار، وأن مصلحة الجميع يجب أن تصان وينتهي قائلا لهم إن الوعد

القبائلي معروف عنه أنه لا ينتقض، وما على أفعالهم من الآن فصاعدا إلا أن تؤكد سمعتهم.

هذا الحفل الذي كان يقع يوم أحد، لم يكن تاما لولا كثير من السمو الإنساني، فالدين لم تشب روعته. كان الرئيس الأعلى لدير اصطاولي قد جاء منذ يومين للانضمام إلى القافلة. مقابل البحر في أحد أطراف المخيم، أمام أسفل الجبال المتلألئ بين رزمتين من الأسلحة يرتفع هيكل يعلوه صليب عظيم مكون من غصنين من الأشجار مقشرين. أكيد أنه على هذا الهيكل أقام القس ريجيس والأب بارابير مرشد القافلة القداس. عند الإعلاء كانت المدافع تدوي، والأعلام تنحني وكل الجنود المستعدون يركعون على الأرض، والدين المسيحي يقيم بدوره في بلد فتحه سلاحنا[1].

كان المخيم قد نقل من بني حساين إلى زيامة. وكنا نعرف مسبقا أننا لا نواجه أية مقاومة حتى بني عافر. لقد كان كبار هذه القبيلة قد قاموا بمساع لدينا، لكنهم لم يصرحوا بصفة نهائية. أما بنو أيدر وسكان الجبال الآخرون للضفة الشمالية للوادي الكبير، بعد أن صرحوا أنهم سيقاتلون، كانوا يظهرون نوعا من التردد، وكان الشيخ بن عميروش رئيس الحركة يقول بالابتعاد إلى تونس مؤقتا في حالة ما إن رفضوا المقاومة، للعودة لمواصلة دوره عندما تكون فرقنا قد انسحبت. بعد التوقف بزيامة خلال أربعة أيام من جراء الأمطار المتهاطلة، لم يستطع الحاكم العام أن يسير إلا يوم 10 مع الفرقة العسكرية الأولى بقيادة الجنرال دو ماك ماهون. وقد خيم يوم 10 على نهر دار الوادي، ويوم 11 بالعوانة، ويوم 12 في خشامو لدى بني أحمد، ووصل يوم 13 إلى مرجاجن على وادي جنجن لدى بني خطاب. وفي هذه الأثناء توجهت الفرقة العسكرية الثانية بقيادة الجنرال بوسكي نحو الجنوب، وقد واجهت بعض الصعوبات لبلوغ خنقة سلمى، وهبطت فيما بعد في الجزء الأعلى من وادي جنجن، وكانت قد واصلت مصعدة على الحافة اليمنى لهذا النهر، في أعلى مرجانن. وبعد هذه الحركة اتجه

---

[1] - انظر في جريدة الزخرفة (Illlustration) سنة 1853 الرسم الذي أنجزته لهذا الحفل المهيب، وكذلك بعض المخططات الأخرى مذكرة بالحملة.

الحاكم العام يوم 16 إلى حدود بني عافر وبني أيدر وذهب الجنرال بوسكي إلى خناق فدولس جنوب مجموعة الجبال المحتلة من قبل أولى هذه القبائل.

إن بلد بني عافر منيع للغاية لكن أمام انتشار مثل هذه القوة لم يفكروا إلا في الاستسلام. كانت الحملة المشروع أمرا واقعا. وكانت من الآن فصاعدا تعتبر من تاريخ فتوحاتنا لإفريقيا. يوم 18 ماي، كان الجنرال راندون وهو يتوجه بجدول أعمال إلى الجند الذين جمعهم أمام سطيف قد أبرز مقدما علمنا الخفاق على القمم الوعرة، التي كانت تشاهد من المعسكر الفرنسي. إن البرنامج الذي كان قد سطره رئيس واثق في حماس وذكاء جنوده عند الذهاب كان قد أنجز تماما. ولم يكن الافتخار بعلمنا فحسب بل بسلاحنا الذي كان قد تألق في قمة الجبال الأكثر مناعة، وكان قد اجتاز العقبات الأكثر شدة، إنها عبقرية حضارتنا التي قد دخلت إلى بلد جديد.

كان للحملة التي ستغنيها الأحداث الجزائرية فترتان متميزتان: الأولى تنتهي في معسكر بني حساين بتنصيب شيوخ بابور، والأخرى تنتهي في فج الأربعاء باحتلال بلد شاسع يشغله بنو عافر وبنو أيدر. وفي الجزء الأول من الحملة يتعلق الأمر بمهمة عزيزة دائما على أمتنا، وهي جولة مظفرة عبر بقاع كانت تلف سحر المجهول، حيث يبدو أن الواجب تقدم هذه الأيام من جنودنا مزينا تحت إشراقة السرور، أي أيام المعارك، أما في جزئها الثاني فتخص أفعالا من نوع آخر لكنها جديرة بأن تحرك ضمير شعب يعرف كل المروءات. إن جنودنا لم يعودوا يحاربون رجالا، بل يحاربون الطبيعة. إن السكان الذين أدركوا استحالة القتال ضد فرنسا، يتركون لنا بلدهم: ونحن ندخل إلى جبالهم من غير قتال، لكن في ظرف عشرة أيام نرد لهم هذه الجبال مغيرة، حيث الأشجار العتيقة وأحياء من الغرانيت (الصوان)، وأجمات معقدة من العليق والشوك كانت توقف سير أكثر المسافرين جرأة، واليوم يمتد طريق، تستطيع أن تتحمل أرجل الأحصنة وعجلات العربة تقريبا. وعندما علم أن بني عافر وبني أيدر يستسلمون قرر الحاكم شق طريق عبر هذه القبائل تضم أرضهم إلى الأبد

بوصمة سيطرتنا. وقد أقيمت معسكرات على كل المواقع الهامة من حيث تخرج كل صباح فرقة من العمال. لقد كان الجنود هجروا البندقية إلى حمل الرفش والمعول، فبعد أن كانوا قد سكبوا دماءهم كانوا يمنحون أيضا عرقهم لازدهار البلد.

وقد أصبح يوم 27 من الممكن الذهاب من معسكر إلى آخر على طرق قد صارت مسلوكة، وقد رأى القبائل الذين مازال يمكنهم الشك في قدرتنا، هناك علامات أكيدة لقوتنا. لقد كانوا يشاهدون تغير بقعة كاملة بواسطة جهد إرادة فعالة.

كان هذا الإحساس الفجائي الذي يجب أن يحدثه مثل هذا العمل، يبدو على محيا الشيوخ المنصبين بمعسكر فج الأربعاء يوم 29 جوان. وكان في هذا المخيم كما في مخيم بني حساين، الرجال الذين كانوا إلى ذلك الحين قد رفضوا كل سيطرة، يسمعون خطاب الحاكم في رهبة خاشعة.

وإن لم يكن هذا الاحتفال قد اقتبس شيئا من المسرح الذي كانت تحدث فيه روعة تألق حفل بني حساين فإن له أيضا سماته المهيبة.

من فج الأربعاء يكشف النظر من طرفي الأفق، عن المدينتين اللتين كانتا قد ارتبطتا الآن فيما بينهما، قسنطينة وجيجل. كان يمكن تقبيل كل هذا الأخدود الذي كان قد أنجزه عمالنا. لقد عمل الحاكم على تجميع أمام مخيمه وسط العساكر المسلحين، الرؤساء الذين كان يجب أن ينصبهم، وألقى الكلمات التالية:

"أيها القياد والشيوخ الذين أوليهم المناصب تذكروا الالتزام الذي تأخذونه على أنفسكم لخدمة فرنسا بإخلاص. بلغوا السكان الذين ستحكمونهم أننا نريد أن يسود العدل في القبائل، الحق لكل واحد في فلح حقله بسلام، وبيع منتوجاته في أسواقنا. ستجنون من ذلك خيرا كثيرا. إن أردتم العيش في سلام، وعلى العكس من ذلك إن كان البلد في اضطراب سوف لن تتأخروا في رؤية قوافلنا آتية.

"كل ما فات مات لكن بشرط أن تؤدوا الضرائب، وألا تستمعوا أبدا النصائح السيئة، وأن تحافظوا على أمن الطرقات وألا تستقبلوا في بلدكم من يأتون لزرع الفوضى.

"ثقوا في كلمتي، سوف لن يأتيكم إلا الخير".

وما كاد التنصيب يتم حتى كان الحاكم العام يمتطي حصانه، ويغادر معسكر الجنرال بوسكي، حيث كان قد وقع الحفل، للذهاب للنوم بالمعسكر الذي تحتله فرقة ماك ماهون. ومن حضروا هذه المسيرة كانوا قد احتفظوا بالذكرى إلى الأبد. كان الطريق محفوفا تماما تقريبا بالجنود الذين كانوا قد أنجزوه. كان هؤلاء الرجال الشجعان يحيون الحاكم بالتناوب مبتسمين، جباههم مكشوفة، والمعاول بأيديهم لم يكن هناك وجه من هذه الوجوه حيث لا تقرأ عليه معالم السرور لتأدية الواجب وهذه الفرحة المؤثرة التي يشعر بها جيشنا في مؤازرة إرادة رؤسائه. كان جسر بني من قبل الهندسة يرتفع على النهر الذي يعين حدود المعسكر حيث يذهب الحاكم. كان هناك المقدم كرولي، والقائد رينوكس من الهندسة يمكثان على رأس فرقتين كبيرتين من العمال. توقف الجنرال راندون، ومد يده بكرم إلى هذين الضابطين، كانت الفكرة التي أوحت بها هذه الإشارة مفهومة من الجميع، نفس الانفعال شجع صفوفا بأكملها، كل أيد شجاعة التي كانت قد حركت المنقب والمعول كانت تستقبل يد الحاكم.

وكان الجنرال راندون يصل إلى جيجل يوم 30 حيث كان يدخل تحت قوس النصر من الأغصان المقطوعة، المرفوع من قبل سكان هذه المدينة، التي كانت الوضعية فيها مغيرة بعمق، لحسن الحظ. وهناك كان يركب على متن التيتان (TITAN) للذهاب إلى الجزائر تاركا جدول الأعمال إلى جند الحملة:

"أيها الجنود،

"إن الحملة التي كنتم قد دشنتموها بالمعارك المتألقة أيام 19، 20، 21، 22 و23 ماي تبلغ هدفها.

"لقد رأيتم على التوالي السكان الذين كنتم قد حاربتموهم يلتمسون رحمتكم، ويطلبون السلم.

"إنكم إن لم تظهروا حماستكم الحربية، فإنكم قد قمتم بأعمال تدعم سيطرتنا في هذا البلد، بإعداد طرق جديدة للاستعمار.

"وهكذا تكونون قد أديتم واجبا مضاعفا فرض على جيش إفريقيا أنكم كنتم تستحقون الجزائر حقا.

"إن الطريق من قسنطينة إلى جيجل الذي، كنتم قد فتحتموه حديثا بسرعة عجيبة، عبر هذه الجبال التي ما زالت لم تكن قد زيرت من قبل سلاحنا تحمل الشهادة على قوتنا، وعلى إرادتنا في أن نكون نحن أسياد البلد. ستضمن استسلام هؤلاء السكان المتمردين طويلا عن سلطتنا.

"في الوقت الذي ستحل فيه فرقة الجيش التي كان لي شرف قيادتها، فإنني أعبر عن ارتياحي لفرق كل الأسلحة التي تكونها على الانضباط والنظام والحيوية التي برهنتم عليها في كل الظروف.

"في بلد محفوف بالصعاب مثل ذلك الذي اجتزناه، في حين كان لا بد تقريبا من شق الطريق حفرا، وقد كان جنود الهندسة قد بذلوا بصفة خاصة جهدا كبيرا، لقد قدموا ما كان ينتظر منهم، وقد دعي فيالق المشاة بالتناوب للإسهام في هذه الأشغال الشاقة لقد تغلبوا على كل الصعاب بالمعول في اليد مثلما كانوا قد هزموا كل المقاومات المعارضة من العدو.

"أيها الجنود! إن حملة 1853 ستكون لها مكانة في تاريخ فتح الجزائر وأن الأشغال التي كنتم قد أنجزتموها ستكون بالنسبة لكم كفاءة جديدة لنيل عطف الإمبراطور الذي يتجه إلى حيثما يرفرف علم فرنسا".

كان جدول الأعمال هذا خلاصة حملة، كانت لها سمة خاصة من بين تلك التي كانت إفريقيا مسرحا لها، إذ أن الجيش كان له الفضل في هذه العبقريات المبدعة

التي تعطي علامة مميزة لكل أعمالها. كان في هذه الحملة عملان لهما نفس العظمة المتشابهة، وكانا متناميين، هما: الحرب والعمل، لقد اشتركا في مشروع واحد، لقد اتحدا على نفس ساحة المعركة وكان يرسخان التحالف بينهما بفتح كان يعود عليهما بالحصص المتساوية.

وعلى أثر هذه الحملة عاد الهدوء الأكثر تماما إلى بلد جيجل، وكان المسافرون الأوروبيون والتجار، يتنقلون بحرية هناك. وكان المقدم روبيرت القائد الأعلى للطوق ينتهز وضعية الهدوء هذه لزيارته ويشق طرقا هناك للمواصلات من قبيلة إلى قبيلة، من قبل الأهالي أنفسهم، وهكذا فقد جاب خلال شهري سبتمبر وأكتوبر بني عمران وبني خطاب وبني عافر وبني سيار وبني فوغال وبني ورز الدين، مع حراسة لا تتكون إلا من أربعين فارسا فقط، من الأهالي. وبعد أن كان قد استقبل على الوجه الأكمل، وبعد أن لوحظ إذعان واضح جدا في كل مكان دخل إلى بني أيدر آتيا من أولاد عسكر، فذهب خلفة بن عميروش المسمى رئيسا لعشيرته عند التنظيم الإداري الأخير لملاقاته، وجعل لشخصه استقبالا جيدا لكن سمة التمرد التي كانت تميز دائما بني أيدر والطهرية خاصة، لم تلبث أن ظهرت من خلال أقوال ومواقف كانت تشير إلى احترام أقل واجب لفرنسا.

ولم يفت هذا التحول المفاجئ قط عن ملاحظات القائد الأعلى، لكن الحالة الممتدة من الفوضى التي كان يعيشها بنو أيدر، وروح التحرر التي كانت سائدة بينهم، وخاصة تفوق الظهرية المعتادين على إملاء قوانين في البلد، كان كل ذلك يوضح إلى حد ما السمات الشخصية لضيوفهم الجدد. وذهب في الغد إلى بني غزيلي فرع من بني أيدر، ومن هناك، ذهب ليخيم يوم 2 نوفمبر في ظهر أولاد عبد الله، في حكم بن عميروش. حتى ذلك الحين لا شيء كان يدل على حصول الأحداث التي كان لا بد أن تقع سريعا. حوالي الساعة السابعة مساء كان مبعوثان من القائد سي الحسين مولاي الشقفة يعرضان على المقدم روبيرت تقريرا بأن بني أيدر بمساعدة وحدات قتالية لبعض القبائل، قد عقدوا العزم على الهجوم غدرا. ولم يكن هذا الخبر قد

استقبل أولا بكثير من الثقة، لكن لما كانت صرخات الحرب منبعثة من طرف القبائل تسمع من بعيد، تلقى الحسين الأمر بالالتحاق بالقائد الأعلى، ليوضح له طبيعة المؤامرة التي أشيعت له. ولم يستطع الحسين المسؤول عن هذا الموضوع أن يقدم أية معلومة عن هذا الأمر، واكتفي بذكر المسمى بن بوجدر، ولما كان هو المكتشف للخيانة التي كان المقدم روبير مهددا بها. فقد استدعي بوجدر هذا الذي صرح بأنه بعد أن حضر في مأتم، كان قد سمع، وهو يمر أمام جمع من 20 شخصا قبائليا التلفظ بالكلام التالي: "نقسم على أننا سنهاجم غدرا القائد الأعلى لجيجل وأتباعه".

وكانت لهذه التهديدات علاقة كبيرة بالاستقبال القليل الحفاوة للظهرية، وقد طوى الخيمة منذ طلوع الفجر للذهاب إلى الشقفة، القائد المقدم الذي كان قد وافق للقايد خلفة بن عميروش وابنه بالانسحاب بناء على طلبهما، والذي وجد نفسه من غير دليل، تحت إشراف سي الحسين. لقد هبط مع طريق محفوف بالصعاب، ونجح بعد كثير من العناء في أن يقوم بانسحابه من غير إزعاج، ماعدا بعض الإهانات التي كانت قد وجهت إلى القائدين اللذين كانا يرافقانه. وبمجرد انقضاء هذه اللحظة الحرجة، إلى أي تكهن يمكن الميل؟ حيث كانت النجاة بمناورة الانسحاب من الهجوم المعتزم القيام به من قبل القبائل، الذين لم يكن لهم وقت قط للتجمع، وإلا كان الوقوع تحت خدعة مؤامرة باطلة، مرتجلة من قبل الحسين مولاي الشقفة بغرض الإساءة إلى خصمه خلفة بن عميروش، واستعادة مكانته القديمة ثانية. وكان كلا الافتراضين محتملين. لقد كان القائد سي الحسين قد برهن على عدم مثل هذه الكفاءة منذ 1851. بحيث إنه أرغم على أن تنزع منه أعراش كانت قد وضعت أولا تحت قيادته لاعتبارات سياسية. هذا الحد من سلطته مع أنه مبرر جدا قد جعله يسخط. كان يخشى ألا يستغل فرصة ملائمة يوما لاستعادة حقوقه، وليس هناك ما يدل على أنه لم يكن مستفيدا من تلك الفرصة التي كانت تقدمها له جماعة من خمسين رجلا فرنسيا وأهليا. ومن جهة أخرى فإن القائد بن عميروش الذي كان قد انضم إلينا منذ وقت قليل جدا، وكان يحكم سكانا حازمين جدا، كان تذكر استقلالهم القديم بعيدا

عن أن يمحى، كان يجب ألا توقظ أقل الظنون: إنه تحت وقع هذا التأثير المزدوج شرع المقدم روبيرت في تحقيقه.

ويستخلص حسب الأخبار المستقاة عن هذه القضية أن المحرضين كانوا هم آل مولاي الشقفة أنفسهم، الذين جندوا بواسطة عملائهم الدينيين في كل الضواحي بعدد ثلاثمائة بندقية، الناس الفقراء المشردون. إن الهجوم المعتزم القيام به من أكبر الأسرار الخفية من قبل سي الحسين، غير أنه كان قد عرف من قبل بن عميروش هذا الذي عوض أن يبيح به حاول أن يحوله لصالحه، واعترض على كل محاولة للاعتداء على أراضي إقليمه. لكنه فضل بمهارة التصرفات العدوانية لهؤلاء السكان الجبليين ليجعل منهم أعداء ضد سي الحسين. وقد تحيز هذا الذي رأى نفسه مهددا بأن يكون ضحية المؤامرة التي كانت قد دبرت لإخبار المقدم روبيرت عما يحاك.

لقد ذهب القائد الأعلى الناجي، لحسن الحظ، من هذا الكمين ليخيم في سفح جبال بني أيدر مع فرقة حامية جيجل، وأقام هناك من غير أن يكون مزعجا من أي مظهر عدواني جديد، لكن النداء لحمل السلاح لم يبق من غير صدى، فقد أصبح التمرد وشيك الوقوع.

وقد وصل الجنرال القائد للإقليم، الذي رأى من الضروري حضور قوات أكثر ضخامة في البلد، بقافلة من خمسة آلاف رجل، لإعادة النظام. وقد بعثت القبائل المتهمة بوفود إلى فج الأربعاء لمقابلة الجنرال. وبعد عبور بني أيدر واستقبال المستسلمين رجعت القافلة إلى قسنطينة. وقد كانت الجماعة كلها قد اعتبرت بأن المؤامرة كانت من تدبير رجل واحد متعصب، كان قد أراد أن يرضي طموحه والتخلص من منافس، مضحيا، عن غير قصد، بالقائد الأعلى وكل موكبه. وقد طرد سي الحسين منذ ذلك الحين من البلد واحتجز في ميلة.

وفي سنتي 1854 و1855 لم يقع أي حدث يستحق الذكر. وقد انتهز المقدم فرصة الهدوء المتنامي دائما لبناء برجين للقيادة، واحد في الشحنة لدى بني عافر،

والآخر في ظهر أولاد عبد الله، لدى بني أيدر، وقد شرع في بعض التجارب في الفلاحة الصناعية، خاصة القطن، وأنجز طريق البغال المفتوح من قبل حملة الحاكم.

وكان من بين بعض الدسائس المحلية الأخرى محاولة اغتيال ضد ثلاثة قياد كذلك قد أحبطت، ولم تشارك القبائل التي تجاور سكان بابور بأي قدر في المقاومة التي تساند سنة 1856 ضد قافلة الجنرال ميسيات الذي عاقب بشدة بعض القبائل المتمردة، مقاتلا إياها في عين السلطان، منتانو، وتاقربوست. بعد أن اختار الجنرال ميسيات الموقع الذي كان قد بنى عليه المركز العسكري لتاقيطونت الذي يشرف على المنحدر الشمالي لبابور، استخدم فرقة قافلته لشق طرق استراتيجية وسط هذه الكتلة من الجبال، وأخيرا لفتح طريق البغال من جيجل إلى سطيف. وهكذا ففي خلال مدة العمليات العسكرية التي كانت تلزم لفرض السلم، وضمان الأمن في المقاطعة، كان الجيش يكرس كل وقته في إنجاز أعمال للمنفعة العامة، ومفيدة للاستعمار.

وحين الزلزال الأرضي الذي دمر مدينة جيجل في سنة 1956 حاول بعض الأشخاص الخرافيين، المتزمتين أن يبذروا الاضطراب في الأذهان معلنين بأن ساعة استئصالنا قد دقت. وكانوا يقولون: إن هذا الزلزال الذي كان يقوض منازل المسيحيين برهان جلي على غضب الله ضدنا. ولحسن الحظ فقد بقي القبائل هادئين، لكن يمكن تصور نتائج خطيرة قد تكون مستخلصة فيما لو أن سكان جيجل التعساء اللاجئين حينذاك تحت الخيم في البساتين، كان عليهم أيضا أن يدفعوا هجمات أعداء هائجين.

في شهر جويلية 1858 ظهر اضطراب جديد حاد في مرتفعات جبال جيجل، والقل ومنخفض الوادي الكبير. لقد كان الأهالي يعتقدون أنهم مهددون في حرية تمتعهم بغاباتهم بدخول الأوروبيين في الامتيازات (الاحتكار). وكانوا يأملون أن يجدوا في الفوضى التي ستقع وسيلة لإبعاد الاستعمار عنهم. لقد بدأت الاستياءات بإحراق عدة غابات، والامتناع فيما بعد عن دفع الغرامة، التي كانت قد فرضت عليهم من جراء هذا الفعل، وقد اشتري علانية من الأسواق البارود والرصاص، ومنذ ذلك أصبح من المستعجل التوجه إلى البلد بقوات ضخمة لمنع التمرد في بدايته. وفي

شهر نوفمبر 1858 كان الجنرال قاستو يدخل إلى منخفض الوادي الكبير كانت الجماعة كلها تأتي إلى المخيم وتحمل غرمها. وكان قد قرر آنذاك إنشاء مركز قيادة بالميلية على الضفة اليمنى من الوادي الكبير، وقد بدأت الأشغال فورا. وقد ترك الجنرال بالميلية ضابطا مكلفا بمراقبة البلد، وتسوية أمورالقبائل. وكان كل شيء يبدو ضروريا في المستقبل لإبعاد الاضطرابات التي كان يشتكي منها.

كان على الجيش الفرنسي، منذ الاستيلاء على قسنطينة أن يقاتل عدة مرات للتغلب على هؤلاء الجبليين المشاكسين الغلاظ. لقد أجبرت حملات الجنرالات براقواي، دي هيلتي، من جهة القل، وهيربيون في الزواغة، وسانت أرنو، وماك ماهون، وراندون، وميسيات، وقاستو في كل الناحية بما فيها ما بين الوادي الكبير، وبابور والبحر، هذه القبائل على التوالي على الاستسلام، وقبول رؤساء باسم فرنسا. لكن كان الجهل الفادح والعادات الهمجية الفظة لهؤلاء القبائل وتشتت المساكن وانعدام الطرق حتى ذلك الحين عوائق جادة لسلطة مطلقة في هذه الجبال. وخلال السنوات الأولى كان من اللائق تقبل بعض الأمور، كان لا بد أن تتعدل مع الزمن. كان إذن التسامح أحيانا مع هؤلاء السكان المتخلفين، وقد حاولنا أخذهم تدريجيا على التنفيذ الكامل لأوامر السلطة الفرنسية. وبالرغم من هذه التشجيعات، فإن العديد من القبائل رفضت سنة 1859 تسديد الضرائب واستلمت لأكثر الاضطرابات في الأسواق، وخربت الخيوط التليغرافية والكهربائية بين جيجل وقسنطينة، وانعدم أمن المواصلات في هذا الجزء من الإقليم. وقد وجدت سلطتنا نفسها هناك محتقرة تماما. وكان قد تقرر القيام بحملة حاسمة في هذه الظروف ضد القبائل المتمردة لبلاد القبائل الشرقية. وكانت قافلة من عشرة آلاف رجل قد وضعت تحت أوامر الجنرال ديزافو (DESAVAUX) قائد الفرقة العسكرية لقسنطينة. وكانت هذه القافلة تصل إلى فج الأربعاء لأولاد عسكر في نهاية شهر ماي 1860. وخلال الأيام الأولى كان قد أتيح الأمل، في أن يبقى العصاة المفصحون عن مصالحهم الحقيقية، في الالتزام، من غير لزوم للجوء إلى القوة. لاشيء كان مهملا، لإعادة القبائل، وتوضيح جور الإفك لهم، وخطر الدسائس التي كانت قد استخدمت لإلهاب عواطف السكان. وقد صرح

الجنرال بناء على القوة نفسها لقافلته في كل اجتماعاته مع القبائل، أنه كان مستعدا للتسامح شريطة أن يصرح بضمانات ضد الفوضى في المستقبل. لقد كانت جهوده غير مجدية، فقد انتهى رؤساء الطوائف المقاومة بابتزازه. وقد كان الجهاد قد أعلن في اجتماع أقيم بسيدي معروف لدى بني خطاب. وعلى إثر هذا الاجتماع كانت فرقة حرس المعسكر فج الأربعاء قد هوجمت بطلقات نارية خلال ليلتين، وكانت فرقة مسخرة أرسلت للعلف قد أزعجت. كان القبائل قد شرعوا في الحرب، ولم يبق سوى البرهنة لهم على حماقة ثورتهم.

لقد بدأ العقاب ببني خطاب أولا، لأنهم كانوا يعتقدون أن بلدهم منيع لاينال منه، ثم إن إشارة الثورة كانت قد انطلقت من جبلهم. ولم يكن هذا الصقع قد زير من قبل جنودنا، ولم تكد تكن قد وطئت بهذا القدر، إلا الأطراف الأكثر قربا من الزواوة. وبعد المعارك المتألقة للعروسة وبوطويل، أقيم المعسكر في رأس تافرطاس. وخلال خمسة عشر يوما عوقبت كل فروع بني خطاب. وتسلق جنودنا مناورين في فرق صغيرة كل القمم بعناء، حتى قمة سيدي معروف، حيث كان قد وقع المجلس الاحتفالي لإعلان الجهاد. كل المجاري كانت قد فتشت، وعندما كانت القافلة تغادر تافرطاس، كان الأكثر حمية يعتقدون أنهم يستطيعون أن ينتهزوا كثافة الضباب لمهاجمة مؤخرة الحرس، وقد جعلهم رجوع مفاجىء للفرقة الثالثة من الزواوة يدفعون ثمن جرأتهم غاليا، بعد مهاجمتهم، واندحارهم تماما، لقد فروا في كل الاتجاهات تاركين أسلحتهم، وموتاهم، وجرحاهم.

لقد جابت القافلة على التوالي أراضي أولاد علي وبني عيشة وتايلمام وبني حبيبي وبني أيدر وبني يفتح، محترمة القبائل البريئة، معاقبة بشدة القبائل الجانية. وأخيرا طلب كل المتمردين الأمان بعد فتور همتهم من جراء خسائرهم، وضعفهم، وبعد تطويقهم في وادي يرجانة (قرجانة) ونفذوا كل الشروط التي كانت قد فرضت عليهم.

ويوم 16 جوان، عندما كانت القافلة العسكرية تأتي للإقامة في تافرطاس، كان قد وقع اعتداء فظيع ضد مؤسسة الغابات للسيد م. بوك وديلاكروه (DELACROIX) لدى بني مسلم. كانت كل الأعراف الإنسانية قد انتهكت، كانت عصابة من الغادرين، منقضة كالذئاب الهائجة على بعض الفرنسيين الذين كانوا يسكنون هذه المنشأة. وكان أولاد عواط وبنو مسلم، المتسببون في هذا الإجرام، قد عوقبوا بقساوة، ودفعوا التعويضات، وسلموا الجناة الأكثر إجراما الذين كان عليهم أن يجيبوا عن جريمتهم أمام مجلس الحرب.

كانت البلاد الجبلية التي تحاذي الضفة اليمنى للوادي الكبير مسرحا للعمليات الأخيرة للحملة العسكرية عام 1860، وراء دائرة جيجل، ولن نتحدث عنها هنا إلا بإيجاز. وبعد التيه في الضلال الذي كان يبدو حاجبا لعقل القبائل منذ عامين، كان بنو تفوت قد هاجموا موكبا صغيرا للفرنسيين الذين كانوا يعبرون بلدهم، وقد حاولوا بقيادة أحد شيوخهم الاستيلاء على منزل القايد. وقد كانت القبائل المجاورة في حالة هيجان كبير، وكان يخشى ألا ترضى كل مرتفعات القل إلا بالعصيان. لقد انتقلت القافلة إلى بني تفوت من غير إضاعة للوقت، وفي بضعة أيام كانت قد عاقبت المجرمين.

وكان عرب تاسقيفت، وهم فرع من أولاد عيدون، قد أصبحوا كذلك مرعبين في البلد. كانوا ينقضون من صخورهم التي تشرف على الوادي الكبير كالطيور الجارحة على المسافرين العزل، ويسلبونهم. وقد اجتمعت القبائل المجاورة التي عانت من نهبهم بالسلاح لمقاتلتهم، ووضع حد للصوصيتهم وقد كان عرب تاسقيفت، المجتمون في كهوف منيعة، دائما منتصرين في هذه الهجمات، قاتلين عددا كبيرا من مهاجميهم. لم يكن مقبولا ترك مثل هذه العصابة المجرمة مستمرة. فقد تلقت كتيبة من القناصة الأمر بالاستيلاء عليهم. ورغم صعوبة هذه الصخور العمودية فإن قناصينا قد التفوا على عرب تاسقيفت، وهاجموهم في هذه المغاور من حيث لم يستطع الأهالي إخراجهم. لقد دامت المعركة عدة ساعات، وشهد على ضراوة الهجوم، مثل الدفاع، العديد من الجرحى والقتلى، وأخيرا استسلم عرب تاسقيفت بإرادتهم.

كان كل شيء قد انتهى في بلاد القبائل الشرقية، لقد كان المحرضون على الفتن قد ألقي عليهم القبض أو سلموا، فالرهائن بين أيدينا، والتغريم في صناديق الدولة، وقد جردت من السلاح العديد من الفروع التي لا تقبل التأديب وقد كان الهدوء يعود إلى البلد من جديد، بعد كثير من الاضطراب. كانت القافلة قد حلت، وعندما كان جنود المقاطعة يعودون ببطء إلى مواقعهم الخاصة كان الجنرال يرافق الأفواج الآتية من المقاطعات الغربية إلى جيجل ليرسلهم عن طريق البحر.

كان يجب أن ينتهي تاريخ جيجل السياسي هنا، بسبب أنه منذ 1860 أي منذ العمليات العسكرية للجنرال ديزافو (DESAVAUX) لم تتوقف القبائل المنظمة على قواعد متينة عن تقديم البراهين الجلية عن طاعتهم الخاصة لنا، ما عدا بعض الاستثناءات التافهة. إن العمل الذي يستحق الذكر، هو المدد الذي قدموه لنا بمساعدة فرقهم المسلحة، لسحق المتمردين في عام 1864 الذين حاولوا كذلك تفجير الحرب مرة أخرى في البابور وفي الزواغة. في ربيع هذه السنة، جاءت عصابة كبيرة من قبائل الزواغة بقيادة مقدم إخوان الطريقة الدينية لسيدي عبد الرحمان، تنقض على برج قايد الزواغة، وتسلبه وتحرق القرابي التي تحيط بالبرج، لا شيء كان ينبئ، ولا شيء كان يمكن أن يفسر هذا الهجوم الجريء. وقد شرعت فرق الوادي الكبير وفرق دائرة جيجل بقيادة قيادهم وشيوخهم أنفسهم في مطاردة المقدم رئيس العصابة، وقد نجحوا في القبض عليه. غير أن بعض التأثر ظهر في جبال بابور. وكانت الأحداث التي تقع آنذاك في الصحراء من مقاطعة وهران والجزائر لا تسمح بدخول الجبل. ومن جهة أخرى فإن تونس المنقادة إلى صوت أحد الممسوسين، علي بن رضاهم، الذي نصب نفسه باي الشعب، كانت مملوءة اضطرابا، وكان يمكن للفوضى أن تبلغ مشارف حدودنا. كان لا بد إذن من اليقظة في كل مكان. لقد استطاع الجنرال بيريقوت أن يدخل مع جنده إلى البابور في ربيع 1965 وعاقب المتمردين بعنف، واسترجع الهدوء إلى البلد. وخلال هذه الحملة أعطت الفرق المقدمة من طرف أعراش طوق جيجل أدلة جديدة على إخلاصهم، بقتالهم المتمردين بعنف، وكانت سيرتهم تستحق التهنئة. ومنذ ذلك الوقت استعاد سكان هذه الناحية المتحررون من كل انشغال خارجي أعمالهم العادية بنوع من النشاط الجديد، وقد أوحت لهم العلاقات المختلفة التي

كانت لهم معنا بثقة مرضية، ويبدو أنهم فهموا فهما صحيحا أن منافع أمن الطريق، واستغلال المعادن وغاباتهم الغنية وأخيرا حرية التجارة، يجب أن تثمر لهم، هم أصحاب النظرة الجريئة الجموحة، الذين كانوا لا يسيرون أبدا من غير بندقية في اليد، وعتادهم في الحزامة، يظهرون بمظهر المنقاد، ومظهر القرويين المسالمين. لقد أدركوا بلا شك أنهم لا يستطيعون مقاومتنا، في حالة عصيان وأن مصالحهم ستكون سهلة للحجز، لكن لا ينبغي الانخداع كثيرا حتى بذلك، ولا ننسى أن حالة الهدوء التام هناك، كما في كل مكان آخر تحتاج إلى مراقبة يقظة مستمرة، وستخضع طويلا إلى درجة قوتنا.

إن الطرق الاستراتيجية المفتوحة من طرف الجيش تدريجيا أثناء مسيرته عبر هذه البلاد التي لا ينفذ إليها قديما، مصونة اليوم من قبل اليد العاملة الأهلية، وفضلا عن ذلك تقطع الجبال العديد من طرق البغال المنجزة من طرف القبائل، مسهلة العلاقات بين قبيلة وأخرى، تساعدهم على تصدير منتوجاتهم إلى سوق جيجل وقسنطينة، ومن ناحية أخرى ستكون هذه الوضعية مزدهرة جدا، عندما تربط طريق العربات بين المدينتين.

فيكفينا أن نضيف خاتمين، إنه خلال الكارثة التي ألمت بالجزائر لم يعان قبائل جيجل الذين هم أكثر احتياطا من عرب التل، من الفقر، ومن هنا يستنبط أن الأوبئة نفسها لم تصب عندهم إلا قليلا من الضحايا.

إن مثل هذه النتائج لا يمكن إلا أن تكون مفيدة للمستعمرة، معجلة الوقت حيث، سيقترب هذا الجنس النشيط والمثابر من العنصر الأوروبي ليشاركه مصالحه.

ملحق أ

القادة الضباط السامون لطوق جيجل.

1839 – الاستيلاء على المدينة يوم 13 ماي من طرف القائد الأعلى للأسطول الصغير دوسال.

1839 – الرائد هونوفو

1840 – المقدم بيكولو

1841 – الرائد فيلينوف

1841 – الرائد كلاباريد

1841 – المقدم ديليات

1842 – المقدم تينجو ديلانوي

1843 – الرائد لا فارين

1844 – الرائد جيرمان

1845 – المقدم ريجود

1848 – الرائد فور

1848 – الرائد مايير

1848 – الرائد بودفيل

1850 – الرائد بيكارد

1851 – المقدم روبيرت

1857 – الرائد كريسلي

1859 – الرائد دو هالمونت

1859 – الرائد بونفاليت

1861 – النقيب لوكاس

1864 – الرائد كابديبون

في عام 1858 كانت جيجل قد نصبت بها محافظة مدنية.

في فيفري 1860 كانت البلدية قد اعترف لها بكامل نشاطها.

ملحق ب

احتكارات أشجار الفلين والزان الممنوحة للأوروبيين في نطاق دائرة جيجل هي:

في بني فوغال مساحة 7.750 هكتار إلى السيد م. لاكروه وفيرلوي، وبيفاريني.

في بني مجالد 5.500 هكتار إلى السيد م. دي فيرون، وشومالي.

في بني عمران 4.800 هكتار إلى السيد م. نود وشركائه.

احتكارات أخرى لم تحدد بعد.

تصويبات

ص 224 السطر 20 عوض 1243 قرأ: 1253 (1837 م).

الفهرست





دار الخلدونية
05 شارع مسعودي محمد - القبة القديمة - الجزائر
هـ/ف : 021.68.86.48 هـ : 021.68.86.49
email : khaldou99_ed@yahoo.fr